حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - september - 2016 ذو القعدة ١٤٣٧هـ

مجلة فصلية - السنة الأولى العدد (1)

نشاطات وفعاليات المركز من حفل الإشهار حتى لحظة الإصدار

بعد (50) عاماً
السلطان غالب بن عوض القعيطي
يستعيد ذكرياته ويكشف حقائق لأول مرة

تأملات في لغة القرآن

مدينة بلا صحف

الحركة الإصلاحية في حضرموت

عدن .. بين فريا ستارك ومحمد علي لقمان

جدل (الأنوثة والذكورة) وتكاملهما في سرد الأستاذ صالح سعيد باعامر

شعرية السرد في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) للقاص أحمد جعفر الحبشي

ورحل الرائدان
حسنون وباشريف

من أعلام حضرموت

المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف

ولد في الشحر يوم الجمعة ٢٥يونيو ١٩١٥م

توفي - رحمه الله في المكلا - بتاريخ الأول من يوليو عام ١٩٨٨م.

بريشة

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

جائزة أفضل بحث تاريخي لعام 2016م

إحلال السلام في حضرموت (صلح إنجرامس)

بمناسبة مرور ثمانين عامًا على هدنة السلام في حضرموت والتي اشتهرت في الأدبيات التاريخية الحضرمية بصلح إنجرامس؛ يطلق مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر جائزته لهذا العام 2016لأفضل بحث تاريخي يُعرَف بهذا الصلح الذي يُعد خطوة حضرمية فريدة على مستوى الجزيرة العربية، أسهمت في إرساء دعائم السلام العام في حضرموت بعد قرون من الفوضى القبلية واضطراب الأمن، كما تهدف هذه الجائزة أيضا إلى إثراء الكتابة التاريخية، وتشجيع البحث العلمي المتعلق بحضرموت وتاريخها وتراثها.

الشروط العامة للتقدم للجائزة :

- أن تمتاز الأبحاث بالجدة والأصالة وسلامة المنهج .
- أن لا يكون البحث المقدم قد سبق نشره.
- ألا تقل عدد صفحات البحث عن (40) صفحة .
- أن يُكتب البحث بلغة عربية سليمة وصحيحة طباعياً ولغوياً.حجم الخط (16) الهامش (14) نوع الخـط (Simplified Arabic)
- يجب على الباحث تقديم نسخة من بحثه بصيغة وورد على قرص دي في دي وتسليمها لإدارة المركز على العنوان التالي: (حضرموت- المكلا – منطقة بديري –عمارة بن سواد تلفون 350135)، أو يرسلها عبر البريد الإلكتروني: asaljaidi@gmail.com
- يقدم المشارك سيرة ذاتية مختصرة يذكر فيها عنوانه الحالي ورقم هاتفه للتواصل.
- البحوث الفائزة تصبح ملكيتها الفكرية للمركز، ويحق له طباعتها في كتاب ونشرها وتوزيعها وبيعها.
- آخر موعد لاستلام الأبحاث 15سبتمبر 2016م.
- موعد إعلان الفائزين بالجوائز 24نوفمبر 2016م (في حفل خاص).

جوائز المسابقة: تمنح الجائزة سنويا باسم مركز حضرموت للدارسات التاريخية والتوثيق والنشر وهي جائزة تشجيعية ومالية موزعة على النحو الآتي:

- **الجائزة الأولى (300ألف ريال يمني) + درع الجائزة.**
- **الجائزة الثانية (250ألف ريال يمني) + درع الجائزة.**
- **الجائزة الثالثة (200ألف ريال يمني) + شهادة الجائزة.**

جائزة أفضل الأفلام الوثائقية والتسجيلية لعام 2016م

الحرف والمهن التقليدية الشعبية في حضرموت

المستهدفون بالجائزة: المختصون والمهتمون والهواة في مجال العمل السينمائي والتلفزيوني (فرقاً وأفرادًا).

الشروط العامة للتقدم للمسابقة:

- لا تقل مدة الفيلم عن 5دقائق ولا تزيد على 15دقيقة.
- ألا يكون العمل قد فاز في مسابقة محلية أو خارجية.
- لا يحق للمتقدم المشاركة إلا بعمل واحد فقط.
- يتم تحميل الفلم بدقة عالية على الوسائل المتاحة كاليوتيوب وغيره على رابط مغلق للاطلاع الخاص فقط وإرساله عبر الإيميل التالي: asaljaidi@gmail.com، أو تسليمه على قرص دي في دي في مقر المركز على العنوان التالي: ((حضرموت- المكلا – منطقة بديري – عمارة بن سواد تلفون 350135)).
- الأفلام الفائزة بجوائز المسابقة تصبح ملكاً حصرياً للمركز.
- آخر موعد لاستلام الأعمال 15سبتمبر 2016م .
- موعد إعلان الفائزين بالجوائز 24نوفمبر 2016م (في حفل خاص) .

المعايير الفنية للأفلام التسجيلية المشاركة:

- وضوح فكرة العمل وتميز المعالجة الفنية.
- جودة السيناريو وتماسكه فنياً وتاريخياً.
- دقة التصوير والإضاءة والمونتاج.
- نقاء الصوت (تسجيلاً وتعليقا وحوارات).
- تناغم المؤثرات الصوتية مع المشاهد التصويرية.

لجنة التحكيم: سيشرف على التحكيم لجنة فنية مكونة من ثلاثة أعضاء من أساتذة المعهد العالي للسينما بجمهورية مصر العربية، إضافة إلى لجنة علمية محلية مكونة من ثلاثة أكاديميين لتحكيم المحتوى.

جوائز المسابقة: تمنح الجائزة سنويًا باسم مركز حضرموت للدارسات التاريخية والتوثيق والنشر وهي جائزة تشجيعية ومالية موزعة على النحو الآتي:

- **الجائزة الأولى : (400ألف ريال يمني) + درع الجائزة.**
- **الجائزة الثانية : (300ألف ريال يمني) + درع الجائزة.**
- **الجائزة الثالثة : (200ألف ريال يمني) + شهادة الجائزة.**

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الأولى العدد (١)

يوليو - سبتمبر ٢٠١٦م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

صاحب الامتياز

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي

رئيس التحرير

أ. صالح حسين الفردي

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

التدقيق اللغوي

د. عمر بابعير

أ. حسن الشنيني

الهيئة الاستشارية

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

د. خالد يسلم بلخشر

د. عبدالقادر علي باعيسى

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

مراسلات المجلة

Hc.magazine16@gmail.com

asaljaidi@yahoo.com

العنوان : المكلا - باجعمان

عمارة بن سوّاد - ت، ٣٥٠١٣٥

حديث البداية

دعونا ننطلق معاً ! 6

متابعات

اضاءات من حياة الفقيد سعيد عبد الرب الحوثري 8

أضواء

نشاطات وفعاليات المركز من حفل الإشهار حتى لحظة الإصدار 10

تاريخ

تشينغ خه في ضيافة سلطان الشحر أبي دجانة 22

أوراق في تاريخ السلطنة القعيطية - (احتلال العبر) 25

الوقف الخيري والأهلي في حضرموت 26

محطات في تاريخ السلطنات الحضرمية 28

أمكنة

منطقة لجرات..
حزام أخضر يتوسط وادي دوعن الأيمن 30

الطرق القديمة في وادي دوعن 33

أعلام

رجال في مواكب الأدب

الأستاذ محمد بن هاشم

34 .....

دراسات

جدل (الأنوثة والذكورة) وتكاملهما
في سرد الأستاذ صالح سعيد باعامر

البعد الغرائبي
في شخصيات سردية الحَمُودي

شعرية السرد في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء)
للقاص أحمد جعفر الحبشي

قراءات

(الحركة الإصلاحية في حضرموت) لعلي الكاف

توقيع قلم

النهقة

تأملات

تأملات في لغة القرآن

مدينة بلا صحف

في هوية الإبداع الأدبي (الروائي)

إبداعات

شعر

أمضي
مقاطع ملونة
ليل الشبواني
صحو من ملامحه المطر
حنين واغتراب
روبرتاج
لقاء عاجل مع موت عابر

سرد

ليل !
شيخ المدونين
تركة عاشقي الحياة

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنيّة إخراجية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر

ذاكرة

الشيخ عبدالرحمن الملاحي ..حول الشحر، وكورنيش ابن عتيق 35

كتابات

فضيلة الخطيب .. السلام عليكم 36
بين زمنين .. حصاد بعد زاد 39
تجربتي في الترجمة 40
من ثمرات اللغة 42

تراث

آلة القنبوس .. مع الفقيه باصبرين 43
بيننا عيش وملح 44

حوار العدد

السلطان غالب بن عوض القعيطي 46

ترجمات

حكايتي مع عبدالرزّاق قُرنح 60
عدن .. بين فريا ستارك ومحمد علي لقمان..... 62
تحية لهذا الفارس 64

ملف العدد

باشريف ، حسنون ، المفلحي ، حدّاد ، الملاّحي ، بو عمر ، برمة 93

فنون

المسرح ومواد التكوين الأولى 101
مدرسة مكارم الأخلاق ونشاطها المسرحي 102
الشاعر التوي .. في ذكرى وفاته الـ (٢٩) 104

العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

دعونا ننطلقْ معًا!

الأستاذ:
محمد بن سالم بن علي جابر

عزيزي القارئَ الكريمَ..

«حضرموت الثقافية»، هذه المجلةُ التي بين يديك عددُها الأولُ، نأملُ أن تكونَ إضافةً جديدةً للمشهد الثقافيِّ والحضاريِّ لحضرموتَ.. الوطنِ والمهجرِ، وأن تشكلَ إضاءةً وإشعاعًا لرسالة المركز الذي أخذ على عاتقه- من لحظة التأسيس الأولى- خدمةَ حضرموت تراثًا وتاريخًا وحضارةً وإنسانًا، أينما كان وحيثما حلَّ، بعيدًا عن التَّقوقُعِ المقيت، والاستقطابِ المفتِّتِ لكينونة حضرموتَ، كلِّ حضرموت!

عزيزي القارئَ الكريمَ..

على الرغم من إدراكنا العميق لصعوبة البدايات لأيِّ مشروعٍ نهضويٍّ وتنويريٍّ يستقي من جذور التاريخ المجيد؛ ليغرسَها في لحظة تأصيلٍ راهنة مندرجة في سياقها الحضاريِّ والإنسانيِّ الذي كانتْهُ حضرموتُ، مستشرفًا المستقبلَ بآفاقه وأبعاده اللامتناهية، في محاولة واعية، بفكرٍ متجدِّدٍ لاستعادة الهوية وتبيان تنوُّعها وثرائها وتثاقُفها العابرِ للبحار والمحيطات، والموغلِ في القِدَم مع شعوب المنطقة خاصةً وشعوب العالم عامةً: - إلا أنَّنا أكثرُ حرصًا على الانطلاق والاستمرار بهذه المجلة الواعدة التي تأتي في سياق الأهداف العامة التي يحملُها «مركزُ حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر».

وما يجعلُنا نزدادُ قناعةً بأهمية هذا الدور وضرورته، ويدفعُنا إلى السَّير الحثيث به وفيه، والانطلاق بعزيمة وإصرار - هو ما لمسناه من تجاوُب كبير وحرص شديد من كلِّ الأساتذة الأجلاء من حملة الأقلام (كُتَّابًا وباحثين ومُبدعين) في داخل حضرموتَ وخارجها، الذين رفدوا العددَ الأولَ بمقالاتهم ودراساتهم وأبحاثهم وإبداعاتهمُ الشعرية والسرَّدية، إضافةً إلى تفاعل الكثير من الصّحفيين والإعلاميين الذين أمدُّونا باستطلاعاتهم وتغطياتهم وتحقيقاتهم المتنوِّعَة عن جغرافية حضرموتَ وما تحتويه من كنوز إنسانية ومعرفية وتاريخية وحضارية، ستجدُها - عزيزي القارئَ الكريمَ - بين دفتَيْ هذا الإصدار، مؤكِّدين أننا سنظلُّ في حاجة ماسة لمساهماتكم الدائمة وملاحظاتكم المستمرّة لتطوير عمل المجلة وتعميق حضورها في المشهد الثقافيِّ الحضرميِّ، ونشر رسالتها الرصينة الجادة، لثقافة أكثرَ التصاقًا بتراث الإنسان الحضرميِّ وتاريخه وحضارته، وسنَبذُلُ في هذا الصددَ قصارى جهدنا لتعميم فائدتها ونشر رسالتها ما استطعْنا إلى ذلك سبيلاً.

عزيزي القارئَ الكريمَ..

في خاتمة هذه الإطلالة الأولى من حديث البداية، لا يسعُني إلا أن أتقدَّمَ بجزيل الشكر والامتنان، لكلِّ الأحبة - في هيئة التحرير - الذين أخذوا على عاتقهم النهوضَ بهذا العمل والسهرَ على إنجازه.

والشكرُ موصولٌ - مجددًا - لكلِّ الأعزاء من الكتّاب والمثقفين والباحثين والإعلاميين والصحفيين، الذين تشرَّفْنا بمشاركاتهم في العدد الأول من مجلة «حضرموت الثقافية»، موجِّهين الدعوةَ للذين لم يسعفْهمُ الوقتُ للإسهام في هذا العدد، لكي يشاركوا في العدد القادم وما يليه من أعداد، إذ ستظلُّ «حضرموت الثقافية» باذلةً صفحاتها لكلِّ الأقلام والكتابات الجادة التي تثري الواقعَ الثقافيَّ الحضرميَّ وتنمّي الوعيَ..

والشكر لك أنت عزيزي القارئَ الكريمَ لاستقطاعك من وقتك الثمين لمطالعة هذا العدد من «حضرموت الثقافية»، على أملِ اللقاء بكم في أعداد قادمة، إن شاء اللهُ

اضاءات من حياة الفقيد سعيد عبد الرب الحوثري

مضى كفيمة هاسة وهو الساغب في ذروة صمته. هل أيقن أن الزمان يستمرئ مغالتة رمادية فآثر أن يتخفف مما نـاء به صمراً كاملاً؟

توطئة: إن الكتابة عن الفقيد سعيد عبد الرب الحوثري الشخصية الاجتماعية والسياسية والصحفية البارزة - رئيس جمعية التراث والآثار بالديس الشرقية تجتاحها رياح السياسة والنضال الثوري والعمل التطوعي الاجتماعي والصحفي الانتقادي لتلقي بظلالها على حياته المتشعبة في الديس وعدن وأوغندا والكويت لنجد أنفسنا في نهاية المطاف أمام عدة تجارب للفقيد وكما قال الأخ سعيد احمد بن اسحاق: (إن سعيد عبد الرب لم يحمل بين جوانحه شخصية واحدة فقط بل إنه تعيش في روحه عدة شخصيات) وذلك في الكلمة التي ألقاها في حفل التأبين بصالة ثانوية الصديق للبنين بالديس الشرقية.

إعداد: صالح سعيد بحرق - تصوير: طاهر ناصر المشطي

مدخل: إن شخصية سعيد عبد الرب كما تبدو لنا عجيناً غريباً من الإصرار والتحدي والإخلاص لقضايا الوطن، وهو شخص لايقتنع بالسهل من الامور بل يسعى الى ما هو اصعب منالاً منها ذلك لان روحه متعطشة دوما الى الافضل والاحسن لشعبه ومما يدل الى ذلك في حياته الشخصية انه ولأسباب عائلية لم يستطع اكمال دراسته الابتدائية فهاجر الى افريقيا حيث يعمل والده من اجل مساعدته يقول الأستاذ عبد الحافظ عبد الرب الحوثري عن هذه الفترة ضمن مذكراته عن سعيد عبد الرب:

(أكمل المرحوم الصف الرابع بمدرسة الديس الشرقية ولكنه لم يحضر الامتحان النهائي الذي يؤهله للالتحاق بالمدرسة الوسطى بغيل باوزير وذلك لعجز والده، لذلك اضطر الى السفر الى افريقيا للوقوف الى جانب والده الذي كان يعمل في اوغندا في عام ١٩٤٨ مضحياً بمستقبله التعليمي للقيام بأعباء الاسرة ومكث فيها حتى عام ١٩٥٦ ليعود الى الوطن للزواج).

اغتراب ومواقف وخصال:

ولاشك إن الاغتراب المبكر لهذه الشخصية قد أضفى عليها نوعاً من الصلابة واتخاذ القرار الذي تميز به سعيد عبد الرب لاحقا اثناء عمله السياسي فقد كان طموحاً يسعى إلى التغيير وشجاعاً يصبو الى تحقيق امنيات الوطن يقول عنه الأخ عمر جبران في مذكراته التي تجمعه به:(في شهر يونيو ١٩٦٩ جمعتنا الظروف لنعمل في جهاز اداري هو قيادة المديرية الجنوبية كما هي التسمية آنذاك ومركزها مدينة الشحر وامتدادها من الشحر جنوبا حتى صحراء ثمود شمالا ومن شحير غربا حتى سيحوت شرقا) ويضيف عمر جبران قائلا: (وخلال تلك الفترة التي عملنا فيها معاً كان فقيدنا (أبو أنور) مثالا للإداري والسياسي والوطني الممتاز وذلك من خلال تعامله مع مواطنيه وقضاياهم وتعامله مع من حوله وما يحظى به من احترام فكان مثالاً للإنسان والمسؤول المتسامح لا يحمل ضغينة على احد. كان عفيف النفس نظيف اليد والملبس) وعن صلابة مواقفه يستطرد الأخ عمر جبران في هذه المذكرات: (كان وعي أبي أنور المبكر وادراكه للمخاطر التي كانت تحدق بالثورة وبالوطن جعلته لا يتوانى عن قول الحقيقة وان يجهر بالتحذيرات من القادم الذي يهدد الوطن).

سعيد عبد الرب في عدن وبدايات انطلاقاته الصحفية:

اضطر سعيد عبد الرب ان يذهب الى عدن للعمل عند التاجر باشنفر كاتباً ثم انتقل إلى عند العيسائي وأثناء وجوده في عدن لم ينس النشاط السياسي فأخذ يكتب في الصحف وكان العمل السياسي في عدن آنذاك في اوجه.

يقول الأستاذ عبد الحافظ عبد الرب الحوثري في مذكراته عن هذه الفترة: (اشترك الأخ سعيد في أثناء وجوده في عدن بحركة القوميين العرب التي تحولت فيما بعد الى الجبهة القومية فقد كان الفقيد منذ صغره شغوفا بالعمل السياسي والصحفي وبالحركات السياسية).

سعيد عبد الرب في مذكراتهم:

ويسلط الأخ محمد سعيد باغزال مزيداً من الأضواء حول شخصية أبي انور فيقول في مذكراته عن الفقيد:

(لقد كان رحمه الله ذا قلب كبير اتسع حبه لكل الناس كما كان يحظى بتقدير من عرفه عن قرب أو عن بعد، لما عرف عنه من انشطة اجتماعية وثقافية وكان ذا علاقات اجتماعية واسعة وكان يحب الكتابة في الصحف ومن طباعه عدم المهادنة والتزلف وقد كان صريحا في مواقفه خاصة فيما يتعلق بشؤن المواطنين).

محمد سقاف الهدار:

وعن المزيد من علاقاته الاجتماعية يقول الاخ الصحفي المعروف الأستاذ محمد سقاف الهدار:(عاش سعيد عبد الرب فترة في مدينة الشحر عندما كان سكرتيراً لمأمور مديرية

الشحر بمعية زميله ورفيق دربه في النضال والتضحية الاستاذ العزيز المناضل عمر احمد جبران والذي كان وقتها يشغل مأمور المديرية .

علاقاته الاجتماعية:

وخلال تلك الفترة كوّن سعيد عبد الرب علاقات اجتماعية اخوية غاية في التكامل والانسجام مكنته من نسج صداقات حميمية ودية مع الكثير من شرائح المجتمع وخاصة المثقفين واعضاء ومشجعي ورياضيي نادي كوكب الصباح وشباب الجنوب .

الدكتور الجريري وكلمة إنصاف:

وتجتمع في مذكرات الدكتور سعيد سالم الجريري كل هذه المناقب والمواقف التي أشرنا إليها حيث يقول في لغة غاية في الاشراق والبيان عن الفقيد سعيد عبد الرب: (مضى كغيمة هامسة وهو الصاخب في ذروة صمته. هل أيقن أن الزمان يستمرئ مخاتلة رمادية فآثر أن يتخفف مما ناء به عمراً كاملاً؟).

الراحل الحوثري (الأول من اليمين)
والرئيسان الأسبقان ، علي سالم البيض وسالم ربيع علي (سالمين)

مسك الختام واصدق الكلمات الخالدة:

أما الفنان أنور سعيد الحوثري فقد ترك كلمات تقطر ألماً في وداع والده حيث سكب لنا هذه المفردات النابضة بالوفاء والمحبة: (يغسلني الحزن قليلاً وينثر من حولي تراتيل الوداع ويفتش الوجد عن وردة أخرى في دموعي فلا يجدني واتنفس من وداعي في نفحات همي.

ما ألذ الوجع حين يهطل من قلب شغوف وما أمر السؤال عن فراغ في أفق الليالي، لن أبكيك يا أبتاه فأنت أقدس من ملح الدموع وأنت أكبر من حلم السنين).

الجدير بالذكر أن الفقيد سعيد عبد الرب قد انضم إلى الجبهة القومية سنة ٦٤م بعد اندلاع العمل المسلح على يد المرحومين محمد محفوظ باحشوان و هو مناضل وطني بارز وعبد الرحيم غوث باوزير.

و عند سقوط المناطق في يد الجبهة القومية في ٦٧/٩/١٧م تشكلت قيادات إدارية عسكرية سريعة لاستلام المناطق من السلطة القديمة وإدارتها، و قد تم تكليف الفقيد سعيد عبد الرب برئاسة اللجنة الشعبية في مديرية الشحر بدرجة مأمور المديرية و عضوية محمد على مخارش ومحمد سعيد باغزال وقيادة عسكرية من علي العامري وعبد الرحيم غوث باوزير . و بعد ٣٠ نوفمبر ١٩٦٩م تم تعيينه مديراً إدارياً لمديرية الشحر بإشراف المرحوم عبد الباري قاسم الذي كان يداوم في مديرية الشحر لفترة وجيزة.

كل هذه المعلومات وغيرها جاءت في مذكرات الفقيد سعيد عبد الرب التي قرئت بعض أوراقها في الندوة التأبينية التي نظمتها جمعية التراث والآثار بمديرية الديس الشرقية، و هي الندوة التي شملت ثلاثة محاور:

المحور الأول عن سيرة الفقيد الذاتية قدمها الدكتور عبد الباسط الغرابي. و المحور الثاني عن كتابات الفقيد الصحفية و ضرورة تجميعها في كتاب للأستاذ سعيد أحمد بن اسحاق.

و المحور الثالث حول نضالات الفقيد قدّمة صديقه المناضل عبد الله حسين الطفي ..

كما اشتملت الندوة على مشاعر أخرى اشترك في نثرها معظم الحاضرين. كما شهدت مديرية الديس حفلاً تأبينياً في قاعة ثانوية الصدّيق في الديس الشرقية اشتملت على كلمات وقصائد أشادت بمناقب الفقيد وأدواره الاجتماعية والسياسية، أهمها كلمة صديقه المناضل عمر محمد بن الشيخ أبوبكر الذي أثار الحزن في قاعة التأبين بدموعه الصادقة.

ما ألذ الوجع حين يهطل من قلب شغوف وما أمر السؤال عن فراغ في أفق الليالي، لن أبكيك يا أبتاه فأنت اقدس من ملح الدموع وأنت أكبر من حلم السنين

الراحل الحوثري
متحدثاً في مهرجان جماهيري
في سبعينيات القرن الماضي

ويضيف الجريري فيقول: (مازال صدى صوته يتردد في كياني مستفيضاً في شاغل عام في الغالب او شكوى من تجاهل او تهاون ممن كان يأمل منهم تفاعلا مع شؤون الديس العامة ولاسيما الثقافية والتراثية) .

الأستاذ محمد سالم قطن الديس بدون أبي أنور:

أما الأستاذ محمد سالم قطن فيتساءل قائلا: (حتى أنا لم استطع تخيل الديس الشرقية بدون الراحل سعيد عبد الرب وبدون الراحل محمد عبدالله الحداد وبدون الراحل عبدالله الوحيري.. الطريق إلى وادي عمر أصبح شاقاً وعراً) .

من حفل التأبين

نشاطات وفعاليات المركز من حفل الإشهار حتى لحظة الإصدار

بعد أن صارت الفكرة واقعاً، وسجل مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر رسمياً في مارس من العام ٢٠١٥م، انطلق فريق المركز بالعمل لإرساء قواعده وتشييد أركانه وبنيانه، ووجد الجميع من الشيخ الفاضل محمد بن سالم بن علي جابر المشرف العام كل دعم ومساندة لتسيير عمل ونشاط المركز، فأتت لحظة الإشهار في ٢٠ من ديسمبر ٢٠١٥م، بحضور عدد كبير من المثقفين والإعلاميين وأساتذة الجامعات بمدينة المكلا، لتسجل هذه اللحظة البداية الحقيقية التي على ضوئها شرع المركز في تنفيذ خطته وأهدافه لخدمة تراث حضرموت وتاريخها وثقافتها على أسس علمية ومنهجية جادة ورصينة تبرز الدور الحضاري لها - قديماً وحديثاً - وتضعها في فضائها العربي والإسلامي والعالمي الذي تستحقه، فكان حصاد الفترة الماضية، ٢٠ ديسمبر ٢٠١٥ — ٢٠ يونيو ٢٠١٦م هذه الأنشطة والفعاليات والبرامج.

إشهار مركزحضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

احتضنت قاعة نادي (متطوعون) الكبرى بمدينة المكلا صباح يوم الأحد: ٢٠ من ديسمبر ٢٠١٥م حفل إشهار مركزحضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، وقد ألقيت فيه كلمات للمشرف العام الشيخ محمد سالم بن علي جابر ومدير المركز الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي وعن الهيئة الاستشارية للمركز ألقاها الأستاذ الدكتور محمد سعيد داوود وعن اللجنة العلمية ألقاها الأستاذ الدكتور ناجي جعفر الكثيري وعن دائرة البحوث والدراسات والترجمة ألقاها الدكتور خالد يسلم بلخشر، كما قدّم عرض موجز لفيلم تلفزيوني عن الشيخ المؤرخ عبدالرحمن الملاحي من إنتاج المركز.

ندوة علمية عن دور الملاحي التنويري والمجتمعي

في بداية انطلاق نشاطه العلمي والمعرفي وتحت شعار :(روّادنا مناراتنا) أقام مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر صباح يوم الأحد ٢٧ من ديسمبر بقاعة فندق موج بالمكلا ندوة علمية بعنوان:(الأستاذ عبد الرحمن الملاحي ودوره التنويري والمجتمعي في حضرموت) اشتملت على محورين: (تاريخي وثقافي مجتمعي)، وقد ألقيت في مستهل الندوة كلمتان لمدير المركز وعائلة الفقيد الملاحي قرأها نيابة عن الأسرة شقيقه عبدالرحيم بن عبدالكريم الملاحي، وقدمت عدد من الأوراق البحثية، رأس المحور الثقافي الدكتور خالد بلخشر والمحور التاريخي الأستاذ الدكتور ناجي الكثيري.

في ختام جلستي الندوة تم التوقيع على عقد الاتفاق لطباعة وإصدار كتابي شرح وتحقيق روزنامات الملاح بامعيبد للمؤرخ عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي ومعجم الشعراء الشعبيين الحضارمة للباحث عبدالله صالح حداد.

وكانت الندوة العلمية قد شهدت حضوراً نوعياً متميزاً لعدد كبير من المختصين والمهتمين من المكلا وغيل باوزير والشحر.

مركز حضرموت يدشن نزولاته التعريفية إلى مدن (تريم وسيئون وشبام)

في إطار النزولات الميدانية للتعريف بأهداف وبرامج مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، قام الأخوة الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز والدكتور خالد يسلم بلخشر مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة والأستاذ صالح حسين الفردي مدير دائرة الإعلام والعلاقات العامة بالمركز للفترة من: ٢٦-٢٨ يناير ٢٠١٦م بزيارة علمية وثقافيةوتعريفية شملت مدن: (تريم وشبام وسيئون) بوادي حضرموت تم فيها إقامة حلقة نقاش ومحاضرات ولقاءات للتعريف بالمركز وشرح أهدافه التي من أجلها تم إنشاؤه وخططه التي سيعمل على تنفيذها خلال الفترة القادمة.

مركز حضرموت ينظم فعاليات ثقافية وتعريفية في عدد من مدن الساحل الشرقي لحضرموت

في سياق النزولات الميدانية الثقافية والتعريفية لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر لمديريات حضرموت، وسعياً وراء تكوين رؤية شاملة للنشاط المكثف المزمع تنفيذه خلال الفترة القادمة، قام الأخوة الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز والدكتور خالد يسلم بلخشر مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة وصالح حسين الفردي مدير دائرة الإعلام والعلاقات العامة وعادل حاج باعكيم مدير دائرة التوثيق بالمركز خلال يومي الجمعة والسبت: (٥ – ٦) فبراير ٢٠١٦م، بجولة شملت كلاً من: الريدة الشرقية وقصيعر والديس الشرقية، وزيارات استطلاعية لمتحفي منطقي الحافة وسرار والمشاركة في الفعالية الثقافية والتعريفية بمنطقة قصيعر، التي استضافها مركز قصيعر الثقافي في يوم اشهاره.

وخلال فعاليات الرحلة تسلم الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز سفينة شراعية تذكارية من رئيس مركز قصيعر الثقافي وشهادات شكر وتقدير لمديري دوائر المركز وقدم رئيس مركز حضرموت شهادات شكر وتقدير لكل من إدارة ثانوية الريدة الشرقية ومركز قصيعر الثقافي وجمعية التراث والآثار بالديس الشرقية.

الفلكي الجعيدي يستعرض جهود الحضارمة في مجال الفلك

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع نادي (متطوعون) بالمكلا بعد صلاة مغرب يوم الأربعاء العاشر من فبراير ٢٠١٦م محاضرة للأستاذ الفلكي سالم عمر الجعيدي بعنوان: جهود الحضارمة في مجال الفلك، قدّم لها الدكتور خالد بلخشر.

وقد أغنى المحاضرون المحاضرة بالكثير من المداخلات والنقاشات كما تقدّم بعض الحاضرين بمجموعة من الاستفسارات التي أجاب عنها الأستاذ الجعيدي بتفصيل ودقة متناهيتين.

حلقة نقاش عن الترجمة في حضرموت وأهميتها التاريخية

احتضنت قاعة نادي (متطوعون) بالمكلا عصر يوم الاثنين الحادي والعشرين من مارس ٢٠١٦م حلقة نقاش بعنوان: (الترجمة في حضرموت وأهميتها في الدراسات التاريخية)، والتي نظمها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع مركز عبدالله فاضل فارع للترجمة والدراسات الانجليزية بجامعة عدن.

واشتملت حلقة النقاش على ثلاث أوراق، كانت الأولى بعنوان: (واقع الترجمة في حضرموت وسبل تجاوزها) قدمها الدكتور عادل سالم باحميد أستاذ الترجمة المشارك بكلية التربية بسيئون، والورقة الثانية حملت عنوان: (آلية ضمان دقة الترجمة) للأستاذ نجيب سعيد باوزير مؤسس جمعية أصدقاء المؤرخ سعيد عوض باوزير ومدير دار الصالحية للطباعة والنشر وكانت الورقة الثالثة بعنوان: (أهمية المادة التاريخية في كتابات الرحلة والمستشرقين) قدمها الأستاذ الدكتور مسعود سعيد عمشوش مدير مركز عبدالله فاضل للترجمة بجامعة عدن، عرض من خلالها الأهمية الجيوسياسية لحضرموت.

أدار المحور الأول من حلقة النقاش الدكتور خالد يسلم بلخشر والثاني الأستاذ صالح حسين الفردي والثالث الأستاذ الدكتور ناجي جعفر الكثيري.

وشهدت الحلقة مداخلات ونقاشات متعددة ومتنوعة أثرت الأوراق ووضعت الكثير من الرؤى والأفكار والمقترحات والتوصيات التي تصب في تنشيط واقع الترجمة في حضرموت في المستقبل القريب.

الدكتور صادق مكنون يلقي محاضرة عن تطور المؤسسة العسكرية في حضرموت (٣٧ـ ١٩٤٥م)

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع نادي (متطوعون) بالمكلا بعد صلاة مغرب يوم الثلاثاء ٢٩ مارس ٢٠١٦م محاضرة للدكتور صادق عمر مكنون أستاذ التاريخ المشارك ونائب رئيس جامعة الأحقاف والمدير التنفيذي لمركز بحوث حضرموت، بعنوان: تطور المؤسسة العسكرية في حضرموت (١٩٣٧ – ١٩٤٥م).

بعد ذلك تداخل عدد من الحاضرين مقدمين ملاحظاتهم على هذه الحقبة الزمنية المهمة في تاريخ حضرموت، لتجد توضيحاً عميقاً لكل هذه المداخلات أثرت الأمسية الحضرمية بالمكلا.

مؤتمر صحفي لإشهار جائزتي المركز لأفضل بحث تاريخي وفيلم تسجيلي

عقد مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بمقره في مدينة المكلا مؤتمراً صحفيًا للإعلان عن إشهار جائزتي المركز السنوية لعام ٢٠١٦م لأفضل بحث تاريخي وفيلم تسجيلي.

وفي المؤتمر الذي حضره ممثلون عن وسائل إعلام محلية وعربية أستعرض مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة بالمركز الدكتور خالد يسلم بلخشر والأستاذ صالح حسين الفردي مدير دائرة الإعلام والعلاقات العامة "مواضيع وأهداف وشروط التقدم للمسابقتين وجوائزهما".

مركز حضرموت وقسم الإعلام بكلية آداب جامعة حضرموت ينظمان الندوة العلمية عن الأستاذ أحمد عوض باوزير

شهدت قاعة الأديب علي أحمد باكثير بجامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا صباح يوم الأحد ١٧ أبريل ٢٠١٦م وقائع الندوة العلمية عن الأستاذ أحمد عوض باوزير : رحلة صحفي .. يوميات صحيفة، التي نظمها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع قسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا بحضور الأستاذ الدكتور عبدالله صالح بابعير نائب رئيس الجامعة للشؤون الأكاديمية وعدد كبير من أساتذة الجامعة وعمداء كلياتها والإعلاميين والصحفيين بحضرموت والمهتمين وطلاب السنوات الدراسية بقسم الإعلام.

ألقى الابن مراد أحمد عوض باوزير كلمة أسرة الفقيد الأستاذ باوزير نيابة عن بقية أفراد أسرته عبّر من خلالها عن سعادتهم جميعاً بهذه الندوة التي تمثل الوفاء لرائد من رواد الصحافة الحضرمية وعصرها الذهبي في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، في كلمته عن قسم الإعلام بكلية الآداب جامعة حضرموت أشار الدكتور وجدي عبدالرحمن باوزير رئيس القسم إلى أهمية الشراكة والتنسيق بين المركز وقسم الإعلام وما تمخض عن هذا التنسيق من تنظيم لهذه الندوة العلمية لهذا العلم الصحفي الكبير الأستاذ أحمد عوض باوزير .

ورحب الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالحضور مؤكداً على أن المركز وهو يحتفي بسيرة وتجربة الصحفي الرائد الأستاذ أحمد عوض باوزير ينطلق من تلك الأهداف التي تبناها منذ انطلاقته في أواخر ديسمبر من العام الماضي، مشيراً إلى أن التنسيق والشراكة مع قسم الإعلام بكلية الآداب يأتي كذلك في إطار الحرص على فتح مجالات تعاون وتنسيق متعددة ومتنوعة تخدم تاريخ حضرموت وتراثها الحضاري الحضاري والإنساني.

محاور الندوة:

المحور الأول: السيرة والنشأة: أداره الدكتور الإعلامي عبدالله الحو واشتمل على الورقة الأولى: رحلة صحفي ويوميات صحيفة للأستاذ التربوي القدير محمد أحمد باعباد والورقة الثانية: كلمات وحروف في

ندوة الطليعة للأستاذ الإعلامي أحمد زين باحميد والمداخلة الأولى: الوعي والوعي السياسي في صحيفة النهضة للدكتور أحمد سعيد عبيدون والمداخلة الثانية: إضاءات في سيرة الرائد الصحفي القدير أحمد عوض باوزير وشذرات من رسالة صحيفة الطليعة للأستاذ الإعلامي عبدالقادر سعيد بصعر.

أما المحور الثاني: صحيفة الطليعة الريادة والرسالة: فأداره الإعلامي والصحفي الأستاذ علي سالم اليزيدي وجاءت الورقة الأولى بعنوان: المادة النقدية في صحيفة الطليعة الحضرمية (١٩٥٩-١٩٦٧م) للدكتور أحمد هادي باحارثة، استعرضها نيابة عنه الأستاذ عادل حاج باعكيم والورقة الثانية: الأستاذ أحمد عوض باوزير وخطاب التنوير والتثوير في مقالاته الصحيفة (صحيفة النهضة أنموذجاً) للأستاذ أكرم أحمد باشكيل والورقة الرابعة:سعيد عوض باوزير ومقالاته الطليعية للأستاذ أنور سالم باكركر لتعقبها المداخلة الأولى: رؤية

إعلامية حول المقال عند أحمد عوض باوزير للدكتور وجدي عبدالرحيم باوزير ،فالمداخلة الثانية: التنوير والتثوير من خلال صياغة الخبر الصحفي عند باوزير للأستاذ صالح علي العطاس.

في حين أدار المحور الثالث: الاتجاهات الوطنية والقومية في صحيفة الطليعة: الإعلامي الأستاذ أحمد زين باحميد واشتمل على الورقة الأولى: صحيفة الطليعة الحضرمية وقضايا الوطن والمجتمع للأستاذ صالح مبارك عصبان والورقة الثانية: مجلة الفكر قراءة تحليلية للأستاذ مجدي سالم باحمدان، فمداخلة للأستاذ نجيب سعيد باوزير وأخرى للمهندس عبدالله أحمد باوزير والمداخلة الأخيرة وحملت عنوان: تساؤلات على هامش الندوة للدكتور سعيد سالم الجريري قرأها نيابة عنه الأستاذ صالح حسين الفردي مقدم فقرات الندوة.

اختتم الدكتور خالد يسلم بلخشر مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة بالمركز الصباحية الوفائية للندوة العلمية الأستاذ أحمد عوض باوزير: رحلة صحفي .. يوميات صحيفة، بكلمة ختامية شكر من خلالها جميع المشاركين والمساهمين في إنجاح هذه الندوة مشيراً إلى أن اللجنة العلمية الخاصة بالندوة سوف تعمل على متابعة مخرجات الندوة والعمل على طباعة الأوراق البحثية والمداخلات العلمية في كتاب يصدر عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في الأيام القريبة القادمة.

التوقيع على مذكرة تفاهم بين مركزي حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر وبحوث حضرموت للدراسات والتدريب وتنمية المجتمع

وقعت صباح يوم الخميس الخامس من مايو ٢٠١٦م بقاعة الاجتماعات برئاسة جامعة الاحقاف بمنطقة فوة مذكرة تفاهم وتعاون بين مركزي حضرموت للدارسات التاريخية والتوثيق والنشر وبحوث حضرموت للدراسات والتدريب وتنمية المجتمع، وقعها الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات والدكتور صادق عمر مكنون مدير عام مركز بحوث حضرموت، وتأتي هذه المذكرة ترجمة لرغبة الطرفين في تعزيز العلاقات بينهما، ومد جسور التعاون العلمي بما يسهم في تطوير خططهما العلمية وإثرائها انطلاقاً من تماهي أهدافهما العامة في العناية بالإرث الحضاري والثقافي لحضرموت وتوثيقه ودراسته.

وقد اشتملت مذكرة التفاهم بعد الديباجة على النقاط الآتية:

- أن يتم التنسيق والتعاون لعقد الندوات والمؤتمرات العلمية وكذا تنظيم حلقات النقاش بين المركزين وذلك بما ينسجم والخطط العامة المقرة في لجانهما العلمية.
- يتبادل المركزان الإصدارات والنشرات الصادرة عنهما.
- لا يمانع المركزان من الاستفادة من الخبرات العلمية لكادرهما العلمي بما يعزز برامجهما المختلفة.
- يتبادل المركزان المعلومات والأخبار ذات الصلة بنشاطهما العلمي.

حضر حفل التوقيع على مذكرة التفاهم والتعاون الدكتور خالد يسلم بلخشر مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة والأستاذ صالح حسين الفردي مدير دائرة الإعلام والعلاقات العامة بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر.

مركز حضرموت يواصل نزولاته التعريفية إلى مدن (وادي دوعن)

تواصلاً للنزولات الميدانية للتعريف بأهداف وبرامج مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، قام الأخوة الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز والأستاذ الدكتور ناجي جعفر الكثيري رئيس اللجنة العلمية والدكتور خالد يسلم بلخشر مدير دائرة البحوث والدراسات والترجمة والأستاذ صالح حسين الفردي مدير دائرة الإعلام والعلاقات العامة بالمركز صباح يوم الأربعاء الحادي عشر من مايو ٢٠١٦م بزيارة علمية وثقافية وتعريفية لمديرية دوعن شملت مدن: (بضة والخريبة) بالوادي الخصيب.

وفد المركز يزور مركز دوعن العلمي ويقيم أمسية تعريفية بمدرسة الشيخ أحمد سعيد بقشان بالخريبة

زيارة مركز دوعن العلمي

في عصر يوم الأربعاء الحادي عشر من مايو ٢٠١٦م قام وفد المركز بزيارة لمركز دوعن العلمي بمنطقة الخريبة بمديرية دوعن على الدعوة الكريمة من رئيس المركز الأستاذ حسن محمد مكنون السقاف.

وقد ثمّن الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي هذه الجهود التي ينهض بها مركز دوعن العلمي بالخريبة وما يمثله من دور علمي وثقافي وحضاري وتراثي وتاريخي بمنطقة دوعن وما يشكله من حرص كبير على تراث وتاريخ الوادي خاصة وحضرموت عامة مبدياً استعداد المركز للتعاون والتنسيق مع مركز دوعن في كثير من الفعاليات والأنشطة ومجالات النشر المختلفة لخدمة تاريخ حضرموت وتراثها.

أ. مكنون: لدينا الكثير من الطموحات لخدمة تاريخ وتراث دوعن خاصة وحضرموت عامة

وخلال الجولة الاستطلاعية لمحتويات ومقتنيات المركز الذي كانت بدايته في يوم الأربعاء الرابع من يناير ٢٠١٢م، رحب الأستاذ مكنون بوفد المركز مثمناً هذه الاستجابة لزيارة مركز دوعن مقدماً بمعية الأستاذ علي عبدالله الجيلاني شرحاً ضافياً عن محتويات المركز ومقتنياته من الوثائق والمخطوطات والمراسلات التاريخية المهمة، ومن ذلك خزانة كتب التراث الدوعني ومكتبة المخطوطات وموسوعة علماء الديار الحضرمية والتوثيق ومكتبة الشيخ حسن عبدالله باراس ومكتبة آل باجنيد والسادة آل باصادق وآل الجفري ومكتبة الشيخ عبدالله احمد باسودان، مختتماً حديثه بالإشارة إلى أن الطموحات لخدمة تاريخ وتراث وادي دوعن وأعلامه كبيرة ولكن الإمكانات شحيحة جداً ونواجه صعوبات كبيرة في الحصول على مصادر التمويل لخدمة هذا التاريخ والتراث الدوعني الحضرمي، إلا أننا – والحمد لله – نجحنا في توثيق الأمكنة التاريخية ودور العبادة والأسواق وغيرها من الآثار ونعتزم إصدار موسوعة أعلام دوعن، ولدينا عدد كبير من المخطوطات النادرة.

وعلى هامش الزيارة شاهد وفد المركز عرضاً لفيلم توثيقي لمخطوطات والمركز ودوائره وأقسامه المختصة، كما أهدى الأستاذ مكنون مدير مركز دوعن لوفد مركز حضرموت نسخاً من إصدار: مركز دوعن المختار من قصائد وأشعار الإمام أحمد بن محمد المحضار وأولاده وأحفاده الأبرار، إعداد وتجميع الأستاذ: محمد عبدالله حسن المحضار.

الإعلامي البطاطي يعرض كتاب الدكتورة ليندا بوكسبيرجر على حافة الإمبراطورية

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع نادي (متطوعون) بالمكلا بعد صلاة مغرب يوم الخميس السادس والعشرين من مايو ٢٠١٦م بالقاعة الكبرى بالنادي محاضرة للأستاذ الإعلامي سعيد عمر البطاطي مقدماً عرضاً لكتاب الدكتور ليندا بوكسبيرجر: على حافة الإمبراطورية: حضرموت، الهجرة والمحيط الهندي (من ثمانينات القرن التاسع عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين).

استعرض الإعلامي البطاطي كتاب الدكتورة ليندا بوكسبيرجر، مشيراً إلى أن كتاب الباحثة الأمريكية هو رسالتها للحصول على الدكتوراه، مؤكداً على أن الباحثة قد بذلت جهداً علمياً وميدانياً كبيراً للوصول إلى نتائج في غاية الأهمية لتاريخ حضرموت، خاصة الهجرة الحضرمية إلى بلدان المحيط الهندي (من ثمانينات القرن التاسع عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين)، ورصدت تلك الحقبة الزمنية في سياقها التاريخي وتأثيراتها وتأثراتها التي انصهرت مشكلة ظاهرة حضارية إنسانية عالمية لم تزل مهيمنة على الكثير من المهتمين المستشرقين ومراكز الدراسات الأوربية.

الإعلامي الأستاذ عبدالقادر بصعر في محاضرة عن الرائد التربوي عبدالله أحمد الناخبي

ضمن فعالياته الثقافية والتعريف برواد حضرموت في مجالات الحياة كافة، نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع نادي (متطوعون) بالمكلا مساء يوم الأحد ١٩ يونيو ٢٠١٦م بالقاعة الصغرى بالنادي محاضرة للإعلامي الأستاذ عبدالقادر سعيد بصعر متحدثاً عن سيرة وعطاءات الرائد التربوي عبدالله بن احمد بن محسن الناخبي وريادته التاريخية لتعليم الفتاة في حضرموت، إلى جانب ما حملته سيرته العطرة من محطات عطاء في مناحي الحياة الدعوية والثقافية والأدبية والاجتماعية خلال مسيرة حياته حتى يوم رحيله قبل تسع سنوات في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، واستمع الحضور إلى تسجيل صوتي للعلامة الشيخ عبدالله الناخبي لحديث أجراه الأستاذ بصعر معه في العام ١٩٩٧م بمنزله بجدة، وحظيت الأمسية بالعديد من المداخلات والنقاشات من عدد من الأساتذة الباحثين والإعلاميين والمهتمين.

الغالبي في المكلا ..
مائة عام يصدع بصوت الحق

كانت السلطنة القعيطية (١٨٢٠م – ١٩٦٧م) على الرغم من قلة ومحدودية إمكاناتها ووقـــوعها كغيرها من الوطن تحت الحماية البريطانية كانت دولة اهتمت بتطوير نواحي الحياة المختلفة ومتقدمة على غيرها من دول الجزيرة العربية في تلك الفترة. ويأتي بـناء المساجد إحداها بل من الاهتمامات الشخصية لسلاطين آل القعيطي. ولعل مسجدي (عمر) بحي السلام و(الغالبي) بحي الشهيد خالد خير شاهد على ذلك. وخلال استطلاعنا هذا نسلط الضوء بالحديث عن مسجد الغالبي المرتبط تسميته بأحد السلاطين القعيطيين وحديثنا يأتي احتفاءً بمرور مائة عام على تشييد هذا المعلم التاريخي البارز.

استطلاع وتصوير / عادل أحمد القحوم

السلطان غالب (الأول)

ثالث ثلاثة

في العام ١٩١٧ للميلاد أمر السلطان غالب بن عوض القعيطي ببناء مسجد جديد على الطرف الشرقـــي لمدينة المكلا فيما يعرف بحـــافة (العبيد)، ليصبح هذا المسجد ثالث ثلاثة مساجد على الواجهة الشرقـية للمدينة (جامع البـلاد، علي حبيب، الغالبي) وأصبح هذا المسجد على الرغم من صغر مساحته لايقل شهرة و أهمية زمانية وروحانية عن المسجدين الآخرين. يحتل الطرف الشرقي الأخير من مدينة المكلا بأحيائها القديمة فيشكل بحق الطرف الأغر. السلطان غالب بن عوض القعيطي حكم السلطنة القعيطية في الفترة من ١٩١٠م إلى ١٩٢٢م. ومن أبرز إنجازاته بناء مدرسة مكارم الأخلاق في مدينة الشحر، هذه المدرسة الذائعة الصيت الحسن، والتي كانت ولازالت منارة للعلم والمعرفة. وللحديث بصورة مركّزة عن مكانة هذا المسجد تاريخياً واجتماعياً ووجدانياً كان لنا حـــوار واستماع لذكريات شخصيات ارتبطت برباط وثيق مع مسجد الغالبي..

الشيخ أحمد سعيد محمد بوسبعة

ذاكرته تختزل أحداث كثيرة جميلة. في كل مرة أثناء الحوار يذهب بالحديث عن ذكريات الزمن الجميل وتفاصيله البسيطة، وكنت أعود به لذكرياته عن مسجد الغالبي وكأني فتحت له بفكرتي عن المسجد باباً ذا شجون جميلة عنده. الوالد أحمد سعيد بوسعة أطال الله عمره قال عن مسجد الغالبي:

يعتبر مسجد الغالبي من المساجد القديمة في مدينة المكلا وتأسيسه كان قبل مساجد أخرى، ربما كانت أشهر منه. ولكنه أحد المساجد التي ارتبطت براعي تأسيسه مثل مسجد السلطان عمر (بحي السلام). ومسجد الغالبي أمر ببنائه السلطان غالب بن عوض القعيطي رحمه الله في العام ١٩١٧م، وهو غالب الأول تمييزاً له عن السلطان غالب الثاني آخر سلاطين السلطنة القعيطية. والمسجد لم يكن بالاتساع الذي ترونه الآن فقد أضيف له رواق وضاحية. وبناؤه كان على تلة مصطنعة تكونت من حـــزام من الأحـــجار ووســـطها الطين.. والشـــكل العام للمسجد هو مثل ما كان عند الانتهاء من بنائه، وكذلك الأعمدة (السواري) والنقوش التي عليها. وتعرّض جزؤه الملامس للبحـــر أكثر من مرة للانجراف لكن دون أن يتهدم المسـجد. ويرجع ذلك لصلابـة البـناء على الرغم من مواد البـناء البـدائية المسـتخدمة، التي تتكون بشـكل أساسي من مادة (النورة) والأعمدة التي تحمل السقف قوية وعريضة. وتم بناء له رباط (عُصبي) وذلك في الأربـعينيات من القـرن العشـرين لحمايته من شدة الأمواج، وخاصة أيام (الخريف)،

الشيخ أحمد بوسبعة

إمام المسجد عبدالله بو سبعة

يسلم سليم اللحمدي

عبداللطيف مقرم

وكما تعلمون أن مياه البحر كانت تضرب البيوت المحاذية له ومنها مسجد الغالبي قبل تنفيذ مشروع مجاري المكلا في الثمانينيات من القرن الماضي. كما أضيفت له أبواب أخرى وهو الباب المواجه الآن للبحر.ومسجد الغالبي تم تجديد بنائه ثلاث مرات خلالها تم تبديل السقف من خشب المنيبار الى السقف الحالي وإضافة الرواق والضاحية طابع البناء الأصلي نفسه على أيدي بنائين من آل مقرم المشهورين بذلك.

السلطان غالب والختايم

كان السلطان غالب المؤسس للمسجد دائم الحضور في ليلة (الختايم)، الليلة الخاصة بمسجده ليلة السادس من رمضان، يتشارك الجميع في إعداد الحلويات والتمر والقهوة المحلاة بالسكر ويحتفل الجميع بهذه الليلة لابسين الجديد شيباً وشباباً وأطفالاً على ضوء الشموع والأتاريك، فلا يوجد كهرباء وسط زغاريد النساء، ويتم فرش المسجد بفرش جديد، وهو عبارة عن (الحسير) الذي يتم صناعته من القصب المترابط مع بعضه ويتم تلاوة القرآن وإنشاد الأهازيج والموشحات والضرب على الطار.

الغالبي ليلة العيد

في ليلة العيد يصدح صوت الحق من مسجد الغالبي، كغيره من مساجد المكلا، ويبدأ التكبير ليلة العيد فور إعلان السلطان رؤية الهلال. ومن الأشياء التي أتذكرها عندما كنت فتى صغيراً أنه في ليلة (الحيا)، ليلة العيد أثناء إمامة الشيخ باحميد، كان لا يوجد ماء صالح للشرب في المسجد لإعداد القهوة والشاي، ذهبت أنا والشيخ حسن سعد الله إلى السقاية وجلبنا الماء (بالكتلي)، وكنت أنا أحد الذين يداومون على الصلاة في المسجد أيام البرد القارس، ففي بعض أيام السنة كان البرد شديداً ولا يستطيع أحد الحضور للمسجد وقت صلاة الفجر، فكنت أحد ستة أشخاص نحضر لصلاة المغرب والعشاء والفجر، عمري لا يتجاوز العشر سنوات كنا نصلي ملتحفين (شملة) من الصوف في (خزانة) غرفة صغيرة بالمسجد برفقة عمر الحداد ومحمد بامفتاح.

الغالبي ونسيم البحر:

يعتبر مسجد الغالبي من أبرد المساجد، وخاصة في فصل الصيف أيام الأربعينية، وهي أيام القيظ، ففي النهار وكذلك ليلاً يكون بادراً بسبب نسيم البحر العليل، ولذلك كان أهالي المنطقة ينامون في هذا المسجد، فكان المسجد مفتوح الأبواب - ليلاً ونهاراً - للأهالي وغيرهم من الوافدين: مثل الهنود والباكستانيين والدراويش، في طريق رحلتهم للحج والعمرة، فكان مسجد الغالبي وغيره من مساجد المكلا محطة ترانزيت لهؤلاء الناس.

الأستاذ يسلم سليم اللحمدي:

هناك عائلات ارتبط اسمها بمسجد الغالبي مثل: آل بوسبعة وآل مقرم وآل باني وآل باسعد وآل مفتاح وغيرهم، وهم من تولوا رعايته وصيانته، بحكم مجاورتهم له، وكل جار له حقوق وعليه واجبات، فكان آل بوسبعة وآل مقرم في ليالي الأعياد يتشاركون أو يتناوبون في إعداد وجبة عشاء لمرتادي المسجد وأطفال حلقات تحفيظ القرآن، وهي وجبة بسيطة من الأرز والسمك. وكان العم يسلم فرج بوسبعة مهتماً بنظافة المسجد واستقراره وعدم العبث بمحتوياته.

غالب الثاني في الغالبي

حظي المسجد بزيارة خاصة من قبل السلطان غالب بن عوض بن صالح القعيطي (غالب الثاني)، وذلك في أثناء زيارته التاريخية للمكلا في صيف العام ١٩٩٧م حيث أتى للمسجد بعد المغرب. وكان الكثير في استقباله، كما كانت مشاعره جياشة في أثناء تلك الزيارة قائلاً لنا: أتيت لزيارة مسجد جدي.

إمام المسجد
عبدالله سعيد بوسبعة (عبادي)

تولى إمامة المسجد عدد من العلماء من أبناء المنطقة ومن خارجها، بداية بالأخوين عبدالقادر وجعفر باحميد، ثم بالترتيب: السيد حسين بن الشيخ أبوبكر وعبدالرحمن محمد العيدروس وأحمد شرف الدين ومحمد أحمد بلفقيه (بوهشوم)، وأخيراً عبدالله سعيد بوسبعة. وكانت أسرة آل بوسبعة تتولى حلقات تحفيظ القرآن الكريم، والآن تتولى إمامة المسجد. ويمتد مسجد الغالبي الآن بمساحة تقدر حوالي ٣٠ × ١٨ متراً، بعد أن تم توسعته بإضافة الرواق والضاحية. كما يلحق به الآن مصلى خاص بالنساء.

عبداللطيف عوض مقرم

الغالبي له ارتباط تربوي، تعليمي، وجداني، أخلاقي

مسجد الغالبي ليس اسماً لمسجد مجاور لنا فقط، إنه ارتباط تربوي، تعليمي، وجداني، أخلاقي. إنه ذكريات الطفولة والصبا، هو المسجد الذي تربينا فيه وتعلمنا القرآن الكريم والحديث النبوي والأخلاق والقيم والأدب. كان جدي محمد - رحمه الله - هو من دخلت معه هذا المسجد لأول مرة، وأنا ممسك بيده الكريمة، ومنها كنت دائم المرافقة له في ارتياد هذا المسجد، وذلك قبل التحاقي بالمدرسة ولم أنفك عن هذه القاعدة التي درجت عليها إلا عند ذهابي للخدمة الوطنية. أتذكر العم فرج عبيد الرباكي - يرحمه الله - والمؤذن العم فرج بامفتاح، وهو من كان يعلمنا القرآن الكريم في حلقات درس ما بعد المغرب. كنت أستمتع بقراءة السيد عبدالرحمن العيدروس عندما كان إماماً للمسجد، وكذلك السيد محمد بلفقيه والخال العزيز عبادي بوسبعة، كما كنت أستمتع بوقار لصوت أحمد بن شبراق وهو يصدح بصوت الحق في الأذان. وكانت الجوابي (المقالد) موجودة على مداخل المسجد وأيضاً

في الداخل ثمانية مقالد: أربعة في الجهة الشرقية ومثلها في الجهة الغربية فكنا نترقب فتح أبواب المسجد وخصوصاً وقت الظهر لنغتسل فيها. كنا نحضر كل مناسبة دينية كالأعياد والموالد والختومات، فأتذكر العم سالم عمر مقرم وغيره من أهل الخير يقدمون ما تجود به النفس من مأكولات، كطبخات الأرز والتمر والحلوى. فمسجد الغالبي كان لنا بمنزلة ملتقى ديني واجتماعي، حيث يجتمع فيه أهل المنطقة لتدارس مشاكلهم وهمومهم وعرضها على العقال وكبار السن.

حكاية العم سعد الله

عن سبب تأسيس المسجد قال العم الحاج حسن سعد الله: إن السلطان غالب القعيطي هو الذي أمر ببنائه، حيث أشار في مقابلة مع الأخ فهيم باخريبة إلى سبب بناء المسجد مضيفاً: إن هناك وباء انتشر يسمى (الكبه) فأمر السلطان غالب ببناء مسجد جديد، تضرعاً إلى الله ليقي العباد من شر ذلك الداء.

الغالبي بعد (١٠٠) عام

مسجد الغالبي كان ولازال باعثاً على الألفة والمحبة والتكامل والتكافل بين الشيوخ والشباب والأطفال لاماً للجميع في أوقات الأفراح والأتراح.

ولكننا ونحن نعمل على إنجاز هذا الاستطلاع حرصنا على ألا تمرّ هذه الذكرى (١٠٠) عام على بناء هذا المسجد الأثري، إذ وجدناه في حاجة ماسة إلى تكييف مركزي وفرش جديد، لم يحرص أحد من فاعلي الخير في الوطن وخارجه على منحه وإلباسه إياه، فهل نكون بهذا الاستطلاع قد ساهمنا في لفت الانتباه إلى حاجة الغالبي ومرتاديه الكثر وهو يدخل قرنه الثاني من العمر؟!.

(سواقي المكلا .. عتوم شريان الحياة)

قصة النجاح التي كتبها الأجداد ويشوهها الأبناء والأحفاد

تحقيق وتصوير: عبدالله عوض بكير - صالح الفردي

السؤال في المعاوص والإجابة في البقرين

وقفنا - كثيراً - أمام مادة التحقيق الذي نبدأ بها مشوار المجلة (حضرموت الثقافية) وعندما حسمنا أمرنا بتتبع قصة بناء (سواقي مدينة المكلا .. عتوم شريان الحياة) لهذه المدينة التي اتسعت رقعتها كثيراً وازدحمت بالقاطنين فيها، وهي المدينة العاصمة لحضرموت، كنا نظن أن المصدر (النبع المائي) يقع في منطقة المعاوص بخارج المدينة من بوابتها الشرقية، فأخذنا (الكاميرا) واعتلينا الدراجة النارية لنبدأ مشوار التحقيق من هناك، لنجد الإجابة الحاسمة من المواطن (عادل هادي بكير) من قاطني هذه المنطقة الذي حسم الأمر بالقول: مصدر مياه المكلا من منطقة البقرين وليس من هنا، فانطلقنا عصر يوم السبت السادس من رمضان الموافق: ١١ يونيو ٢٠١٦م، لنصعد إلى منطقة البقرين، وخلال سلوكنا الطريق كانت تبدو لنا بقايا هذا الشريان المائي العذب مقطع الأوصال، ولم نيأس من العثور على ما نبحث عنه من تاريخ عريق لهذا المشروع الضخم في حياة المدينة مطلع خمسينيات القرن الماضي، وما أن وصلنا قمة الجبل وجدنا الامتداد والاستواء المكاني الذي شهد ملحمة البناء والإنشاء لهذا المشروع الذي سجل قصة الأجداد الأفذاذ الذين تركوا مآثرهم دالة عليهم وعلى علو كعبهم في خوض الصعاب وتذليل المستحيل، وانشغلنا بالتصوير ومتابعة تفاصيل التفاصيل لمكوناته التي مازالت دالة عليه، ولم يفت الوقت لاستعادتها إلى وضعها الذي يليق بها ويعطينا الحق في الحديث عن ذلك التاريخ ووسم أنفسنا بأننا أهله وأبناؤه وأحفاده، فما هو كائن ليس بكثير، وما عملت يد العابثين وسارقو التاريخ وأقزام المرحلة على طمسه وتشويهه والبناء عليه وبجواره وفوقه الشيء الكثير، ولكن التاريخ لا يرحم وبالعابثين لن يرحم، وتظل الإدانة لابسة القائمين على أمر هذه المدينة خاصة والمحافظة عامة عند حلول كل مساء وإشراقة كل صباح.

النهضة لا تأتي من عدم ولا تنطلق من فراغ

تحتفي الأمم والشعوب بتاريخها وتراثها ومآثرها ومعالمها، ولا تدع سانحة أو فرصة تمر دون أن تؤكد حقيقة هذا الاحتفاء الثقافي والحضاري والإنساني، وتزداد فخراً واعتزازاً وهي تعمق الانتماء والالتصاق بهذا التاريخ والتراث والمآثر والمعالم وعندما تشرع في بلورة

مشاريعها النهضوية الكبرى لمواجهة تحديات العصر ومشكلاته تنطلق من إدراكها العميق بأن النهضة لا تأتي من عدم ولا تنطلق من فراغ، وما التاريخ الإنساني إلا هذه الحلقات المتصلة من التجارب الإنسانية في مناحي الحياة كافة، وقوانين العيش المشترك عامة لأي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب.

صياغة الهوية وصناعة المستقبل

واليوم يعصرنا الألم ونحن نرى كيف تحاول الكثير من الدول أن تصنع لها تاريخاً وتؤسس لتراث لا يبتعد كثيراً - زمنياً - عن حاضرها الذي تعيشه، إلا أنها وهي تعمل - جاهدة - لصياغة هويتها وتسويقها حضارياً وإنسانياً في هذه القرية الكونية، ترصد الموازنات الكبيرة لاستعادة الذاكرة الوطنية والوعي الجمعي المتشظي، من خلال البعث الجديد لتاريخها وتراثها وأمجادها التليدة، إن كان لها تاريخ، وإن لم، تعمل على صناعته وتوظيفه توظيفاً حضارياً يجعلها محط إعجاب وأنظار المعمورة، ويدفع بها إلى مقدمة الشعوب التي تحمل رسالة إنسانية وحضارية تلعلم شتات موطنها ومواطنيها وصهرها في بوتقة واحده هي نتاج لهذا الاهتمام وذلك الوعي العميق بقيمة الجذور واشتغالها في الحاضر وتأمينها للمستقبل.

المكلا تاريخ وذاكرة

عندما بدأنا الخطوة الأولى في متابعة سطور هذا التحقيق، في محاولة للنبش في ذاكرة الناس في مدينة المكلا خاصة، والأمة الحضرمية عامة، في سياق البحث عن علامات ضوء وضياء في تاريخنا القريب، الذي سطره الأجداد وهم يصنعون ملامح حياتهم ورؤى مستقبلهم، كانت مدينة المكلا هي غايتنا، بوصفها، المدينة الحلم التي تشكلت على أسس حضارية ومدنية منذ البدايات الأولى، وظلت، وهي كذلك، عنواناً لعمق الرسالة الحضارية لحضرموت في الداخل الوطني وعمقه الحضاري المهجر، وبوصفها المدينة التي انهالت عليها مطارق ومعاول الهدم والتشويه والتدمير الممنهج لكل ملامحها الحضارية التي كانت، ولم تزل تنزف وتستنزف في مخزونها التاريخي وتراثها الشعبي ومعالمها وآثارها التي صارت جزءاً أصيلاً في دفتر التاريخ المجيد لحضرموت، ومن هذه المعالم التاريخية الشاهدة على عظمة الأجداد وحسن تدبيرهم وجمال أخلاقهم وقوة عزيمتهم (سواقي المكلا - عتوم الحياة) والحكاية تبدأ من هنا.

سواقي المكلا و(العتوم) ما خفي منها والمعلوم

حتى وقت قريب كانت سواقي المكلا القديمة قابضة على صخورها الجبلية، علواً وانخفاضاً، استواءً وتعرجاً، تحكي قصة تاريخ مجيد ونجاح كبير لكوكبة حضرمية، كانت تعمل على راحة

الوطن والمواطن، وتسهر الليل من أجل حل مشكلاته وتذويب أزماته، وتطوير مستوى خدماته، إذ حتى مطلع خمسينيات القرن الماضي كان سكان المكلا يتزودن بمياه الشرب من منطقتي البقرين وسقم - ديس المكلا - ويتم جلب الماء على ظهور الحمير أو على ظهور بعض السقاة من النساء والرجال الذين يعتاشون من هذه المهنة.

أما الاستخدامات الأخرى للمياه فتوفرها للساكنين بعض الآبار التي حفرت داخل المدينة، ومن أبرزها: بئر الشيبة وبئر الفرنجي في حي الحارة، بالإضافة إلى آبار المساجد ومن أبرزها: بئر مسجد الروضة ومسجد عمر ومسجد النور ومسجد باحليوة، حيث كان الناس يستخدمون (المقالد) في المساجد للاغتسال والوضوء، أما النساء فيلجأن إلى البحر (بحر المشراف) الذي كان موقعه مكتبة الطفل اليوم وساحتها، للاغتسال وغسل الثياب، وكان مستوراً ويمنع الرجال من دخوله.

معاناة .. مشكلة .. صعوبة حياة

عانى سكان مدينة المكلا - كثيراً - من التعب للبحث عن مياه الشرب النقية والنظيفة الصالحة، وزادت هذه المعاناة مع تكاثر السكان، خاصة، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وما رافقها من تداعيات (المجاعة) التي اضطرت الكثير من الأسر في الداخل والصحراء إلى النزوح إلى مدينة المكلا، فتأزمت مشكلة الحصول على المياه، وصعوبة جلبها من مسافات بعيدة عن مركز المدينة وبطرق بدائية عن طرق (قرب) الماء التي تحملها النساء، أو عن طريق (المعارص) التي يحملها الرجل، وفضل الكثير من الأسر السكن في ضواحي المدينة حيث وفرة المياه في مناطق الحرشيات وثلة باعمر والبقرين والخربة وغيرها من المناطق التي اشتهرت بالمعابين والآبار العذبة التي هيأت لساكنيها فرصة إقامة البساتين والمزارع والحدائق الخاصة.

السلطان صالح بن غالب القعيطي

السلطان عوض بن صالح القعيطي

السلطان صالح ومشروع مياه المكلا

منذ أن تقلد السلطان صالح بن غالب القعيطي شؤون السلطنة (١٩٣٦ – ١٩٥٦م)، شرع في وضع خطط تطويرية في كثير من مجالات الحياة، مستفيداً من استتباب الأمن في ربوع حضرموت بعد الصلح الحضرمي للسلام (صلح انجرامس) ليهتم بكثير من القطاعات، من بينها (المياه) حيث سعى – جاهداً – للتخفيف عن ساكني المدينة ورفع معاناتهم اليومية جراء جلب مياه الشرب من منطقتي (البقرين) و(سقم).

وبحكم تعدد قدرات السلطان صالح وملكاته وثقافته الموسوعية واطلاعه على تجارب الدول التي زارها، وولعه بالعلوم والاختراعات، ظهر مشروع مياه المكلا في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، لتتم الاستفادة من معالمة البناء وبعض الفنيين المهتمين بشأن المياه الذين اقترحوا على السلطان جلب الماء إلى قلب المدينة بدلاً من ذهاب الناس إليه في أطرافها البعيدة، فوضعت الخطة المحكمة لتنفيذها بدقة متناهية في إنجاز تنموي وعمراني بيني قل نظيره في دول الجوار زمنئذ، وهو المشروع الذي حسم مشكلة المياه لساكني المكلا وبما يتوافق والإمكانات المتاحة يومئذ وطبيعة الظروف والتطور الهندسي والتقني في الوطن العربي في منتصف القرن الماضي.

مشكلة .. فكرة .. خطة .. تنفيذ .. نتائج

لم يدع السلطان صالح بن غالب الفرصة تفلت من بين يديه، فانطلقت الفكرة لحل المشكلة، بعد وضع الخطة والتصميم وقياس جدواها ومردودها الاجتماعي والاقتصادي على المدينة، فتمحورت خطة التنفيذ على الآتي:

- نقل الماء من أماكن نبعه في البقرين وسقم بوساطة سواقي (عتوم) يسير فيها بشكل انسيابي مستغلاً نظام الجاذبية وهو قانم على أحد علوم الحسابات (الهيدرولوكية).

فالساقية الأولى تنطلق من نبع البقرين في أقصى منطقة الديس بمحاذاة الجبل بطول:

(٣٠٠٠) متراً تقريباً، أما الساقية الثانية فتم إنشاؤها في الجانب المقابل، حيث تحمل الماء من نبع (سقم) الذي يقع في أقصى جول الشفاء بمحاذاة المنطقة الجبلية عند الغار لحمر بطول: (١١٥٠) متراً تقريباً.

- إنشاء خزانات كبيرة (جوابي) تحتضن الماء القادم من ينابيعه ليتم من خلالها توزيعه على السكان في أحياء المدينة.

- تصب هذه السواقي مياهها في (٦) خزانات (جوابي) تم بناؤها بالقرب من السكان من النورة والحجارة، حيث تتفاوت سعتها من المياه بين: (٨٨٠٠٠ – ١٠٠٠٠٠) جالون تقريباً، وهذه الخزانات هي:

١- جابية السيلة: وهي تموّن الساكنين في حافة (العبيد).

٢- جابية البلاد: وهي تموّن الساكنين في حافة (البلاد).

٣- جابية مسجد عمر: وهي تموّن بعض سكان (الحارة) وبعض سكان (برع السدة).

٤- جابية حطبينة: وهي تموّن سكان (برع السدة).

٥- جابية الغليلة: وهي تموّن مناطق (الشرج).

٦- جابية الديس: وهي تموّن ساكني (الديس).

قوانين توزيع المياه ..نظام اجتماعي دقيق

بعد الانتهاء من المشروع ودخوله حيز التنفيذ، استقبله الناس بالبشر والترحاب، إذ كانت المشكلة تقلق الكثيرين، وبعد أن تم حلها وحسمها، كانت الحكومة القعيطية تبحث عن قوانين للتوزيع والاستفادة من هذا المشروع وبما يعود بالنفع العادل لجميع قاطني المدينة، الأمر الذي دفع الجهات المسؤولة إلى صرف بطاقات تموين خاصة تصرف لكل أسرة وتحدد حاجتها بحسب عدد أفرادها، وكان السقاة من الرجال والنساء يقومون بجلب الماء للمواطنين من الخزانات الستة المنتشرة في أحياء المدينة إلى بيوتهم حيث تحفظ في (الزير) أو (الجوابي) المنزلية الصغيرة، وبعضها يتم وضعه في (الجحلة) أو (الكوز) بغية تبريدها، إذ كان أصحاب البيوت يمنحون السقاة بطاقاتهم التموينية ويدفعون لهم أجرتهم الشهرية اليسيرة مقابل خدمة جلب الماء إلى المنازل.

خدمة منزلية وتفتيش صحي وبيئي

لم يكتفِ القائمون على إنجاز المشروع على استكماله وبدء خدمته الاجتماعية وحسب، بل كان مشروعاً خدمياً أسس لقوانين ومعايير اجتماعية واقتصادية وصحية وبيئية تكمل الوجه المشرق لهذا المشروع العملاق لحظتئذ، فكانت

صحة البيئة – ونحن هنا نتحدث عن خمسينيات القرن الماضي – تقوم بالتفتيش الدوري في البيوت ويقوم عمالها بمعاينة (الزيار) و (الجوابي) للتأكد من خلوها من يرقات البعوض وغيرها من اليرقات، حيث تتخذ الإجراءات العقابية بحق أولئك الذين لا يعتنون بنظافة أوعية مياههم حماية لهم وللمجتمع من مخاطر الملاريا التي تنقلها أنثى البعوض، كما يتم رش أماكن توالد وتكاثر البعوض بالأدوية المخصصة لذلك.

وهنا نرى كيف كانت الدولة (الحكومة) ومؤسساتها الخدمية تسهر على راحة الناس وحماية المجتمع، حداً جعلها، تضع قواعد وأسساً للصحة والبيئة ومتابعتها إلى المنازل دون تردد، والمواطن يلتزم بآلية النظافة والصحة والبيئة حتى في عقر منزله، ولا يستطيع الرفض أو الامتناع وعدم الامتثال لهذه القواعد والقوانين، فشتان بين زمن كانت الصحة والنظافة تذهب إلى (الجحلة والكوز والجابية المنزلية)، وزمن الآن .....!.

تطوير المشروع بعد عشر سنوات من انطلاقه

كغيرها من الدول المتحضرة، كانت السلطنة القعيطية، تعود إلى مشاريعها الخدمية والتربوية والتعليمية والصحية والكهربائية والطرقات وغيرها، لتعيد تقييمها وتقويمها ومدى الاستفادة منها والاستمرارية فيها، في ظل الارتفاع المتزايد في عدد السكان بمدينة المكلا، ففي مطلع ستينيات القرن الماضي وفي عهد السلطان عوض بن صالح القعيطي تم حفر آبار للمياه في منطقة ثلة باعمر وتم إحضار مواسير للمياه لأول مرة إلى المكلا، من خلالها تم نقل المياه إلى (الجوابي) المعروفة في المدينة، كما تم ربط المياه إلى بيوت بعض الميسورين والقادرين على دفع تكاليف الربط من أبناء مدينة المكلا، أما أحياء المدينة فقد استمر الحال فيها عبر السقاة من الجوابي المحددة لكل حارة.

تطوير باستشارة بريطانية

في العام ١٩٦٥م تم إنشاء وحدة تشغيل أول مشروع مياه حديث وبخبرات واستشارات بريطانية من شركة (جورج استو) تتبع لإدارة الأشغال العامة بالسلطنة القعيطية، وفي العام نفسه تم تنفيذ أول مشروع مياه حديث بالخبرات البريطانية للشركة ذاتها، وتم في يوليو من العام ١٩٦٦م تشغيل المشروع لتغطية احتياجات المدينة المتطورة كعاصمة للسلطنة، حيث تضمن مكونات المشروع الآتي:

- حفر (٤) آبار بوادي بويش وجول قرية ثلة على بعد (١٥) كيلو متر من المدينة بعمق (٦٠) متراً لكل منهما، والإنتاجية الإجمالية تصل إلى (٦٠) لتراً في الثنية، وتم تشغيل حقل الآبار بوساطة محطة توليد كهربائية خاصة.
- بناء خزان حديدي (خزان ثلة) سعة (٥٠٠م٣) للضخ على قمة الجبل المقابل بارتفاع (١٣٠) متراً من المستوى الثابت للمياه بالوادي وعلى مسافة (٢) كيلومتر من الحقل.
- تمديد خط التجميع والضخ من الآبار إلى الخزان من الأنابيب الاسبستو قطر (٣٠٠ملم) بطول (٣) كيلومتر.
- تمديد خط النقل إلى خزانات التوزيع في أحياء المدينة القديمة من الأنابيب الاسبستو قطر (٣٠٠ملم) بطول (٢٠) كيلومتر.
- بناء (٤) خزانات حديدية سعة كل منها: (٥٠٠ متر مكعب) في كل من البقرين، باحوش، الشرج، خلف.
- تمديد شبكة التوزيعات لأحياء المدينة: (المكلا القديمة، الشرج، الديس) من الاسبستو والحديد المجلفن من قطر ١ بوصة إلى (٦) بوصات.
- تم توصيل المياه للمنازل والمحلات التجارية والقطاعات الأخرى بالعدادات، والبعض يتم توصيلها بدون عداد ويتم احتساب قيمة استهلاك المياه بمعدل عدد الأفراد ويسمى (قطاع).

قصة نجاح .. وحكاية عبث وتدمير

واليوم، ونحن نعود لنسجل قصة النجاح هذه، وعظمة الأثر الذي خلفه الأجداد للأبناء والأحفاد، فإننا نحاول تحريك بقايا الانتماء، و نستنهض ما تبقى من صدق لهذا التاريخ المجيد لهذه المدينة الحلم، التي يعتصرها الجميع ويمتصها مصالح ومنافع ومغانم ومكاسب في أبشع صورة ويمضي لا يلقي لها بالاً لما يصيبها من تدمير وما يتركه من عبث يتسع مداه يوماً بعد يوم، من كل الجهات الرسمية المسؤولة عنها التي تعاقبت على شؤونها، وهي تستنزف مخزونها المجيد وأحفادها لاهون، وفي غيهم سادرون، وعن تاريخهم ومآثرهم غائبون، وهي مصيبة المكلا التي لا يستشعرونها ولا يدركون، فمن لهذه المآثر والأمجاد يهتم ويرعى ويصون؟!..

.....

اعتمد التحقيق فيما ورد فيه من معلومات على تقرير لإدارة الإحصاء والتخطيط بالمؤسسة المحلية للمياه والصرف الصحي بساحل حضرموت بعنوان: (المياه في عهد السلطنة القعيطية لمدينة المكلا)، فلهم الشكر والتقدير.

صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي (١)

تشينغ خه في ضيافة سلطان الشحر أبي دجانة

تمثال لرمز المقاومة الشحرية

على الرغم من الشهرة الواسعة التي حظيت بها تلك الرحلات الاستكشافية العظيمة التي قام بها الصينيون في الثلث الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي والتي عرفت باسم (رحلات الكنز). وتحديداً مابين ١٤٠٥م – ١٤٣٣م. وما رافق تلك الرحلات (السبع) من كتابات وأبحاث ودراسات عزّزت من شهرتها وقيمتها. وما لاقته لاحقاً من حفاوة وتكريم لدى عدد من الشعوب التي زارتها. على الرغم من كل هذا. إلا إننا – وللأسف – لازلنا في هذا القطر الحضرمي (العريق) نجهل الشيء الكثير عنها. بل ونجهل حتى ارتباط تلك الرحلات الصينية بحقبة تاريخية مهمة من تاريخنا الوسيط. كم كنّا ولازلنا في أمسّ الحاجة لسبر أغوارها واستجلاء غوامضها وأسرارها .

أنور حسن السكوتي

ولعل في هذه المقدمة البسيطة دافعاً لي لأسلط - ولو قليلاً - من الضوء لتلك الرحلات الاستكشافية، وخاصة في الجانب المتعلق بمدينة الشحر (الأسعاء) وهي المدينة الحضرمية الوحيدة التي حظيت بعدد من زيارات ذلك الأسطول ضمن رحلاته السبع للبلدان المطلة على المحيط الهندي، ومكة المكرمة في البحر الأحمر. ولكي لا أطيل على القارئ، وخاصة أن هذه المادة (مقالية) وليست بحثية صرفة، سأحاول هنا تقديم ولو لمحة مبسطة لذلك الأسطول وقائده الصيني المسلم (تشينغ هو) وما كتب في (بعض) سجلات الرحلة عن هذه المدينة العريقة. وقبلها لمحة موجزة عن حاكم الشحر وحيريج آنذاك وهو السلطان: (سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي) (١) الذي وصفه المؤرخ سعيد عوض باوزير بقوله: " كان حازماً يقظاً حليماً مهاباً من جميع الناس. وقد اهتم عقب توليه الشحر بتحسين حالتها الاقتصادية، فبعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها إلى القدوم بقوافلها إلى الشحر لينافس بذلك الأسواق الحضرمية الأخرى . واستطاع الأمير سعيد أن يوطد لحكمه في الشحر بما كان يقوم به من أعمال مجيدة أطلقت الألسنة بالثناء عليه، فقد سار في الناس بالعدل وساسهم بالحكمة والحزم حتى أدركته المنية، فخلفه في الحكم ابنه محمد بن سعيد " (٢) ونزيد بأن هذا السلطان خلال فترة حكمه استطاع بناء أسطول بحري كبير، وهو الذي استعمله - لاحقاً - ابنه محمد بعد أن زاد عليه لغزو عدن وانتزاعها من أيدي الطاهريين سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م (٣).

ولعل في وجود مثل هذا الأسطول الضخم أمام

تمثال القائد المسلم تشينغ خه

سواحل حضرموت، والشحر تحديداً، دافعاً لجعل ذلك الأسطول الصيني الضخم أثناء وصوله سواحلنا، لأن يظهر نوعاً من استعراض القوة والحركات الاستفزازية وهو مالم يفعله مع عدد من الموانئ المطلة على سواحل العربية الجنوبية الأخرى التي زارها كهرمز وظفار، باستثناء عدن ومقديشو (٤) التي فعل فيها الشيء نفسه لبعض الاعتبارات لسنا بصددها هنا.

أما عن قائد الأساطيل الصينية الذي نعني به فهو القائد المسلم الطواشي: (شينغ هو) واسمه حجي محمود شمس، أحد أحفاد حاكم منطقة يونان الصينية المسلمة . وينتمي إلى أحد السلالات العلوية فيها والمنتشرة في آسيا الوسطى، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه الحفيد الـ(٣٦) للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٥) . ولد شينغ خه سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧١م، وكان يطلق عليه في صغره (ماسانباو) بمعنى (فتى الجواهر الثلاث)، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن تلك اللفظة (ماسانباو) حرّفت في الأدب الشعبي العربي إلى السندباد، صاحب الرحلات البحرية السبع المشهورة تماماً كرحلات تشينغ خه السبع (٦) . أسر في صغره من قبل أسرة (المينغ) التي حكمت الصين مابين (١٣٦٨م – ١٦٤٤م) (٧) وتم خصيه وتقريبه من الإمبراطور الصيني (يونج لي) وهو الإمبراطور الثاني من أسرة (المينغ) لمزايا عدت فيه، والتي جعلت من الإمبراطور فيما بعد لأن يكلفه بالإشراف على بناء تلك الأساطيل

صورة لنماذج من المدافع التي حاول بها الاسطول الصيني ضرب مدينة الاسعاء

الاستكشافية وقيادتها في حملات سبع متتالية. توفي سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٥م وضريحه موجود في منطقة نانكنج الصينية.

وكان قوام هذا الأسطول الصيني في رحلته الأولى التي انطلقت سنة ٨٠٨هـ وعادت سنة ٨١٠هـ / الموافق ١٤٠٥م – ١٤٠٧م، عدد (٣١٧) سفينة من نوع الزنك (الجنك) منها (٦٢) سفينة تحمل الهدايا التي عرفت بسفن الكنز، و(٢٨٨٧٠) رجلاً يتوزعون بين جنود وضباط وملاحين وبنائين وكتب ومترجمين (٨). أما الرحلة السابعة الأخيرة فكانت بدايتها في ربيع ثاني ٨٣٤هـ الموافق ١٩ يناير ١٤٣١م، وعادت في شهر صفر سنة ٨٣٧هـ الموافق ١٤ سبتمبر ١٤٣٣م. وعدد الزنوك فيها أكثر من (١٠٠) وعدد الرجال عليها (٢٧٥٥٠) ما بين جنود وضباط وأطباء ومجدفين وحدادين وتجار ومترجمين وبحارة ..الخ (٩).

رسمة للقائد تشنغ وهو على إحدى سفنه في عرض البحر

وكانت زيارة الأسطول للأسعاء (الشحر) في الرحلات الثلاث الأخيرة (٥ – ٦ – ٧)، وفي إحدى تلك الرحلات (الرحلة الخامسة) والتي استغرقت فترة ما بين عامي (٨٢٠ – ٨٢٢ هـ الموافق ١٤١٧ – ١٤١٩م) وهي على الأرجح الزيارة الأولى لهذا الأسطول الصيني لمدينة الشحر، وفيها حدث ذلك الاستعراض للعضلات كإثبات للقوة والتفوق، بل وكما ورد في بعض السجلات عن محاصرة هذا الأسطول للمدينة ومناوشات طفيفة حدثت بين الطرفين أعقبها صلح وتفاهمات وتبادل للزيارات والسفارات، أكدته الرحلتان اللاحقتان، وذلك الحدث بل والرحلات برمتها نسبت خطأً في بعض الدراسات للإحساء وليس الأسعاء، فترة حاكمها (إبراهيم بن ناصر بن جروان) (١٠) لوجود لبس في الترجمة . كما إن الوثائق التي لاتزال محفوظة لدى الصينيين يمكن أن تقدم لنا حقائق أخرى ومعلومات مستفيضة عنها(١١).

ولنا قبل الختام التعرف على ماكتبه أحد مرافقي الرحلة ومترجميها عن مشاهداته داخل المدينة ويدعى(ماهوان)ويلقب بتسونغ داو وهو أيضاً مسلم، حيث كتب عن الشحر:" يمكن الوصول إليها من قاليقوط تحت ريح طيبة في عشرين يوماً. وهي على ساحل البحر. وسورها من الحجر. وهي مجاورة لتلال (أو أن التلال قريبة منها) في صحراء ليس فيها زرع. وتعلف البقر والخراف، والجمال، والخيل بسمك البحر المجفف. ومناخها حار دائماً. وتربتها قاحلة، وغلتها الزراعية قليلة. إلا أنه يزرع فيها البر. ولا ينزل فيها المطر لسنوات متتابعة. وتحفر فيها الآبار ويسحب الماء منها بواسطة زوجين من العجلان المسننة وقربة من جلد الخروف. ويعقد كلا الجنسين شعرهم بشكل ظفائر، ويلبسون عباءات طويلة، وتغطي النساء رؤوسهن كما تعملن في هرمز. وجدارها (المدينة) من الحجارة وبيوتها من الطين، ويبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة طوابق. وفي أعلاها تقع المطابخ وغرف النوم حيث يقيم الضيف. وأما الطوابق السفلى فيعيش فيها العبيد. ومنتجاتها :العنبر، البخور، الجمال السريعة. وأهلها مخلصون ويقيمون الشعائر لجنائزهم، ويتجهون في دعائهم إلى الآلهة والشياطين (١٢)؟! وتأثراً بما قابله ملك هذه البلاد – من عطف الإمبراطور – أرسل رسالة منه على ورقة من ذهب وهدايا للتعبير عن الخضوع والولاء . أما البضائع (التي باعها الصينيون) فهي الذهب والفضة والمخمل والحرير والصيني والأرز والفلفل وخشب الصندل والصمغيات " (١٣) . ولا ننسى أن تلك الرحلات التي قام بها الصينيون شملت كذلك ظفار أثناء حاكمها السلطان (علي بن عمر الكثيري) مؤسس الدولة الكثيرية في حضرموت (ت : ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) وفيها تفاصيل أكثر ومادة أخرى غنية وجديرة بالدراسة، لعل لنا معها وقفات أخرى مستقبلاً .

رسمة لأسطول الكنز مُبحر في مياه المحيط الهندي

الهوامش والمراجع

(١) باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م، ص ١٥٠ . وحول نسب أبي دجانة أنه كان من قبيلة كندة أو من قبيلة مهرة يمكن الرجوع لكتاب المهري، سعد بن سالم بن زومة الجدحي، تاريخ المهرة المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الأحقاف، دار المستقبل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص١٥٢ .

(٢) باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٠ .

(٣) انظر المهري، سعد الجدحي، تاريخ المهرة، مرجع سابق ص١٥٦ . الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، تريم للدراسات والنشر، الطبعة الأولى في سنغافورة سنة ١٩٤٠م وأعيد تصويرها سنة ٢٠٠٥م . ص١١٥ . باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ١٥١ . ومن الواضح أن آل أبي دجانة لديهم ولع بالملاحة البحرية وبناء الأساطيل نجد أول إشارة لهم فيما ذكره المؤرخ شنبل، أحمد بن عبدالله، في كتابه (تاريخ حضرموت) ضمن أحداث سنة ٧٥٦هـ ((وفيها خرج الهنود المجوسيون في أيام الأمير داؤد بن خليل الهكاري بقيودهم وسبحوا إلى مركب في بندر الشحر، فجهز وراءهم مركباً مقدمهم الشيخ أحمد ابن عبدالله أبادجانة فاستنقذوا المركب منهم في سقطرا، ونهبوا من الجزيرة مالاً كثيرة، ورجعوا بالمركب إلى الشحر)) . المرجع السابق، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، الناشر مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م، ص١٢٦ .

(٤) محيرز، عبدالله أحمد، رحلات الصينيين الكبرى إلى البحر العربي، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م . ص٥٩ .

(٥) العلوي، هادي، المستطرف الصيني، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، تاريخ الطبع ١٩٩٤ - ٢٠٠٠م، ص٣٠٥ . بينما اعتبر محيرز جده من أصل مغولي . انظر المرجع السابق ص٤٧ .

(٦) من بحث د . خليل، محمد محمود ، الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينج نموذجاً، منشور في مؤتمر العلاقات العربية الصينية، جامعة قناة السويس، ٢٠١٢م . (نسخة إلكترونية بحوزتي) .

(٧) محيرز، رحلات الصينين الكبرى، ص٣٣ .

(٨) المرجع السابق ص٥٧ .

(٩) المرجع السابق ص٦٤ .

(١٠) حدث لبس وخطأ لدى بعض الباحثين الذين كتبوا عن هذه الرحلة وخاصة في تحديدهم للبلد التي زارها الأسطول الصيني بين من اعتبرها الأحساء وآخرين الأسعاء، والسبب على الأرجح يعود إلى الترجمة وإلى جهل البعض باسم (الأسعاء) كاسم قديم أطلق على مدينة الشحر الحالية، حيث أثبت الباحثون التسمية بالحروف اللاتينية (la.sa) واختلف البعض في تحديدها إلا أن الخرائط الصينية تؤكد وقوعها مابين ظفار وعدن . وحتى سارجنت في أثناء حديثه عن تلك الحملة نسب الرحلات للأحساء، إلا أنه تدارك الأمر باستغراب عن عدم إيراد ميناء الشحر (الأسعاء) في تلك الزيارة دون أن يتحقق من الأمر، وإنما اعتمد ترجمة المستشرق الإنجليزي مايلز) لكتاب الصيني (ماهوان) المعنون (مشاهداتي في شواطئ المحيط الظافر) وقد نشرته جامعة كمبيردج سنة ١٩٧٠م . انظر ر . ب . سارجنت، التجار والتجارة في اليمن من القرن ١٣ - ١٦ م . نشر في كتاب دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي، صادر عن المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ترجمة وتقديم د . نهى صادق . ص٧٣ . للمزيد عن الموضوع حول اللبس، انظر محيرز، مرجع سابق، ص١٣١ . وأما من ذهب إلى أنها الأحساء دون أن يناقش فرضية الأسعاء فنشير للباحث الدكتور محمد محمود خليل وبحثه الموسوم الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينج نموذجاً .

(١١) هناك عدد من الوثائق أوردها الدكتور محمد خليل في بحثه السابق واعتبرها خاصة بالأحساء، ونظن أنها تعني الأسعاء (الشحر) وعددها (٨ وثائق)، ولا نريد الجزم بإحدى القولين إلا بعد التأكد والإطلاع .

(١٢) يجب ألا تؤخذ هذه اللفظة حسب معناها الظاهر، فمردها للترجمات المتعددة للنص، كما إن هناك ترجمات أخرى لم ترد فيها بهذه الصيغة وقد تم نقلها هنا للأمانة العلمية كما في مرجعها .

(١٣) محيرز، مرجع سابق، ص٨٩ - ٩٠ . انظر ترجمة أخرى للنص في بحث الدكتور محمد خليل . مرجع سابق .

خريطة الكرة الأرضية تعود لعهد أسرة مينج ضمن مجموعة وثائق الأسرة ونلاحظ وجود الأمريكتين التي عرفها الصينيون منذ القديم وزارها تشينغ خه

قبر القائد تشينغ خه

انهمارات حضرمية

سالم العبد الحمومي

أفلا نستحق الحياة ؟..

.. منذ متى انقطع الحضارم عن فيوضاتهم وانهماراتهم حتى في النكسات وعهود الظلام والارتكاسات، فاضت بهم العبرات وجاشت صدورهم بدعاء العلمات والنكبات، وأودعوا شكايتهم لله وللكلمات، ولم ينسوا فضيلة الصبر ومضاء سلاح الدعاء، والتضرع إلى الله الملتجأ في نزعة الصادقين الصابرين، المتيقنين من صدوع السماء إلى تضرع الأنقياء الأتقياء .

ولما ترافق الصبر على البلاء، مع السعي إلى الخلاص والارتقاء، كمنوا في الرمضاء ولفح الصحراء وأعدوا أبناءهم لاجتياز مفازات التحدي وهجير الرمضاء، وأعدوا عدتهم متجسّدين قول الصادق المصدوق: (اعقلها وتوكل)، عليه أفضل الصلاة والسلام، وانبثقوا من رحم الصحراء في عيوة ورماه، شباباً كالرياح السمهرية، واندفعوا أرتالاً بحجم بلدهم وعذابهم وتوقهم الموجع إلى الخلاص، ولم يتوانوا وهم يتدافعون نحو الموت وحنوة الخلاص والانعتاق في نثر دمائم الثمينة على طريق الرفعة والسيادة ..

وتشربت تربتهم الطاهرة، دماءهم الفتية الحارة، وصدحت بأنغام النشيد المنتظر نحو القادم المفدّى، نشيداً حضرمياً خالصاً، معتزجاً بالأخوة السعودية الإماراتية . انطلقوا نحو التشكل القادم، عزة ونخوة وكبرياء، وانتظم رتل بطول عشرات الكيلوات ينثر في طريقه إلى المكلا دماً قانياً وشهقات مستقبل ظفروه بأيدٍ حضرميةٍ إماراتية، تجسد حلماً استعادوه بضربة سخية ممزوجة بروح ودماء ودعاء، كي يستحقوا بجدارة مستقبلاً اشتاقوه عقوداً من ظلام وارتخاء .

نخبة حضرمية خالصة، محافظاً وقائداً عسكرياً وجنوداً، وكوادر، وبراعم، وشغاف، أفلا نستحق الحياة ؟..

أوراق في تاريخ السلطنة القعيطية

خطها المرحوم العلامة/ محفوظ بن سعيد المصلي

احتلال العبر

الورقة الأولى

إعداد: أ. د. أحمد محمد بن بريك

يقول المصلي:

" ذات يوم جاء إلى مكتب السلطان المستر هوبكنس وهو انكليزي كان مشرفاً على تدريبات الجنود القعيطية وقال إن المستر انجرامس وهو إذ ذاك بسيؤن يريد إرسال خمسه عشر نفر من عبيد الدولة إلى سيؤن في الحال وكان يخاطب الحدادي مساعد الأمير عوض ولما سأله الحدادي لماذا يريدهم قال: لا أدري، فقال له سأبلغ الأمير عوض هذا الطلب وسيأتيك الرد ، كل هذا يجري وأنا بينهم في الجلسة فقلت للمستر هوبكنس غريب من المستر انجرامس يطلب هذا الطلب دون علم مكتب السلطان ولا علم الأمير عوض القائم مقام السلطان فقال: وأنتم لا تعلمون شيا عن هذا الطلب. فقلت: لا ولا الأمير عوض أيضاً يعلم شيئاً عن ذلك فاستغرب هو نفسه ذلك التصرف من المستر انجرامس وذهب إلى مكتبه ثم عاد إلينا ضحوة ذلك اليوم يحمل برقية بيده له من المستر انجرامس وعرضها علينا فإذا فيها: مهم جداً أرسلوا خمسه عشر من العبيد فوراً إلى سيئون) وقال هذه البرقية وصلتني من المستر انجرامس وهي تدل أن الموضوع مهم جدا كيف رأيكم فقلنا أن الأمير عوض رأيه أن يعلم الأسباب لهذا الطلب وهو مستعد بإرسال الخمسة عشر أو مائة نفر لكن بعد التحقق من معرفة الأسباب وصلاحيتها وهؤلاء الناس من أتباعه وهو أمين عليهم وتحت حمايته ولا يمكن أن يرسله بمجرد طلب بهم غامض لا يعلم أسبابه فعاد إلى مكتبه على إثر ذلك ثم جاء مرة ثالثه وقال إنني تفاهمت مع المستر انجرامس برقياً وقال إنه سيحتل العبر بهم وقلنا له هل تفهم العبر أنت وموقعه فقال لا وأعطيناه صورة عن العبر وعن القبايل المحيطة أو القريبة منه وقلنا إن الخمسة عشر النفر الذين يطلبهم لا يقدرون أن يحتلوا العبر بمفردهم إذا كان أحد من قبايله موجود به وعلى فرض أن يكون خالياً ويحتلوه فسرعان ما تحتاط بهم القبائل المجاورة له وتكون العاقبة وخيمة وقلنا

المناضل محفوظ سعيد المصلي

له أنت كضابط مسؤول فهل إذا أمرت أن تحتل العبر مع هذه الحالة والموضوع غير واضح لك فقال لا ثم قال وما العمل؟ قلنا الموضوع يحتاج إلى إيضاح أكثر فاتصل بانجرامس وأبلغه خلاصة ما دار في الجلسة وعاد إلى مكتبه وفي العصر أرسل لنا رسولاً يبلغنا أن المستر انجرامس سيصل إلى المكلا غروب الشمس في ذلك اليوم لمقابله الأمير عوض وبعد الغروب جاء رسول آخر وقال المستر انجرامس وصل وسيأتي الآن لمقابلة الأمير عوض وكان الأمير عوض في أوضة الاستقبال والحدادي وكنت ثالثهم وجاء المستر انجرامس وفور جلوسه قال أنا طلبت إرسال خمسه عشر نفر من العبيد إلى سيئون هذا اليوم ولم ترسلوهم لماذا؟ أجابه الأمير عوض إن طلبك لم نفهم أسبابه في البداية وأخيراً عرفنا بعض الأسباب من المستر هوبكنس ولكن لم تكن واضحة فطلبنا منه أن يستوضحكم ثم أبلغنا إنك ستصل إلى هنا وانتظرنا وقد حضرت ونحب أن نفهم الأسباب لهذا الطلب فأجابه المستر انجرامس على الفور أنا طلبت هؤلاء النفر من العبيد وإذا لم تحبوا أن ترسلوهم فما حاجة لضياع الوقت ونهض خارجاً من الأوضة فقمت واعترضت سبيله وطلبت منه أن يعود ويجلس ويستمع لما يقال له وقلت له بصريح العبارة إن تصرفك هذا غير سليم أولاً لأنك في مجلس الأمير عوض وكان المفروض أن تحترمه وثانياً لم يتم الكلام فيما جئت من أجله وما كان من حقك أن تتصرف هذا التصرف فقال: لكن هذا الموضوع سري ولابد فيه من الكتمان ونحن قررنا احتلال العبر وطلبنا خمسه عشر نفر من المكلا وسنضم إليهم خمسه عشر نفر من عبيد السلطان الكثيري وأنا وزوجتي دورين والسيد أبوبكر معهم وستحمينا الطائرات أيضا فيما إذا حصلت مقاومة فقلت: مهما يكون الأمر سراً فلا يمكن أن يخفى على الأمير عوض الذي يمثل السلطان حتى يعرف إلى أين يذهب جنوده على أنه مادام الأمر وضح فقد أخبرك الأمير عوض ألا مانع لديه من إرسالهم أو أكثر منهم ثم بعد ذلك أخذني بعض مقادمة العبيد وأسّر إلي رغبة المقادمة في أن يذهب رجل عاقل مع الخمسة عشر ليرعاهم وإذا حصل خلاف بينهم بعضهم البعض أو بينهم وبين عبيد سيئون أو بينهم وبين المستر انجرامس يقوم بعلاجه وحله وجئت إلى المستر انجرامس واقترحت عليه ذلك فرفض وقال: لا نريد إلا الخمسة عشر نفر فقط وبعد معالجة معه استجاب لذلك ثم أخذني المقادمة مرة أخرى وقالوا: نسينا أن نقول لك أن الحكومة أوقفت مرتب الذي سيقوم بهذه المهمة لهذا نريد له ولو عشره ريال شهرياً مدة بقائه هناك وعدت إلى المستر انجرامس واقترحت عليه ذلك ورفض وأصر على الرفض وأخيراً حاولته أن يقوم معي إلى أوضة أخرى لنتحدث معه بسر وبعد... والتي استجاب وفي الأوضة الأخرى تحدثت معه بقوة حول ذلك وأفهمته المصلحة التي سيجنيها من وجود هذا الرجل العاقل وبعد ذلك وافق ثم استعرضت معه ما عمله في الجلسة من قلة أدب وقلت مهما كان من سقوط السلطان في أحضانكم وانصياعه إلى كل ما تشيرون به عليه فما أقل أن تحترموه وتحترموا مجالسه أما أن تتصرفوا معه هذه التصرفات وأمام الناس فهذا لا يليق بكم ولا يشرفكم ولا يشرف حكومتكم وطال الكلام معه ولكنه في الأخير اعتذر وانتهت الجلسة وعاد في نفس الليلة إلى سيئون وفي الصباح الباكر توجهت العبيد إلى سيئون وفور وصولهم ضم إليهم خمسة عشر من عبيد سيئون وهو وزوجته والسيد أبوبكر بن شيخ الكاف وتوجهوا إلى العبر واستولوا عليه ولم تكن به مباني إلا نحو ثلاثة بيوت صغيرة ومهدمة في نفس الوقت ولم يجدوا فيها سوى ثلاثة نفر من الصيعر بدون سلاح جيء بهم إلى سيئون ثم أطلق سراحهم بعد أيام.

---

* من أرشيف أ. د. أحمد محمد بن بريك.
(يُنشر تباعاً لأول مرة).

الوقف الخيري والأهلي في حضرموت

نال الوقف الخيري والأهلي في حضرموت حظاً وافراً من العناية من قبل الأهالي منذ صدر الإسلام، وتسابق الحضارمة في حبس بعض أموالهم ووقفها في سبيل الله على الفقراء المساكين والأيتام وإقراء الضيوف وحبسها على أولادهم وذراريهم من بعدهم، والأوقاف على المساجد والزوايا والأربطة وغيرها من دور العلم والعبادة، بل وتعدت إلى الوقف على الحيوانات، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد أحمد الشاطري: "كان أسلافنا في حضرموت ينوعون المبرات لحرصهم الشديد على المنافسة في أعمال البر، وكانت الأوقاف كثيرة، بعضها لايزال إلى اليوم، وبعضها أخذته أيدي الضياع والتلف ومنه الذي استولى عليه الظلمة. وقل أن تجد مالاً - خصوصاً في دوعن - إلا وتجد فيه وقف، وفي تريم مبرات كثيرة وصلت الأوقاف إلى درجة أنهم يوقفون على حمام الحرم، منها بيت جبير يقولون أيام كانت معمورة كان فيها بعض الجروب وقف على حمام الحرم، إذا حصد الزرع يحمّل حصيلة وقف حمام الحرم إلى الحرمين الشريفين ليقدم لها، ومن الغريب أن عندنا في تريم وقفاً على اللقطاء ممن لايعرف له أب!!. وقد بلغت أوقاف الإمام عبدالله باعلوي على مسجد باعلوي ما قيمته في ذلك العهد (٩٠ ألف دينار)، ويوجد في نويدرة تريم إحدى وعشرين بئراً من أعز الأماكن وقفاً لال منفر الحامد على ذلك المسجد ولهذا كانت الإمامة فيهم. (١) وهناك أيضاً أوقاف بساحل حضرموت موقوفة على حمام الحرم منها أرض تقع شرقي مدينة الحامي إلا أنها مندثرة منذ عشرات السنين.

محمد علوي باهارون

نشأة ثقافة الوقف الخيري مع الحضارمة منذ أن اعتنقوا الإسلام في السنة العاشرة من الهجرة، وحملوها إلى مهاجرهم المتعددة إبان الفتوحات الإسلامية حتى سجل لهم التاريخ الأسبقية في تنظيم هذه الأوقاف، وحصرها في مؤسسات خاصة تهتم بتصرفها والاعتناء بها.

وكان القاضي توبة بن نمر الحضرمي حينما ولي قضاء مصر سنة ١١٥هـ في زمن هشام بن عبدالملك، أحدث إدارة خاصة بمصر تشرف على الأوقاف وترعاها، وهو أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس وكانت من قبل في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما تولى توبة قال: "ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث" فلم يمت توبة حتى صار للأحباس ديوان عظيم. (٢)

وهذا أول تنظيم للأوقاف ليس في مصر فحسب بل في جميع الدول الإسلامية، وفي عهد المأمون الخليفة العباسي نظم قاضيه بمصر لهيعة بن عيسى الحضرمي الأحباس، وحكم في أحباس مصر كلها، يروي لنا الكندي في تاريخه ما نصه: كان من أحسن ما عمله لهيعة في ولايته أن قضى في أحباس مصر كلها فلم يبق منها حبساً حتى حكم فيه إما ببينة أو بإقرار أهل الحبس، وكان يقول في ذلك كنت أحب ذلك من زمان، وسألت الله أن يبلغني الحكم فيها فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه وجددت الشهادة. (٣)

وهكذا دأب الحضارمة في الاهتمام بالوقف وخصوصاً في موطنهم حضرموت، فلو تتبعناه في كل بلدة من بلدان حضرموت لضاق بنا الوقت في استقصائه ولتطلب الأمر إلى دراسات عديدة، ولوجدنا المئات من الأوقاف والمبرات الخيرية.

الوقف منذ فجر الإسلام إلى عهد السلاطين

منذ فجر الإسلام إلى عهد السلاطين (القعيطية والكثيرية) اتسم الوقف بالعطاء الكثير للقرب والمبرات الإنسانية ومن أبرزها أوقاف الحبوظي في دوعن والتي قام بوقفها السلطان سالم بن إدريس الحبوظي عندما حكم حضرموت في سنة ٦٧٦هـ حيث كانت لها مآثر عظيمة وكان يحمل نفساً كبيرة وقلباً عطوفاً على الفقراء والمحتاجين، فقد تصدق بأراض زراعية واسعة ونخيل في وادي حضرموت ووادي دوعن وغيرها، وتقدر قيمة هذه الأوقاف

والصدقات بمبالغ طائلة, تصرف غلتها على المساجد والمحتاجين من الغرباء والمنقطعين وأبناء السبيل, وتعرف هذه المكرمة الخالدة بين الحضارم بصدقة الحبوظي.(٤) وقد قام مكتب الأوقاف بساحل حضرموت مؤخراً بحصرها وهي موجودة في عموم مناطق واديي دوعن الأيمن والأيسر كما أخبرني بذلك السيد محمد بن عبدالرحمن جمل الليل.

ومنها أوقاف الشيخ عبدالله بن محمد باعباد المعروف بالقديم المقبور بشبام عام٦٨٧هـ في مناطق سيحوت والحامي والعيص وغيرها على مساجده ومقامه في الغرفة وشبام وغيرها.

ومنها أوقاف آل باوزير المعروفة بديار الصدقة لعابري السبيل في أرجاء متعددة من أودية حضرموت وكانوا يوقفون النخيل والأراضي الزراعية على هذه الديار لتصرف إيراداتها في إيواء المسافرين والغرباء وإطعامهم مجاناً ولوجه الله ويعينون على نفقة الوقف رجالاً معروفين بالأمانة والنزاهة ليقوموا بواجب الضيافة لعابري السبيل.(٥)

ومنها أوقاف الشيخ عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف المتوفى عام ٨٣٣هـ من أراض زراعية وعقارات في تريم ووادي عرف والشحر وغيرها على مساجده المتعددة في تريم والشحر والواسط وغيرها.

ومنها أوقاف الشيخ أبي بكر بن علي بامعيبد على موتى الحامي (مقبرة بامعيبد) ومسجدي غبطة والشيخ أحمد بالشحر.

ومنها أوقاف المحسنة المعمرة عائشة بنت محمد حبيشان (جدة الربان الشهير سعيد سالم باطايع) على مساجد الحامي والديس وثوبان وغيرها.(٦)

الوقف في عهد السلاطين

في عهد السلاطين كان الإنتاج في مجال الأوقاف عظيماً وكبيراً فعمت الصدقات والأوقاف كل أوجه البر من مساجد ومدارس وأربطة علمية دينية، وبيوت إيواء للمسافرين وأبناء السبيل وقرى للضيوف المارين، وفي هذه المرحلة ضبطت الأوقاف وسجلت في سجلات خاصة تابعة لجهات الأوقاف، وشكلت لذلك لجنة عام ١٣٧٥هـ بعضوية كل من العلامة عبدالله بن محفوظ الحداد والشيخ عمر بن سعيد باغزال وحفظت في أرشيفات مكتب وزارة الأوقاف بمدينتي الشحر والمكلا، وفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) صدر منشور قضائي بتوقيع المجلس العالي ورئيس القضاة القاضي عبدالله عوض بكير يطلب فيه تسجيل الأوقاف وقبول شهادة الحسبة عليها واستخراجها من يد من استبد بها بطريق غير مشروع .(٧)

الجدير بالذكر أن عموم مساجد حضرموت القديمة في الوادي والساحل توجد عليها أوقاف من أراض زراعية وعقارات وبيوت وغيرها، وهذه من أهم المهمات كما أخبرني شيخنا المرحوم السيد حسين بن عبدالقادر بلفقيه أن السابقين كانوا لايبنون مسجداً حتى يوقفوا عليه بعض الأوقاف للترميم والإمامة، فحبذا لو يحذو المتصدقون وفاعلو الخير اليوم حذوهم ويتشبهون بهم إن التشبه بالكرام فلاح.

كما إن هناك أوقافاً أهلية يوقفها بعض الأثرياء الميسورين على ذراريهم وأرحامهم مازال بعضها مستمراً يدر بدخله على تلك الأسر إلى اليوم، وبعضها توجد في مهاجر الحضارمة كإندونيسيا وسنقافورة ما زالت عامرة ولها هيئات تديرها ومن أبرزها أوقاف السيد محمد بن عبدالرحمن السقاف.

وهناك العشرات من الأوقاف على مساجد حضرموت في الوادي والساحل اندثرت وربما لايعرف أماكنها لقدم السنين وضياع السجلات كما هو الحال عندنا في الساحل، وما دوّن إنما هو قليل من كثير، وأوقاف على طلبة العلم وأوقاف للتصدق على الموتى وأوقاف على مغسلي الموتى وغيرها. فجدير بالقائمين عليها أن يحيوها ويبحثوا عنها وتوثيقها، والدال على الخير كفاعله وبالله التوفيق.

هوامش:

١) شرح الياقوت النفيس المسمى الطريقة الحديثة للتدريس، ص٤٨٤، طبعة دار المنهاج.

٢) طلال عمر بافقيه، الوقف الأهلي، ص٢٥، دار القبلة للثقافة جدة، عن الكندي ص ٣٤٦.

٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة، لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ص ٤٤٤، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت، انظر الوقف الأهلي ص ٢٦.

٤) انظر: سعيد عوض باوزير , صفحات من التاريخ الحضرمي ص٩٤ , ٩٥.

٥) انظر: محمد عبدالقادر بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص ١١٥، ١١٧، الطبعة الأولى ٢٠٠١م بدار حضرموت.

٦) محمد باهارون، الشذرات السنية في تاريخ الحامي المحتمية ، بحث غير منشور.

٧) عبدالرحمن عبدالله بكير، الوقف في حضرموت بين السلف والخلف ص ٧٥، ط١ ٢٠٠٢م.

محطات في تاريخ السلطنات الحضرمية

محمد سعيد باحاج

السلطنة الكثيرية

السلطان حسين بن علي بن منصور الكثيري

تأسست السلطنة في عام ١٣٧٩ م على يد أبناء الشيخ جعفر بن بدر بن محمد الكثيري، وكان أبرز رجال آل كثير السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري الملقب (أبو طويرق) الذي حكم البلاد من عام ١٥١٦ إلى ١٥٦٥م، وامتد حكمه إلى منطقة العوالق غرباً وشمالاً وكان متقشفاً، حازماً، شجاعاً، كريماً، وسياسياً بارعاً، واشتهر بطول ولايته وحكمه.

في عام ١٥٢٠ م استولى على تريم ومنطقة هينن. وقد أمر بأن تضرب باسمه نقود فضية من فئة ريال ونقود نحاسية من فئة ربع ريال في عام ١٥٣٠ م . واجه السلطان بدر (بو طويرق) في تلك الفترة ثورة قبائل إلا أنه استطاع أن يخمدها مثلما خمد الكثير من الثورات . وحينما هاجم البرتغاليون الشحر بسفنهم سنة ١٥٢٣م، استنجد أبو طويرق بالسلطان العثماني آنذاك فلبى طلبه وأرسل أسطولا من السفن البحرية. وفي عام ١٥٤١م ثارت عليه قبائل منطقتي الهجرين ووادي عمد . وفي العام نفسه دخل في حرب جديدة مع الشيخ عثمان العمودي شيخ وادي دوعن، فقد عارض الشيخ العمودي سياسته مع الأتراك وخضوعه لهم .

كانت نهاية الدولة الكثيرية الأولى بنهاية سلطانها جعفر بن عمر بن جعفر الكثيري في عام ١٧٣٠م. قام بن عبدات بضرب عملة نقدية في بلدته (الغرفة) حيث أعلن تمرده على آل كثير . أما الدولة الكثيرية الثانية بدأت عندما عاد السلطان جعفر بن علي بن عمر الكثيري عام ١٨٠٣ م من بعد هجرته الطويلة في إندونيسيا والهند. اتسم عهد الدولة الكثيرية الثانية بالاستقرار السياسي وبالتركيز على العلم والأدب والقوة العسكرية

وكانت توصف بأنها من أقوى الدول عسكرياً في الجزيرة العربية حيث سطع نجمها في عام ١٨٢٤ م. استولى السلطان غالب بن محسن الكثيري على الحكم وقام بتعديلات كثيرة في الدولة لذلك سميت بالدولة الكثيرية الثالثة.

وكما يبدو أن غالب بن محسن الكثيري شعر بخطورة عودة القعيطي ولكي يقضوا على خططه قرر غزو حضرموت الساحل والاستيلاء على ميناء الشحر والمكلا لكي يحقق هدفين الأول القضاء على النفوذ اليافعي المتضامن مع

القعيطي، والهدف الثاني استيلاؤهم على الموانئ البحرية وذلك بمساعدة الأسطول التركي وكانت الخطة أن الأتراك يهجمون من البحر والكثيري يهجم من البر وذلك في ضرب إمارة بن بريك في الشحر وإمارة الكسادي في المكلا. ولقد انتصر أبناء يافع الموالون لابن بريك والكسادي انتصارا ساحقاً على القوات الكثيرية التركية. على التحالف - الكثيري والتركي - توفى السلطان غالب بن محسن الكثيري سنة ١٨٥٣ م أثناء تأديته فريضة الحج في جبل عرفات وخلفه بعده ابنه منصور بن غالب حتى توفى هو الآخر سنة ١٩٢٨م كما خلفه ابنه علي بن منصور بن غالب الذي توفى في عام ١٩٣٨ م في سيئون ثم خلفه أخيه جعفر بن منصور الذي توفي عام ١٩٤٧م ثم خلفه ابن أخيه حسين بن علي بن منصور الكثيري وهو آخر سلاطين آل كثير وغادر البلاد مكرهاً عندما سيطرت الجبهة القومية على حضرموت وعاش في السعودية حتى وافاه الأجل.

إمارة الكسادي

يعود تأسيس إمارة الكسادي إلى عام ١٧٠٣م بزعامة النقيب أحمد بن سالم الكسادي اليافعي حيث كان أهل الكسادي مولعين بالملاحة البحرية ولديهم خبرة كبيرة في هذا المجال وبالذات في قرية الديس الشرقية وقرية الحامي. قام آل كساد بتشييد إمارتهم وهم أسرتان إحداهما أسرة النقيب حسن بن صلاح الكسادي وكان مقرها الديس الشرقية والثانية

أسرة النقيب أحمد بن سالم الكسادي وكان مقرها الحامي. لقد برز النقيب أحمد بن سالم الكسادي في الحكم، وكان والده سالم رياناً ماهراً يتردد على ميناء المكلا للتجارة، ثم طابت به الإقامة فيها وجعلها مستقره وكان محبوباً بين الناس. جاء بعده ابنه أحمد فأنشأ الإمارة الكسادية بالمكلا عام ١٧٠٣م وهي أول إمارة يافعية تقام بحضرموت وجعل من الكوت الذي حل محله الحصن المعروف بحصن النقيب مركزاً لإقامته (حالياً المبنى بالقرب من مدرسة ابن خلدون). ازدهرت التجارة في المكلا وأصبحت تنافس جارتها الشحر. ويؤكد المؤرخون بأن أول الأسر التي سكنت المكلا (الخيصة) هي أسرة الشيخ المنصور الجعفري وكانوا خبراء بشؤون البحر واعتمدوا الكهوف والأكواخ مأوى لهم.

وفي عهد النقيب صلاح الكسادي ضربت أول عملة معدنية وورقية في عام ١٨٢٨م في المكلا وأشهر آثارهم حصن الغويزي الذي انشأ عام ١٧١٦ م لحماية المكلا من العدو القادم. كذلك شيد الكسادي حصن خازوق الكوت المقابل لحصن الغويزي. إن لهذه الحصون أهمية حيث تحصن جنود الكسادي بهم خلال معركة المكلا ضد هجوم الكثيري من الشحر وأستمر أل كثير في زحفهم إلى البقرين بعد أن هزموا جنود الكسادي من يافع وتألم النقيب صلاح بن محمد الكسادي فاستدعى الشاعر الشعبي عمر محمد سعيد باعطوة وقال بيته الشعري المشهور :

على خازوق بارودنا بيت وظلاً

ونفقنا البضاعة وسلمنا المكلا

كلمة (سلمنا المكلا) تعني السلامة والنجاة وليس تسليم المكلا . قالها باعطوة في معركة البقرين في ٢٤ رجب ١٢٨٣ هـ ولقد أشعل هذا البيت الحماس في جنود الكسادي وهزموا الكثيري. كان آخر حكام المكلا النقيب عمر بن صلاح الكسادي وفي عهده بدأ النفوذ القعيطي يتسع كما هو معروف في التاريخ حتى تم استيلاء القعيطي على المكلا ما بين عام ١٢٩٦هـ - ١٢٩٧ هـ وينتهي بذلك عهد إمارة الكسادي ويبدأ تاريخ القعيطي في المكلا بالاستيلاء على عليها بعد أن طالب القعيطي الكسادي بتسديد الديون التي عليه ولقد اتفقا على أن يسلم الكسادي المكلا للقعيطي مقابل مديونية عليه.

السلطنة القعيطية

السلطان عوض بن عمر القعيطي

ولد عمر بن عوض القعيطي في العقد العاشر من القرن الثالث عشر الهجري بقرية لحروم من أعمال عندل البلدة التاريخية المشهورة التي غناها أمرؤ القيس بقوله :

كأني لم اسمر بدمون مرة

ولم أشهد الغارات يوما بعندل .

هاجر إلى الهند سنة ١٢٠٧هـ وشق طريقه وأثري ثراء واسعاً. وعاد إلى حضرموت واشترى منطقة الريضة بالقطن من آل العيدروس وبدأ يبني الحصون بها ١٢٥٥هـ واشترى العتاد الحربي واستقدم عدداً كثيراً من الجنود من يافع. في صفر ١٢٨٢هـ توفى الجمعدار عمر بن عوض الكثيري في حيدر أباد بالهند. استمرت السلطنة القعيطية في التوسع في عهد ابنه عوض بن عمر القعيطي الذي يُعد المؤسس للدولة القعيطية. لقد توافرت عنده عناصر الحكم المهيب مع تواضع. لقد أوقف الكثيري عند حدوده وأقصى العولقي من أرضه بحزم وقوة إرادته. يقول المؤرخون إن الثلاثة الذين خرجوا بثرواتهم من حيدر أباد بالهند إلى حضرموت هم: عبدالله بن علي العولقي وغالب بن محسن بن عبدالله الكثيري وعمر بن عوض القعيطي .

سلاطين الدولة القعيطية :

السلطان عوض بن عمر القعيطي - مؤسس السلطنة القعيطية ، السلطان غالب بن عوض القعيطي (الأول) ،ولقبه أبونا آدم، السلطان عمر بن عوض القعيطي (المشهور) بـ (خذ حقك وهات حقي)، السلطان صالح بن غالب القعيطي ، عالم وأديب ومهندس خريج جامعة ألمانية، السلطان عوض بن صالح القعيطي ، خلال حكمه فتح المجال للحريات العامة، السلطان غالب بن عوض القعيطي (الثاني) ، نشأ وتعلم في حضرموت منذ الصغر ثم التعليم المتوسط والثانوي في السودان والجامعي في بريطانيا.

وخلال حكم القعطة لا يوجد أحد من المواطنين قد ظلم من قبلهم في مال أو أرض بل إن أموالهم الخاصة جعلوها ملكاً للشعب ولم يحتفظوا لأنفسهم بشيء يسمى مالاً خاصاً وقصورهم شيدوها بأموالهم الخاصة والأملاك في القطن وهينن وحورة وسدبة وغيل باوزير وغيرها مع قصورهم جعلوها كلها للدولة. وعندما كانت مالية الدولة لا تفي بالمصروفات كانوا يسددون العجز من أموالهم الخاصة .

كانت حضرموت في عهد القعطة متقدمة على اليمن ودول الجزيرة العربية ماعدا عدن والبحرين كانتا مستعمرات بريطانية وخصوصا مع بدايات القرن العشرين حيث كانت عدن في قمة ازدهارها فأراد السلطان القعيطي أن تصبح حضرموت كذلك وحقق القعيطي تقدما باهرا دون أي مساعدة من الانجليز ومن أبرز انجازاته إدخال الكهرباء والماء في الأربعينات كما أن مطار الريان والذي يعتبر ثالث مطار بعد عدن والبحرين وأدخل خدمات البرق والبريد .. ناهيك عن التقدم الاقتصادي والتعليمي والصحي

والمستوى المعيشي المعقول في ذلك الوقت خصوصا مع إصدار العملة الرسمية للدولة وهذا كله في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي.

لقد ترك السلطان صالح دولة فيها كل مقومات الدولة من علم و جيش ومجلس للدولة ومجلس للسلطان ووزير للسلطنة وإدارات للمعارف والمالية والأشغال العامة والصحة العامة والجمارك والميناء البحري والجوي والسكرتارية والأوقاف والتركات والزراعة والشرطة المسلحة والتفتيش والكهرباء والتلفون والعسكرية والجوازات والبريد والتلغراف والقضاء والسجون والشرطة المدنية والنقل والورشة وغيره .. وكان يطلق اسم ناظر على كل مسئول لهذه الإدارة الحكومية.

30
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

منطقة لجرات..

حزام أخضر

يتوسط وادي دوعن الأيمن

رصد : يوسف عمر باسنبل

بعد أن ينهي الداخل إلى وادي دوعن الأيمن مروره بمنطقة بضه تنكشف له منطقة لجرات على جانبي الوادي الغربي والشرقي منتشرة قراها الثمان على حافتي الوادي ويفصل بينهما مجرى وادي دوعن وقارة بافنع التي تحتل موقعاً استراتيجياً في الوادي كونها تكشف الوادي وتستخدم كقلعة عسكرية بعد أن بنى عليها عبدالله بافنع مصنعة ثم خربت ويوجد على سفحها بعض الآثار لبيوت وآبار مياه قديمة وتقع منقطة لجرات في منتصف وادي دوعن و يحدها من جهة الشمال منطقة هدون ورحاب وجنوباً منطقة بضه جالسة بين جنبات وحيود وادي دوعن شرقاً وغرباً وتقدر مساحتها الوسيعة والمنفتحة بالنسبة لما يجاورها بـ(١٥٠م عرضا) وتتميز بكثرة أشجار السدر (العلب) وبها بعض المعالم الأثرية القديمة (حصون ومصانع) يتجاوز عمر بعضها ٥٠٠ عام.

التسمية والموقع

لايوجد تعريف محدد لاسم منطقة لجرات لكن البعض يقول إنها كانت تسمى (الجارات) لتجاور قراها ومع مرور الزمن تحور إلى (لجرات) ويقال إنه اسم جامع للقرى الموجودة فيها ومنهم من يرى أنها كلمة أبـاضية شـاملة مجمع الناس وعدد قراها يقال ٨ قرى ويقال سبع وهي (قرية الجبيل ومطروح وعرض باسويد وظاهر) في الجانب الغربي وأغيل بلخير وقويرة الخزب وحصن الجبوب وقرية خسوفر).

في المدخل الشمالي لمنطقة لجرات تقع قرية الجبيل في الجهة الغربية التي اشتهرت في كتب التاريخ بأن المهاجر أحمد بن عيسى نزل بها في القرن الرابع الهجري ومات له ولد هناك واشتهرت بأنها منطقة علم حيث كان للمشايخ من آل باقيس دور كبير وأنجبت العديد من رجال العلم وهي مسقط رأس الداعية عبدالله علي بصفر وسكنها عدة قبائل منهم الباقيس والبابحير والقثم وباجندوح وبصفر وبابشير وآل باعيسى والبافنع وباربيجة ولازال بعضهم يتواجد إلى اليوم وإلى الجهة الجنوبية منها توجد قرية مطروح ويفصل بينهما شعبة (ماناة)

الذي سمي باسم أحد الفقهاء من آل بابحير وسميت مطروح بهذا الاسم لأنها كانت مرسى للقوافل التجارية وسكنها الباجمال والعفيف والقثم وباجنيد والعمودي وباوادي والحدد وبانبيلة وتجاورها قريتا عرض باسويد وظاهرويسكن العرض قبيلة باسويد وهي قرية صغيرة وتعد جزءاً لا يتجزأ من مطروح وكانت تعتبر منطقة حكم للدولة القعيطية حيث كان الشيخ / عمر عبدالله باسويد عضواً في مجلس الدولة القعيطية وممثلاً لتجار دوعن وفيها دار آل عبدالله تلك الدار التي يأتي إليها من كل أنحاء حضرموت بما فيها المهرة من أجل صلح القبائل الحضرمية وقد اشتهرت هذه الدار أيام المجاعة حيث كانت ملاذاً غذائياً للعديد من سكان دوعن و زارت الدكتورة الألمانية الشهيرة إيفا هويك تلك الدار خلال رحلتها إلى شبام لتأسيس مستشفى شبام في الخمسينات.. ولها كتاب تحت عنوان طبيبة بين البدو (Doctor Amongst Bedouin) . قال مستر كورلي يا للروعة دكتورة ألمانية تكتب عن رحلتها في حضرموت، وعندما أعود إلى بريطانيا سوف أقرأ هذا الكتاب القيم. وأما ظاهر فيسكنها آل بابطين وبازرع .

وفي الجانب الشرقي تأتي خسوفر بضمتين فسكون وكسر الفاء خَسفَ , يخسِفُ , خَسفاً وخُسُوفاً .. عين الماء عندما يغور ماؤها وخسوف القمر وخسوف الأرض فقد تكون هذه المنطقة أو القرية نازلة عن مستوى بقية القرى التي حولها فجاء الخسوف في تسميتها وبها ال بغلف والباتياه والبامانع وباسنبل وبعدها حصن الجبوب وهي لقبيلة القثم (آل القثمي) وكلمة الحصن معروفة والجبوب من الجباية وهو جمع الشيء أو جبايته ومن ثم القارة التي كانت معروفة بقويرة الخزب ومن سكانها الباميلح والبامعوضة والباحمدين وآل باسنبل والبن حميد والباشماخ وقندوس.

وفي المدخل الشمالي لمنطقة لجرات من الجهة الشرقية تستقبل الزائر القادم على الخط الإسفلتي منطقة غيل بلخير وهي قرية صغيرة فيها عين قليلة الماء ولازالت إلى هذا اليوم تستخدم للشرب وفيها المشايخ من آل بلخير المنسوبة إليهم وغيلها) ومرجعهم في النسب إلى أبي الخير _ أحد ملوك بني عمرو بن معاوية _ وقد نجعوا من تريم إلى الغرفة وبها منهم بقايا ثم نجع هؤلاء إلى دوعن وسكنوا هذا الغيل الذي كان يشتهر بمياهه الوفيرة وأشجار النخيل والحناء وقد تميز ساكنوه من آل بلخير بالعلم واهتموا بالعلوم الدينية ونشر التعليم ويسكنها معهم آل باطرفي وبن ربيعة وخرج منها وزير الإعلام السعودي الشاعر الوزير عبدالله بن عمر بلخير .

السكان

يبلغ عدد سكان منطقة لجرات أكثر من ١٥٠٠ نسمة يشتغل معظمهم بالزراعة وعلى الأرجح أن كل سكان المنطقة لديهم أراض زراعية يهتمون بها وقلة قليلة يشتغلون بالتجارة بينما يشتغل بعض سكان منطقة الجبيل من آل بابريجة بعمل الأواني الفخارية المصنوعة من الطين مثل أكواب القهوة وقلل الماء والتنانير جمع تنور والبعض بمهنة النجارة من آل باطرفي والكثير من سكان المنطقة الأصليين غادروها في الهجرة الخارجية والداخلية إلى المملكة العربية السعودية وإلى مدينة المكلا وحل محلهم القادمون من مرتفعات وادي دوعن والسيطان .

الحركة العلمية في المنطقة

كان التعليم في المنطقة يعتمد على العُلم جمع عُلمة حيث كانت توجد عُلمة الشيخ / محمد أحمد باقيس وأخيه أبي بكر في قرية الجبيل وعُلمة الشيخ / عبدالله بن محمد بلخير في الغيل و عُلمة السيد صالح الحداد في بيته بمطروح ولكن التعليم النظامي بدأ في عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م في مدرسة العرض بعد بذل جهود من قبل آل باسويد خصوصاً وأن الشيخ / عمر عبدالله باسويد عضواً في مجلس الدولة القعيطية وكانت مدرسة حكومية فتحت أبوابها تحت إدارة اثنين من المدرسين أرسلتهما الحكومة ولكنها توقفت في يناير ١٩٥٥م بسبب تخوف الأهالي من أخذ الحكومة لأولادهم للتجنيد الإجباري .

وعام ١٩٦٢ تأسست مدرسة الأهلية بالجبيل بعد مساع من السادة / حسين بن أحمد الحسيني وإخوانه وكانت أول هيئة لها تتكون من العلامة علي بن محمد بن حفيظ مديراً ومدرساً ومعه عاشم علوي بن سميط ومن بعدهم جاء الشيخ علي بن سالم بكير عام ١٩٦٤ م والتحق بسلك التدريس الطالب / سالم عبدالله باجندوح (يرحمه الله) الذي واصل مرحلة التدريس حتى تقاعده حوالي عام ١٩٩٨م واكتمل بناؤها عام ١٩٦٦م وتحولت عام ١٩٧٩م إلى الإشراف الحكومي حتى عام ١٩٨٥م عندما تم بناء مدرسة جديدة في قرية مطروح وتحمل اليوم اسم المرحوم الشيخ / أحمد محمد بغلف وافتتحت رسمياً عام ١٩٨٦م ولاتزال قائمة إلى اليوم تستقبل الطلاب من مناطق لجرات المختلفة الكثير وجاء اختيار اسم الشيخ أحمد بغلف يرحمه الله بعد التنسيق مع الجهات المسؤولة في التربية نظير إسهامات الفقيد في كثير من مشاريع الخير في المنطقة وخارجها ومن بينها هذه المدرسة فكان من الأولى تسميتها باسم هذه القامة واليوم يوجد بالمنطقة عدد من مدارس تعليم القرآن الكريم في بعض القرى .

تعليم الفتاة

وكذا كان لتعليم البنات جانب آخر في المنطقة حيث كانت أشهر معلمة تعلم البنات القرآن (تلاوة وحفظاً وتجويداً) هي المربية الفاضلة (مسعد)من عام ١٩٦٦م - ١٩٧٠ م ثم جاءت بعدها أختها المربية (سعود) وقد قامتا بالتدريس في دار بابحير بالجبيل على نفقة الحسيني .

كثرة أشجار السدر والنخيل

تتميز منطقة لجرات بكثرة أشجار السدر (العلب) وذلك يعود إلى كبر مساحة المنطقة ووجودها على جانبي الوادي واتساع موقعها الجغرافي حيث يقدر عدد أشجار النخيل بأكثر من

٥٠٠٠٠ نخلة تمتد حيضان النخيل والأراضي الزراعية التابعة لها إلى ماقبل منطقة هدون شمالاً وبضه جنوباً حيث توجد أكثر من ١٠٠٠ شجرة علب ويطلق عليها لقب الحزام الأخضر.

المياه

تعتبر لجرات واحدة من أكثر مناطق دوعن توفراً للمياه حيث يوجد فيها غيل (نُمير) والبعض يسميه (لمير) وهو وادي فرعي بين مطروح وعرض باسويد يمتد صعوداً حتى الجول ، وهذا الوادي به أكثر من ٣٠ عيناً ماء عذب يتدفق من الجبال المحيطة إضافة إلى العيون الأرضية التي تتكون منها بحيرات صغيرة وشلالات ويوجد بالوادي ثلاثة سدود بناها بغلف وتعتبرمن أكبر سدود دوعن وبدأ العمل في مراحلها الأولى في العام ١٣٩٢هـ وهي ثلاثة سدود الأول طوله ٤٥٠ متراً وتحتل حوالي مسافة كيلو متر وفق عمل هندسي رائع والتي بناها الشيخ أحمد محمد بغلف وتقول الاستكشافات إن هذا الوادي يحتوي على مخزون مائي هائل جداً وأن هناك أنهاراً تحت الأرض جارية. هذا الوادي الصغير يفصل مطروح عن عرض باسويد، ويتبع منطقة الجبيل سدود تسمى سدود (الغمّاز) بينما يتبع في منطقة غيل بلخير شعب (المدهف) الذي يوجد به سد صغير بني على نفقة المرحوم الشيخ أحمد محمد بغلف.

من مشاهير منطقة لجرات

الشاعر الوزير عبدالله بن عمر بلخير:

ولد عام ١٣٣٣هجرية الموافق ١٩١٤م بقرية غيل بلخير وادي دوعن الأيمن وبعدها هاجر إلى المملكة العربية السعودية وقد كان مفكراً من الدرجة الأولى فلا تمر عليه المواقف مرور الكرام بل يتفحصها ويتمعنها ويتعايشها بحلوها ومرها يستخلص النتائج وينظم القصائد وقد بدأ حياته العملية بوزارة المالية مع الشيخ عبدالله السليمان ثم عمل بالشعبة السياسية

الوزير بلخير

الشيخ بغلف

بديوان الملك عبدالعزيز ثم رافق الملك عبدالعزيز في كثير من سفراته عند لقاء حكام العالم ومنهم تشرشل وروزفلت وتنصب بعدها رئيساً لمكتب الجامعة العربية والمؤتمرات الدولية بالديوان الملكي .وأصبح رئيساً لمكتب إمارة الرياض ثم عين مشرفاً على الشؤون السياسية للمكتب الخاص للملك سعود وقد اصطحبه كل من الملك سعود والملك فيصل عندما ذهبوا في رحلة للولايات المتحدة وعندما ذهب الملك فيصل لحضور مؤتمر باندونج الشهير بإندونيسيا عام ١٣٧٤ هـ الموافق ١٩٥٥م ولم تنشر وكالات الأنباء خبر وصوله للمؤتمر كباقي الوفود فاقترح الشيخ عبدالله على الملك سعود رحمه الله وطيب الله ثراه فكرة إنشاء جهاز إعلامي وبالفعل تم تكليفه بإنشاء المديرية العامة للإذاعة والصحافة إلى أن تحولت إلى وزارة إعلام حتى أصبح أول وزير إعلام في المملكة العربية السعودية ثم منح لقب وزير.

الشيخ أحمد محمد بغلف:

ولد في قرية خسوفر بوادي دوعن الأيمن في العام ١٣٤٨ هـ وكانت وفاته عام ١٤١١هـ يوم الحج الأعظم عن عمر ناهز ثلاثة وستين عاماً حيث عاش طفولته في قرية خسوفر وتتلمذ على يد الشيخ عبدالله بن محمد بلخير وهاجر بعدها إلى مكة المكرمة وقصد الحرم المكي وتتلمذ على أيدي كبار العلماء ثم اتجه لكسب الرزق وبدأ حياته العملية فأول عمل له عمل في أحد البيوت بمكة المكرمة بأربعة قروش يومياً فكان يدخر قرشين ويصرف القرشين الآخرين والى جانب العمل بمكة المكرمة قد اتخذ من الحرم الشريف ملاذاً للإيمان وعلم الروح فتتلمذ على يد أعظم العلماء ومنهم الشيخ إبراهيم الحلواني وترك الشيخ إبراهيم أثراً بالغاً في حياة الشيخ أحمد بغلف حيث لقنه علوم الدنيا والآخرة فامتلك بذلك علوم الدنيا والآخرة فكان ناجحاً في حياته الدنيا وناجحاً في طريقه إلى الآخرة وبدأ أولى خطواته في عالم الصرافة في مكة المكرمة كصراف متجول أمام أبواب الحرم المكي والمسعى ومنى وعرفات ومناسك الحج ثم تطور شيئاً فشيئاً لتصبح شركة صرافة ومؤسسة من أكبر المؤسسات المصرفية العالمية وارتبط ارتباطاً وثيقاً مع الماء وله قصص كثيرة في ذلك حتى احتل مكانة كبيرة في حياته ويقال إنه أقسم بالله أن يبني الخزانات ويستدرج الماء إلى كل بيت وحقل وإنسان ومشاريع المياه والخزانات شاهدة على ذلك اليوم في عموم مناطق اليمن ولم يقتصر على منطقته أو واديه وكان ينفق الأموال الكثيرة في سبيل الله وكان كريماً حتى رسم البعض له صورة مشابهة لصورة حاتم الطائي في كرمه ومآثره حيث يقال إن بغلف في الفترة الزمنية المبكرة لحياته كان يتقاضى راتباً بسيطاً وأحواله الاقتصادية بسيطة هي الأخرى ولكنه كان يوزع نصف راتبه ويتصدق به سراً وكان يلقب بـ(الظافر بالله) وعرف به طوال حياته.

المراجع
١) الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٥ م
٢) السقاف، عبدالرحمن بن عبيدالله، معجم بلدان حضرموت، مكتبة الارشاد، صنعاء، ٢٠٠٢ م
٣) بلحمدان، محمد سالم، التعليم الأهلي في دوعن، ٢٠٠٨.

الطرق القديمة في وادي دوعن
ماضٍ تليد وعطاء مجيد

صورة قديمة لعقبة الحبل

يُعدُّ وادي دوعن من أقدم الأودية التي سكنها الإنسان، وفيها بدأ نشاطه الحياتي، ملتصقاً بالأرض من خلال استصلاحها للزراعة وحفر الآبار لتوفير مياه الشرب والري، لينطلق الإنسان الدوعني الحضرمي في ذلك الزمن الغابر لرسم ملامح حياته في الوادي السحيق مطوعاً الظروف الطبيعية القهرية ومتغلباً عليها سعياً للاستقرار والعيش المشترك، ليستمر في دورة الحياة والتطور الإنساني مستغلاً كل الامكانات لتحسين بيئته الحياتية وظروفه المعيشية ليزداد التصاقاً وانتماء للأرض.

كتب : صالح عمر باحيدرة

الطرق شريان الحياة:

بعد استقرار الإنسان الحضرمي في واديه الخصيب والمامه بتفاصيله اتجه بتفكيره إلى البحث عن مواضع لتأمينه وتحصينه من الأعداء فكانت الحصون المنيعة، وانشغل بتوفير مياه الشرب وضمان استمرارها على مدار العام فكانت الآبار والكرفان لحفظ مياه السيول والأمطار، واهتم بشق طرق المواصلات الداخلية والخارجية التي تربط وادي دوعن بالأودية المجاورة كوادي العين و عمد وهي طرق قصيرة، مقارنة بالطرق التي تربط وادي دوعن بالساحل فهي بعيدة جداً بوصفها شريان الحياة والأساس للتطور المستمر.

الطرق القديمة:

يأخذ المسافرون وأصحاب القوافل (٤) أيام مشياً بجمالهم في الطريق وقد يستمر السفر إلى (٥) أيام، هذا قبل وصول المركبات والسيارات إلى مرتفعات الوادي (الجول)، وهناك طرق تربط أعلى الوادي الجول بأسفله، حيث يتم من خلالها الصعود إلى أعلى الجول أو النزول إلى أسفل الوادي عبر العقاب: (عقبة الحبل وعقبة الصدع) وتوجد بأعلى هذه العقاب بعض الحصون، وكان البدو (الجمّالة) هم الذين يتولون مهمة التواصل بين قرى دوعن إلى المكلا أو العكس .

أعلى عقبة الحبل

أول طريق سيارات:

وفي عام ١٩٤٠م تم فتح أول طريق للسيارات إلي دوعن، حيث تصل السيارات في ذلك الوقت إلي مرتفعات الوادي الجول ومن ثم يتم النزول أو الصعود عبر هذه العقاب السالف ذكرها، حتى تم افتتاح عقبة الجحي للسيارات في الخمسينيات من القرن الماضي ووصول السيارات إلي بطن الوادي عبرها وبها توقف نشاط عقبتي الحبل والصدع، ليتوالى – بعد ذلك تباعاً - افتتاح عقبة شتنة عام ١٩٦٤م، ومن ثم عقبة بضة عام ١٩٩٠م وأخيراً عقبة خيلة في العام ١٩٩٢م.

عقبة الجحي

الطرق هندسة الطبيعة بالطبيعة:

لقد استطاع الإنسان الحضرمي – وهو يحاول تطويع الطبيعة القاسية – أن يكيف هذه الطبيعة ويسخرها لمنافعه وتذليلها لتصبح أداة طيعة من أدوات عصره ونمائه وتطوره، وكانت محاولاته المستمرة لبناء وتعبيد الطرق جزءاً مهماً من قوانينه الخاصة التي نجح في جعلها دافعاً لتسيير حياته وتطويرها، والطرق بالأمس البعيد ومع عدم توافر الامكانات لتنشئتها وتعبيدها كانت تحدياً من تحديات حياة الحضرمي وهو يصارع الزمن والتاريخ ليرسو على بر الأمان في مشوار حياته اليومية، وتسجل قصة صناعته للطرق أكثر من دلالة وأعمق من قصة، فما نشاهده – اليوم – من بقايا تاريخية لهذه الطرق المكونة بجملتها من خامات الطبيعة والبيئة المحلية تظهر عبقرية الإنسان الحضرمي وتجذره وانتمائه العميق للأرض وترابها النبيل، فهذا الإصرار على هندسة الحجارة ومزجها بالتربة الندية ووشمها على الرقعة الجغرافية للوادي الخصيب وامتداده الوطني تؤكد مدى ما عاناه هذا الإنسان في حياته وصبره وجلده وتفانيه لخدمة وطنه وناسه، في عمل طوعي تطوعي صرف أسس لقواعد حياة ومعايير عيش مشترك أين نحن منها اليوم؟!

الطريق إلى دوعن:

لم يعد – اليوم – الوصول إلى دوعن صعباً، ولم يتطلب الأمر أياماً وليالي حتى تضع رحالك في بطن الوادي العسلي، فالبساط الأسود الممتد على طول الشريط الجبلي من المكلا نزولاً في عقبة (خيلة) يحتاج إلى عدة ساعات ليس إلا، ولكن لم تكن رحلة الطريق في وادي دوعن بسهلة، فهي تحكي قصصاً كثيرة عن هذا المارد الحضرمي الذي لم يقف طموحه عند حدود ولم تعجزه الظروف، فيستكين أو يستسلم، فكانت هذه الطرق القديمة معارك حياة تنوعت في الأساليب والأدوات والخطط والخطوط لتسجل هذه المآثر التاريخية التي نهيل عليها تراب الجحود والنكران ولم نعد نعطيها بعض العناية والاهتمام بوصفها ملمحاً أصيلاً من ملامح تلك الجباه السمر التي روت تراب الأرض الدوعنية خاصة والحضرمية عامة بعرقها النبيل وهي تصنع غدها الجميل وتؤسس لمستقبل أحفادها بالأمس واليوم والغد.

رجال في مواكب الأدب

الأستاذ محمد بن هاشم

جابت شهرته الآفاق وبلغت الشرقين الأقصى والأدنى، وخالف بعلمه و أدبه وفكره الذي نهل من أوعيته في حضرموت ونفع بها الإنسانية عند هجرته الأولى لإندونيسيا، فكان أستاذاً و أديباً و صحفياً ومترجماً ومعلماً و ناقداً أدبياً و سياسياً و خطيباً مفوهاً.

لقد تخرج في حضرموت المدرسة والمدنية والجامعة وتتلمذ تحت يديه المئات من الطلاب من مختلف الملل والنحل، واستفاد من أرائه الأدباء والمفكرون ورجال السياسة في ذلك العالم المتلاطم في عهد النهضة الحضرمية أيام الزعيم أبي بكر بن شيخ الكاف والعالم العارف السلطان صالح بن غالب القعيطي.

سند محمد بايعشوت

سأل الأستاذ محمد بن هاشم بعد مرور ثلاثة عقود من ممارسته العمل الصحفي في كبرى الصحافة الحضرمية المهاجرة في سنغافورة واندونيسيا وكبرى الصحافة العربية في القاهرة، وسأل سؤال المستقبل عقب إحلال السلام وهو عضو في لجنة أمان حضرموت بعد توقيع صلح انجرامس و كتب مقالاً في صحيفة الإخاء بتريم "كيف ستكون حضرموت بعد خمسين عاماً ؟ "وجاء السؤال بعد استتباب الأمن والدفع بعملية السلام ودوران عجلة التنمية في عهد جديد انتشر في رقعته المكانية والزمانية بناء المدارس والمستشفيات وتأسيس الجمعيات في مجتمع حضرموت المدني.

ومازال صدى السؤال طنانا وفضفاضاً في فضاءات عوالم متعددة في أزمنة متشابكة ومتقاطعة و مرت سنوات التيه الخمسين ومازالت حضرموت منتظرة في محطة عند مفترق الطرق ولا نريد الخوض في هذه العجالة بقدر الإسهاب في مواكبة الأستاذ ابن هاشم في الأدب والسياسة وبلاط الصحافة.

ترك الأستاذ في سنوات التيه وغبار الأزمنة الماضية المئات من المقالات الصحفية التي أصبحت مرجعاً وقاموساً لغوياً مدهشاً

فقد ترك الأستاذ في سنوات التيه وغبار الأزمنة الماضية المئات من المقالات الصحفية التي أصبحت مرجعاً وقاموساً لغوياً مدهشاً يحق لنا أن نفتخر بالإنتاج المعرفي الغزير في بنيته اللغوية والأدبية كثروة علمية لدارسي الصحافة على أصولها من شيوخها والأستاذ ابن هاشم أحد مشايخها في صفحات النقد الأدبي وفى الشعر والسياسة والتاريخ فله أسلوب في كل علم وفن في أسئلته المتجددة "إلى أين؟"و"حتى متى هذا الحال " و"الوطنية والحضارم" و"أجدام هزل" وغيره من المؤلفات ومنها توثيقه لرحلة تاريخية بالكلمة والصورة "رحلة إلى الثغرين " عند البدء في إنشاء طريق معبد بين الساحل و الوادي على نفقة الزعيم والرجل الحكيم أبي بكر بن شيخ الكاف.

وسبق ابن هاشم مجايليه من الأدباء والكتاب العرب حين استقر في مصر أيام طلعت حرب وشوقي والسنهوري فكتب في كبريات الصحافة المصرية وحاضر في نواديها وكانت كلماته ذات نسق في التشكيل الجمالي للغة بوصفها كائناً حياً فجاهر بفكرة اتحاد حضرموت ونشر وخاطب بالفكر والرأي في كل ما يتعلق بقضايا المشترك للعرب.

إن الحديث عن الأستاذ النابغة ابن هاشم مازال فعلاً مستمراً منذ وفاته عام ١٩٦٠م عن عمر ناهز ٧٧ عاماً فإن لكل فصل من فصول حياته كتاباً مستقلاً في حد ذاته فقد كان شاهداً على عصر النهضة الحضرمية بعد تلبيته لنداء العودة للوطن من مهجره الإندونيسي وإقامته العلمية والأدبية في القاهرة ليس للدراسة وإنما للتدريس وإعطاء دروس في الوطنية والتاريخ الحضرمي، لبى نداء الواجب وأصبح شاهداً على جميع التحولات التي جرت في المكلا والشحر وتريم وسيئون بدءاً من الدعوة لمؤتمر حضرمي جامع في عشرينيات القرن الماضي ينهي سنوات من العزلة بين الساحل والوادي وغيرها من الأحداث التي أصبحت في كتب التاريخ الحضرمي المعاصر فقد كان أيضاً أحد صناعها ومشاركاً فعالاً في أهم فصولها كونه أحد أعمدة النخبة الحضرمية في العلم والأدب والسياسة بل كان من رواد ومفجري النهضة الحضرمية ويقف في مسافة متساوية في الصفوف الأولى بجانب العلماء و الأدباء و رجال السياسة ورؤساء الحكومات الحضرمية المتعاقبة في زمن لم يعد لعقارب الساعة أي تراجع للوراء ونتساءل كما سأل إستادنا الكبير "إلى أين يا حضرموتنا المحبوبة يكبك كوكبك المنقض على غير هدى؟" وكفى!!.

الشيخ عبدالرحمن الملاحي

حول الشحر، وكورنيش ابن عتيق

كاتب المقال
برفقة الشيخ الملاحي

تأتي الذكرى كل عام ونذرف الدموع الحارة حين قدومها، التي لابدَّ لها من قدوم، رمضان له عند الجميع وقع خاص لكن هل تعلمون كيف كانت خصوصيَّة هذا الوقع عند أستاذنا الراحل الشيخ عبد الرحمن بن عبد الكريم الملاحي رحمه الله؟

في بداية عصر كل يوم في رمضان - غالباً - كنت أذهب إلى بيت أستاذنا الملاحي فأجده جالساً يدير حبيبات المسبحة بأصابع يده اليمنى يذكر الله تعالى بها، كنت عندما أقبل عليه يقول لي : هل تريدنا أن نخرج أو نتأخر قليلاً ؟ وكانت إجابتي الدائمة والنموذجيَّة هي كلمة " براحتك " فكان يحدِّد بنفسه بعدها وجهتنا هل نجلس أو نخرج ؟ .

عادل حاج باعكيم

طلب مني عصر ذات يوم من أيام رمضان سنة ١٤٣٢هـ أن آخذه وأتجوَّل به بدراجتي الناريَّة في أرجاء مدينتنا الحبيبة الشحر، بدأنا التحرُّك من بيته القديم بحري مسجد ابن عتيق متوجهين إلى بعض المواقع الأثريَّة في البلاد، مثل السدَّتين (العيدروس - الخور)، وحصن دار ناصر (ابن بريك)، وحصن ابن عياش، والجمرك، ودار البياني، ثم أمرني أن أعود أدراجي إلى منطقة الخور، وصلنا الخور فأشار إليَّ أن أتجه إلى الجانب البحري لقبَّة الشيخ العلامة فضل بن عبد الله بافضل رحمه الله، ثم أمرني بالعودة إلى البيت، همس في أذني قائلاً : أعبر مسيال وادي سمعون مروراً بالخيشة ثم شرقي مسجد ابن إسماعيل ثم بحري مقبرة ومسجد باهارون، لكن عندما وصلنا قبلة مسجد ابن عتيق أمرني بالوقوف فلم نذهب إلى البيت كما كان يريد ليجدِّد وضوءه .

هذه المعالم والأعلام التي مررنا بها، كان الشيخ - رحمه الله - منتشياً في الحديث عنها، كان يتلذذ حينها عندما كان يحدثني بتفاصيل أخبارها ودقائق المعلومات عنها وعن أصحابها، طوال الرحلة كنت مستمعاً وبشغف ولم ألفظ غير بعض الأسئلة ليزيد شيخي في التفرُّع وذكر تفاصيل التفاصيل، لكني كنت حينها لا أدري ما سبب هذه الحالة الرائعة عند أستاذنا في هذا اليوم، كان يقصُّ عليَّ تفاصيل تشييد تلك المعالم العامرة وسير حياة أولئك الأعلام وبالتفصيل الأقرب إلى المُمِلِّ لغيري ممن لا يهوى علم التاريخ .

أخيراً أخبرني شيخي عبد الرحمن بسبب هذه النشوة الغامرة فقال : اليوم اتصل بي أحد أصدقائي القدماء الأعزاء جداً فتذكَّرت الزيارة التي قمنا بها معاً في رمضان قبل عدَّة سنوات لمعالم وأضرحة أعلام مدينة الشحر، وأحببت اليوم أن نعيدها معاً .

دخلنا قبيل أذان المغرب - بساعة إلا ربع - كالعادة إلى مسجد ابن عتيق المنسوب للعلامة الشهيد أحمد بن العلامة عبدالله بن عبد الرحمن بلحاج بافضل رحمهم الله، وكانت العادة أن ندخل المسجد ثم نتَّجه إلى مكان الوضوء لنغسل أرجلنا وليجدِّد الوضوء من أراد، ثم نتوجَّه إلى الدُكَّة الخلفية للمسجد (شرقي المسجد) وكالعادة نجد هناك بعض كبار السن من أصدقاء أستاذنا عبد الرحمن - رحمه الله - على رأسهم العم الفاضل عبد الحبيب لرضي - أطال الله عمره -، نجلس وغالباً يكون مجلسي في الرقدة الثالثة من أعلا الدرج والمشايخ المسنين في أنحاء الدُكَّة وجنبي الباب، يتبادلون أطراف الحديث ويتناقشون فيما حدث من مستجدَّات في البلاد، قبيل المغرب بعشر دقائق يقوم الجميع ليتفرَّقوا على عادتهم إلى مواقع افطارهم المعتادة في ضاحية المسجد .

حينها ينظر أستاذنا إليَّ ويشير بعينيه قائلاً : هيَّا لنذهب إلى موقع افطارنا، ذلك الموقع هو دُكَّة المسجد البحريَّة الكبيرة، التي رُصِّصَ في أطرافها الدرابزين (أعمدة من الاسمنت تجعل حائلاً لمنع سقوط الأشخاص)، وهي ذات هواء بحري شرقي عليل ومنعش غالب أيام السنة، نأتي تلك الدُكة فنجدها قد فرشت بالحصير ونجد بعض من يعتاد الافطار هناك (من بشكة الشيخ عبد الرحمن) قد قرَّب التمر والقهوة وبعض المقليات إن وجد .

يعتاد أستاذنا الملاحي في بعض الأيام أن يجلب بعض مكونات الافطار من بيته مثل : السامبوسة والباقية والمندازي وغيره ممَّا يعتاد الحضارم صنعه في رمضان في أغلب بيوتهم، وأحياناً يأمرني بالذهاب إلى السوق لأشتري بعض كريَّات الغمصة (لقمة القاضي) - الأكلة الشعبية المعروفة - ورطب (التمر من أمُه) كما نسمِّه، وذلك ليقدِّمه لجلَّاسه في تلك الدُكَّة " الشريحة البريحة " كما يقول شيخنا - رحمه الله - ، وهذه الدُكَّة الوافر حظُّها كان يطلق عليها الأستاذ عبد الرحمن الملاحي أسم " كورنيش ابن عتيق " تيمناً بكورنيش المكلا الذي تحتوي أطرافه على نفس نوع الدرابزين المشار إليه سابقاً في مكونات تلك الدُكَّة العامرة حينها .

سيمر هذا العزيز رمضان وتمر تلك الذكرى الغالية والتي إذا جالت بالخاطر لا أعلم كيف تتحسَّس العينان، ومباشرة من غير أيَّ إنذار سابق تذرفان الدمع شوقاً للأحبَّة الذين كانوا معنا في أيام وليالي هذا الشهر الفضيل في السنوات الماضية، الآن - وأنا أكتب هذا المقال - أتذكر أبي ذلك الرجل الرائع العجيب المتوفى بتاريخ ١٥/ ١٠/ ٢٠١٢م، وأتذكر أيضاً بعض مشايخي الأعزَّاء على رأسهم - من سطرنا هذه المقالة للحديث عن بعض ذكرياته في رمضان - الشيخ المؤرخ الراحل عبدالرحمن الملاحي المتوفى بتاريخ ٢ نوفمبر ٢٠١٣م، كما أتذكر شيخي العلامة القاضي سعيد بن محمد برعيَّة المتوفى بغيل باوزير في السابع من يناير ٢٠١٣م، وشيخي العالم الشهيد عبدالله بن محمد بن إسماعيل المستشهد بضحى يوم الجمعة ٢٩ رجب سنة ١٤٣٢هـ وشيخي الفاضل الأديب الفنان سعيد بن محمد بامطرف المتوفى في الأول من أغسطس ٢٠١٥م وغيرهم ممن كانت لهم بصمات في حياتنا رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

36
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

فضيلة الخطيب السلام عليكم

الوتر السادس

د. عبدالقادر علي باعيسى

أن يكون منطلق الخطيب في خطبته جوهرياً نابعاً من ذاته وإيمانه شيء، وأن يكون منطلقه وظيفياً يؤدي من خلاله وظيفة تقنية ترسم له من خارجه بحيث ينفعل ويتفاعل في إطارها دون أن ينطلق من ذاته، ومن ثم تأتي خطبته جزءاً من مصفوفة أو منظومة شمولية هو الإطار الخارجي لها أو الناطق الرسمي فقط، شيء آخر. هو خطيب غائب إذن، وإن بدا حاضراً شكلياً، يرتبط بنسق أكبر منه يسيطر عليه ويوجهه، وكثيراً ما نرى أن الخطبة أكبر من الخطيب سناً وعقلاً وتجربة، بل أكبر منه نفوذاً!! هي الحاضرة وهو الغائب، وهو مرتب وفق مستوى من المستويات إذ تقل عنه درجات من الخطباء وتعلوه درجات أخرى في المصفوفة نفسها ارتقاء إلى المرجعية الأخيرة المسيطرة على الأمر كله والموجهة لفكر الدولة أو الجماعة أو الاتجاه أو التنظيم أو الحزب.. إلخ.

ودائما ما يتم طلاء الخطبة أياً كان اتجاهها بروح أخلاقية يمكن أن يتحدث فيها أي أحد، أشبه بالأصول الكلية التي يتفق عليها الإنسان في إنسانيته من قيم العدل والفضيلة والوطن والحق والخير والأمور النافعة.. تساق في إطار كوكبة من الاستشهادات الممتازة الواقعة في إطار المنطقة القيمية المتحدث فيها، وأول ما يوحي به الخطيب أنه صادق فيما يقول، يعرف الحقيقة معرفة دقيقة، بل يمتلكها، وأنه سيحل عدداً من المشكلات في علاقة تبدو غير منطقية بين لغته ومبادئ موضوعه وإشكالاته، ليجد المستمعون أنفسهم بعد سماع خطبته بل مئات الخطب قبلها في إطار المشكلات الكبيرة الكثيرة التي تزداد تفاقماً. فلم يظهر تبشير الخطب السريع بحل بعض الأزمات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية؟.. قليلاً من الترشيد إذن في الوعود الجميلة، ولنكن واقعيين في معالجة قضايانا وأمورنا.

ونحن -المستمعين- نمر بحالة ربما لا يشعر بها الخطباء، هي فحصهم والمقارنة بينهم على اختلاف اتجاهاتهم تعطينا تصوراً عنهم أكثر مما تعطينا تصوراً عن موضوعات خطبهم، وقد نختلف فيهم قبل أن نختلف في الموضوعات التي يسوقونها إلينا، نفحصهم أولاً، ونلاحظ سلوكاتهم، فلا يمكن أخذ أحدهم خطيباً فقط، أو خطيباً وظيفياً فقط، بل هو خطيب ورجل في المجتمع، أو موظف لدى الدولة أو في القطاع الخاص، أو صاحب بقالة تجارية، أو صاحب جمعية خيرية، أو غير ذلك، وله علاقاته المعروفة مع الناس سلباً وإيجاباً بحيث يتحدد جدوى ما يطرح من خلال هذه التوصيفات ومدى صدقه ونشاطه وإخلاصه العملي فيها، بوصفها منطلقات عملية يقرأ من خلالها الخطيب قبل أن تقرأ خطبته، ولا يجديه نفعاً بعد ذلك أي ملامح مظهرية ترسم بها، ولا أي بلاغة قديمة أو وسيطة ملأ بها شدقيه.

دائماً ما يتم طلاء الخطبة أياً كان اتجاهها بروح أخلاقية يمكن أن يتحدث فيها أي أحد

وفي إطار ملاحظات المستمعين يلاحظ أن حالات بعض الخطباء تتغير وفقاً ومتغيرات المراحل والمصالح إذ لا علاقة وطيدة تبدو في ما بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين قيمهم، فالنجاح بالنسبة إليهم اغتنام المرحلة، والخروج منها بحصيلة أكبر، قبل أن تأتي ظروف ومتغيرات جديدة يتغير من خلالها خطابهم قليلاً أو كثيراً، وبعد ذلك يريدون منا أن نثق في خطابهم، وأن نتأول الخير لصالحهم، فيما لم يتأولوه لنا، رامين شرائح المجتمع بشتى الأوصاف حسب تغيرات المراحل.

ربما كان مثل هؤلاء الخطباء بحاجة لأن يتفقهوا في أدب العلاقة بين الخطيب والجمهور قبل أن تبدأ ألسنتهم أول كلماتها بل أول خطواتها في المرور على رؤوس المستمعين المطأطئ الرؤوس تحتهم بغلظة وجفاء، وكما يحلو لهم.

مدينة بلا صحف

د.سعيد الجريري

(١)

لست أدري ما الذي سيقوله قراء التاريخ بعد ٥٠ عاماً مثلاً، عن مدينة كالمكلا، وهي تفيق وتصحو منذ زمن على فراغ صحفي مميت، وأعني هنا خلوها من صحافة ورقية حقيقية، وهي التي أرهصت بريادة صحفية حديثة مبكرة في منتصف القرن الماضي!.

لعل قارئاً (سفرياً) سيقول إن حضرموت قد غادرت الصحافة الورقية مبكراً إلى الصحافة الإلكترونية، وهذا من علامات التماهي في الثورة التكنولوجية، والتسابق على ريادة فضائية ليست بغريبة على أقوام كانت لهم صولات وجولات في مشارق الأرض ومغاربها.

ولعل قارئاً آخر شبيها بالأول يتساءل: وهل للصحافة الورقية أهمية حتى نُعنى بتحقيق هذا الأمر؟ لكن سؤال الصحافة الورقية، بعيداً عن قول ذلك القارئ (السفري) وتساؤل شبيهه الآخر، يمثل أهمية لنا نحن الآن، والآن تحديداً، قبل أن يتولى أمر لحظتنا التاريخُ والمؤرخون.

(٢)

لن أخوض في تفاصيل كثيرة، لكني سأقف أولاً إزاء رعب عنوان هذا المقال "مدينة بلا صحف"، فمثلما كتب الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي "مدينة بلا قلب"، ليدخلنا مدار الرعب الشعري، فإن مدينة بلا صحف، هي مدينة خاوية، بلا رأي، بلا موقف، وبالتالي بلا كهرباء، وبلا ماء، وبلا عمل، وبلا خارطة طريق واضحة تجاه يومها التالي.

لست من هواة استدراف الدموع على الأطلال، بقدر احتفائي باللحظة الراهنة المفتوحة على وسعها على الغد، بلا إسراف في الأوهام وأحلام اليقظة؛ ولذلك فإن من أولويات اللحظة أن يكون في حضرموت مؤسسات صحفية وإعلامية ينهض بها مختصون ذوو رؤى فكرية حديثة تعمل على تسريع خُطاها باتجاه المستقبل، ذلك أن متغيرات اللحظة الراهنة في سياق ما عرف بالربيع العربي، طوى السجّاد ليبدو ما تحته مما يقذي العين والقلب والفكر معاً، الأمر الذي يضع كل ذي رأي وفكر حر أمام مسؤولية تاريخية ليس بالمعنى السياسي المتداول، وإنما بالمعنى الإنساني أولاً والأخلاقي ثانياً، لأن المآلات والمصائر سيكون وخيمة إن لم يكن هناك فكر موازٍ لموجة التزييف المتعوب عليه، والمخطط له، والمموّل بطريقة ممنهجة.

(٣)

خلو حضرموت من الصحف، وأعني الصحف المحترمة ذات المهنية الحقيقية، يعني في ما يعنيه، تعطيل الطاقات الفكرية والثقافية، وإقصاءها عن أداء دورها في تطوير الوعي والتنوير، تراكمياً وبنيوياً، وهو ما يتيح المجال للتشظيات المتعددة التي تقيم جزر متناثرة متنافرة، تبدد الإمكانيات والطاقات، وتُلحق ذوي الأفكار والرؤى بذوي الأيديولوجيات التي ليس في وارد تصوراتها تشكيل رأي عام، أو وعي عام، بقدرما تهدف إلى تدجين المتلقي، وتمكين ثقافة القطيع، صغيراً كان ذلك القطيع أم كبيراً.

وفي لحظة كهذه، اهتزت فيها قناعات، وأعيد فيها النظر في مسلّمات، لم تكن قبل ذلك موضوعاً لجدل جاد، فإن إدارة حوار فكري وثقافي ناضج كان من المنطقي والطبيعي أن تكون صفحات الصحف ساحة حرة له، لكن في ظل الفراغ القاتل، فإن الحوار سيبحث له عن متنفسات في الفضاء الافتراضي - وهو محدود بطبيعة الحال على عكس انفساح الفضاء - وبالمقابل فإن تمترساً فكرياً وتخندقاً يتشكلان على النقيض من الحالة الحوارية، لتتجلى الحالة الصدامية التي تذكيها فاعلية التلقي السماعي المهيمنة التي تنمّط الأفراد والجماعات، وتؤطّر الأفكار، وتشيطن الرؤى، وتبدد أي إمكانية للالتقاء في نقطة وسط تتوازى فيها الأفكار أو تتقاطع، وفق آليات احترام الرأي والرأي الآخر، والقبول بالتعدد والتنوع والاختلاف.

(٤)

"مدينة بلا صحف" توصيف لأي شيء آخر إلا أن يكون مدينة، فمتى تُعلي المدينة صحافتها، ومتى تنير الصحافة مدينتها ومدنيتها الغائبة أو المغيّبة، لنغادر لحظة التعلّق بالماضي باعتبارها اليوتوبيا المقدّسة، لأن ذلك التعلّق عدمي يوهم بأن الماضي هو المثال الذي ينبغي ترسّمه وتشكيل المستقبل على صورة ظله أو صداه!.

ثمة تفاصيل في هذا السياق تومئ إليّ بالكتابة عنها هنا، لكني سأرجئها إلى وقت لاحق، مكتفياً بإشارة أرى لها أهمية الآن، تتمثل في أن ما حدث من خلخلة شاملة في ما كان يبدو كالبنى الثابتة، أفرز حالة استعادية تعبر عن هيمنة الماضوية، أو "السلفية" الاجتماعية والفكرية والسياسية، التي تدور حول ذاتها بانغلاقية لا تفضي إلى أفق منتم إلى العصر وتحولاته الكبرى التي هي التعبير الرمزي زمن الإنسان من حيث هو، بعيداً عن أقماط الجنس والدين والعرق واللغة والجغرافيا.

"مدينة بلا صحف" توصيف للمكلا، ينبغي أن ينزوي إلى الأبد، ولن ينزوي إلا بوعي حقيقي بدور الصحافة – وأعني الورقية تحديداً – في تشكيل الوعي المدني والإنساني والجمالي الذي له الأولوية في صناعة المجتمع الحديث النابذ لأي شكل من أشكال التطرف والإرهاب الفكري والأيديولوجي أيا كان مصدره، وأياً كان انتماؤه واتجاهه وتياره.

38
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

تأمّلات في لغة القرآن

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يوسف:٨٤

النّور ثلاث درجات من الظلام الفرح ثلاث درجات من الحزن

أحمد عبيدون

(١)

يثير التّأمّل في هذه الآية ترابطات مختلفة من الدلالات بين الأسود والأبيض، والداخل والخارج، والذات والآخر، في مؤثرات جمالية متبادلة، لعل المثير الأساس فيها هو هذا التجانس (أسفى - يوسف) الذي تبدو وظيفته الجمالية في هذا السياق من الحزن والفقد ليوسف، في شحن كلمة (يوسف) بالأسف بحيث يبدو لنا الحزن مضاعفا مرتين، والأسف أسفين معا، وكأن كلمة (يوسف) هنا مشتقة من الأسف والحزن لا من أي شيء آخر في هذا السياق. هذا الأسف يبدو هنا ذا لون أسود ولو معنويا، فالحزين عابس ومهموم يرى الأشياء سوداء، وهو ما يقابله سواد العين - مصدر الرؤية - الذي يتحول إلى بياض (وابيضت عيناه) وهو بياض في الظاهر والخارج، لكنه سواد مضاعف في الباطن والداخل، وهو الأمر الذي تجلّى شكليا في تشكيلين مختلفين من الأداء، بدا معه الأسف الداخلي أسود في حكاية قول النبي يعقوب (قال يا أسفى)، أما التمظهر الخارجي للون الأبيض فهو في لغة السرد، يبدو البياض واضحا للناظر من الخارج (وابيضت) في حين أنه في شخص النبي يعقوب أسود سوادا مضاعفا، ثم نصل للدرجة الثالثة من السواد (وهو كظيم) وهو تعبير يختزن الحزن والغيظ معا.

(٢)

ماذا يعني السواد المتدرج ثلاث مرات هنا؟ الأسف، واختفاء سواد العين، وكظم الحزن والغيظ: ١- قال يا أسفى على يوسف.

٢- وابيضت عيناه من الحزن ٣-فهو كظيم إنه يعنى الظلام المقابل للنور، أو العمى المقابل للإبصار، وهي الحالة التي تملأ نبي الله يعقوب منذ افتقد يوسف؛ إذ لم تجفّ عيناه كما يقول الزمخشري من وقت فراقه إلى حين لقائه ثمانين عاما، هذا الحزن، هذا الدّمع، هذا الماء ظل ينسكب مدرارا حتى مسح سواد العين فصارت بيضاء للناظرين، وهو ماء يدعونا إلى أن نرى هذه الظلمات الثلاث في بحر عينيه كأنها بحر لجي في ظلام دامس إذا أخرج يده لم يكد يراها! إنها ظلمات ثلاث تناسب الظلمات الثلاث التي مر بها يوسف: ظلمة الجب وهي سوداء، وظلمة البيت عند امرأة العزيز وهي بيضاء في الظاهر لكنها كانت سوداء عليه، وظلمة السجن وهي سوداء!

(٣)

إذا كانت المدة التي قضاها وهو يبكي هي ثمانين سنة، فهو إذن في المرحلة الثالثة من عمر الإنسان التي يبدأ فيها طفلا ضعيفا، ثم يصبح رجلا قويا، ثم يعود من جديد إلى مرحلة الضعف التي يصبح فيها أشبه بالطفل؛ إذ يضاف إلى الضعف الشيبة فهو في حالة يحتاج فيها إلى الآخرين لمساعدته كما يحتاج الطفل، فكيف إذا عرفنا أنه لا يكف عن البكاء طوال هذه المدة، وإذا عرفنا أنه أعمى لا يرى، فهو إذن في أشد حالات الإنسان حاجة للآخرين، إنه طفل في ظلمات مختلفة أيضا: ظلمة العجز والشيبة، وظلمة البكاء المستمر الذي أعمى عينيه بسبب الحزن، وأخيرا ظلمة العمى وفقد البصر، لكن هذه الظلمات الثلاث أيضا لم تصل إلى مرحلة اليأس، بل على العكس هي تتراكم في انتظار نور الأمل في أية لحظة، النور الذي يجعل هذا الطفل الكبير يولد من رحم الحزن من جديد، وهو الأمر الذي تفسره الظلمات الثلاث في بطن الأم، فكأنه يتخلق في بطن الحزن خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث.

هذه الظلمات الثلاث أيضاً لم تصل إلى مرحلة اليأس، بل على العكس هي تتراكم في انتظار نور الأمل في أية لحظة

(٤)

علينا أن نستحضر العناصر كلها للتشابه الحميم بين يعقوب ويوسف في المحنة، فقد رمى إخوة يوسف به في الجب عاريا، ونزعوا عنه قميصه ليلطخوه بدم الذئب، وعنصر الدمع، وعنصر الماء في الجب، والظلمات الثلاث، كل ذلك مهم لكي يكون الخروج من هذه الظلمات ومن هذه الطفولة العاجزة والكهولة العاجزة والعارية أيضا مرتبطا بولادة جديدة في النور يكون القميص هو سببها يكسو هذا الطفل الكبير بالنور. واللطيف أن الأمر في الشفاء من الظلمات يكون على جانبين: داخلي وخارجي، أما الداخلي فيتعلق بشم ريح يوسف، هذه الرائحة التي تدخل إلى الداخل مع الهواء عن طريق الأنف إلى القلب، وأما الخارجي فهو القميص الذي يرتد معه بصيرا، هناك (القميص والعين)، وهناك (الرائحة والقلب)، الأول متعلق (بالقميص والبشير)، والثاني متعلق (بالرائحة ويوسف)، وهو أمر نجد تجلّيه الجمالي في كلمتين الأولى متعلقة بيوسف وهي (يأت بصيرا)، والثانية متعلقة بالبشير وهي (يرتد بصيرا)، مما يجعل الشفاء للقلب من الحزن لا للعين حسب، كما أنه فارق بين الفعل في (كله)، والفعل في (جزئه) فالإتيان رجوع يماهي بين حركة رجوع البصر وحركة رجوع يعقوب نفسه ليوسف كما يوحده التكرر الملازم (يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين)، أما الارتداد فهو يشير إلى جزء العين والطرف، الأمر الذي يتضح في آيات أخرى في لفظ الارتداد مثل: (لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء)، و(قبل أن يرتد إليك طرفك). هكذا يزداد نبي الله يعقوب ظلاما ليزداد نورا ويزداد ويزداد؛ ليولد من جديد شمسا وزوجه قمرا في نظام من أحد عشر كوكبا تدور في فلك إنساني جمالي حول نبي الله يوسف.

بين زمنين

حصاد بعد زاد

أ.د. ناجي جعفر الكثيري

تنهض الأمم بالعمل المخلص وبمكارم الأخلاق وبالصلاح في القول والعمل، وتسمو كلما اقترن كل ذلك بالوعي المنير وبالقدرة على الثبات عند التغيير، ولله الحمد للحضارمة سابق عهد قديم وجديد بكل تلك الخصال، إذ استقام حالهم في حلهم وترحالهم، وأسسوا بتأثير تلك الخصال مداميك حضارة متمدنة زاخرة بالنواميس والقيم والقوانين الحياتية المبهرة، وهم من الأمم الحضارية التي استمدت وقوداً ديناميكية مسارها النهضوي العملاق الصاعد دوماً من دينها الحنيف ومن تراثها الدفين، حتى تعاظم أمرها بين الأمم، وشاع أخبارها في الآفاق.

وعن حاضرنا هذا، بات حال الحضارمة أكثر حاجة لنور مجدهم التليد، ولمراجعة العظة والعبرة والحكمة، وتأمل عظمة الحدث في الزمان والمكان، والوقوف مع الذات ومع الفعل النافع، لعل مافي الجعبة مايشبع فناء الشغف المتراكم في القلوب، ويشجي شجن الهواجس بنفحة من نسيم ذكريات سادت مفخرة لبلاد حضرموت، تكاد اليوم تسكن النوايا الجادة والأفكار الجيدة، والتي تهفو مهرولة صوب ميلاد حدث واعد وأمر عظيم.

نعم ... إنه البنيان المؤسسي لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر حينما تخطو به الأماني نحو جادة الصواب، وعلى هدى الاستقامة وحب الأمانة وتصويب مصادر المعرفة وتهذيب السبل وتحري النقل بالتحقيق والتوثيق، وقد صار واقعاً متفرداً، وجد يافعاً مقداماً ليبقى مناراً وضاءً ينير السبيل إلى الزمان البعيد والقريب، متعقباً صولات وجولات الحضارمة بموطنهم الأم وبمواطنهم

حضرموت وطن تميز بتنوعه الاثنوغرافي وبتنوع خصائصه الانثربولوجية وبوحدة الجغرافيا وبتعاضد مجتمعاته المستقرة والمتنقلة من الحضر والبدو

بالمهجر، إنه الوفاء من أهلها إليها إعادة إنتاج ذاكرتها التاريخية والحضارية، وتزويقه في قوالب من الدراسات والأبحاث، تكون بمنزلة بريق من نور ينتفع به حقل العلم والمعرفة، ونرفع بها هامة حضرموت عبر التاريخ، وحتى نسجل للحضارمة مقاماً حضارياً بين الأمم، ونخط رسماً لحضرموت على هذه البسيطة، يحكي أخبار عرب الأحقاف منذ ماقبل ميلاد المسيح عليه السلام وحتى عهدنا المنظور هذا مروراً بتاريخها الإسلامي المزدهر.

إرادةً مشرقةً، بدت مشروع فكرة ثم اختمر فحواها المفيد وتصلب عودها اليانع، تلقفها لفيف البأس، هم كوادر صفوة الناس، بمعية رجل من خيرة الناس الكرام، وأصار ما صار)، فإذا بالنبت الأخضر أكثر اخضراراً، وتربع النور فوق الغصون، وسكن الظل تحت الشجر، وتدفق النبع بين المروج

في خزين التاريخ الحضرمي أطنانٌ من الشواهد التراثية العظيمة ومن روائع المجد الأصيل الغابر

يرقص فوق الزهر، وهمس النسيم لحن رذاذ المطر.

ماتحقق نتاج إرادة، بعد التزود بزاد العزيمة والتعاضد بعد زاد التقوى، فقد حصل الحصاد المثمر، وبات مركز حضرموت كالشجرة الباسقة الموعودة بالخير الوافر، ففي خزين التاريخ الحضرمي أطنانٌ من الشواهد التراثية العظيمة ومن روائع المجد الأصيل الغابر، حضرموت وطن تميز بتنوعه الاثنوغرافي وبتنوع خصائصه الانثربولوجية وبوحدة الجغرافيا وبتعاضد مجتمعاته المستقرة والمتنقلة من الحضر والبدو، إنه موطن الأثر الأصيل والعبق العطر الجميل. ينتظر من يرفع عنه نقاب الزمن.

40
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

تجربتي في الترجمة

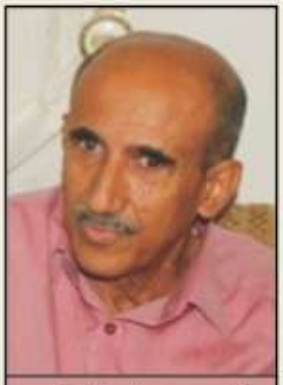

نجيب سعيد باوزير

لما كنت مترجمًا بمحض الهواية والممارسة وليس من خلال تدريب منهجي منتظم، فقد فضلت أن أتحدث في هذا المحور الموسوم بـ(آليات ضمان دقة الترجمة) من واقع تجربتي الشخصية وليس من خلال العودة إلى المراجع والكتب التي تبحث في موضوع الترجمة بالرغم من أن في مكتبتي بعضاً طيباً منها باللغتين العربية والإنجليزية.

كما إنني أعطيت نفسي حرية تفسير عنوان هذا المحور، فبدلًا من دقة الترجمة يمكن أن نقول صحة أو جودة الترجمة، وبدلاً من كلمة آليات أو بالإضافة إليها يمكن أن نقول العوامل المساعدة على صحة وجودة الترجمة.

أولاً: حب اللغة: فأنا أرى أن أول هذه العوامل هو حب اللغة؛ لأن حب الشيء مدخل إلى إتقانه أو يمكن أن نستعمل كلمة عشق، ويجب أن يشمل هذا العشق اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها. وأن تكون مترجمًا تعني في طياتها بالضرورة أن تكون مترجمًا جيدًا. فإذا أمكن أن يكون هناك أدب متوسط أو حتى أدب رديء فلا يمكن أن تكون هناك إلا ترجمة صحيحة وجيدة، لأن الأديب حر فيما ينتج ومسؤول عن نفسه أما المترجم فيتحمل مسؤولية وأمانة نقل إنتاج الآخرين. ولا يعني هذا أن الترجمة الجيدة تخلو تمامًا من العيوب، ولكن ما نقصده أن هذه العيوب إن وجدت لا تخدش الصورة العامة للحد الأدنى من الجودة والدقة الذي يجب أن تكون عليه الترجمة. هذا هو ما يجب أن يكون عليه الحال، ولكن المتتبع كثيراً ما يقع على ترجمات صادرة في بعض البلاد العربية - بصرف النظر عن وجود عجمة أو عدم وجودها في الأسلوب - تفتقر إلى تحري الدقة والصحة في ترجمة بعض العبارات والألفاظ، وهذا ما يجعلنا نضع من بين الآليات والعوامل المساعدة على صحة وجودة الترجمة أن تكون هناك ضوابط وقوانين تحمي المؤلفين من أن تشوه مؤلفاتهم ويساء إليها وتحمي القراء أيضًا من أن تقدم لهم بضاعة دون المستوى.

ثانياً: الثقافة: يجب أن يكون لدى المترجم خلفية ثقافية مناسبة ولا يعني هذا بالطبع أن يكون مثقفاً بثقافة عميقة تلم بكل شاردة وواردة، ولكن يكفي أن يكون على قدر من المعاشرة للكتب والمؤلفين ومن تعدد الاهتمامات وأن تكون عنده موهبة القدرة على الوصول إلى المعلومة في مظانها الصحيحة، وأن تكون لديه مكتبة جيدة تسعفه بما يجعله يثري ترجمته. فلا شك أن على المترجم الجاد أن يعود إلى كثير من الكتب المتصلة بالمادة التي يترجمها. وقد خطر لي أن أدون أسماء الكتب التي رجعت إليها عندما ترجمت كتاب هارولد إنجرامز (اليمن أمتها وحكامها وثوراتها) وهو

أول كتاب مترجم يصدر لي وكان ذلك في عام ٢٠٠٧م فوجدت أنها بلغت خمسة وعشرين كتابًا عدا القرآن الكريم. ومن بين هذه الكتب: (الكتاب المقدس)، و(فلسفة الثورة) لعبدالناصر و(سنوات الغليان) لحسنين هيكل و(زعماء الإصلاح في العصر الحديث) لأحمد أمين و(التاريخ العسكري لليمن) لسلطان ناجي و(لمحات من تاريخ العالم) لجواهر لال نهرو. كما خدمتني الظروف فمكنتني من الاتصال ببعض الشخصيات الإنجليزية التي عاصرت وعايشت الأحداث التي يعالجها الكتاب فأمدتني بكتابات ووثائق فكت لي مغاليق بعض الإشارات التي لم أكن لأتمكن من فهمها دون الاطلاع على تلك الوثائق. وهذا مما يؤكد أن الترجمة ليست بالسهولة التي يتصورها البعض وأنه كلما تمكن المترجم من إعطائها حقها ومن الخوض في أبعادها المتشعبة كان أقرب للوصول إلى الغاية التي هي موضوع هذا المحور: الدقة والصحة والجودة.

ثالثاً: كتب اللغة الإنجليزية: منذ وقت مبكر تعرفت على آلية ساعدتني في ممارسة الترجمة بنوع من الثقة وهذه الآلية هي الاستعانة بنوع من الكتب المعجمية التي هي ليست قواميس اعتيادية وإنما هي شبيهة إلى حد ما بنوع من التأليف عرفه أجدادنا العرب في ما سمي بفقه اللغة أو كما في بعض المؤلفات اللغوية لإبراهيم اليازجي من المحدثين مع الاختلاف في أن الباحث عن كلمة معينة يدخله كما يدخل أي قاموس ولكن لا ليبحث عن معنى الكلمة بل عما أسميه ظلال المعنى فيجد هناك العديد من الكلمات يمكنه أن يختار منها ما يهديه حسه وذوقه اللغوي إلى أنها هي الكلمة المناسبة للسياق. ويسمى هذا النوع من التأليف المعجمي في الإنجليزية thesaurus وأضرب مثالًا على هذه الآلية بكلمة tell التي أول ما يتبادر إلى الذهن من مدلولها هو الفعل أخبر، ولكن في أحد السياقات من كتاب (أيامي في الجزيرة العربية) لدورين إنجرامز لم أستسغ استعمال هذا المعنى فرجعت إلى أحد هذه الكتب التي أشرت إليها فوجدت أن من ظلال معنى كلمة tell معنى النصح الذي وجدته مناسبًا للسياق فاستعملته.

وهناك نوع آخر عجيب من التأليف المعجمي يجمع فيه المصنف الأقوال والعبارات السائرة أو المشهورة في التراث الثقافي العالمي مع التركيز بطبيعة الحال على التراث الإنجليزي. ويسمى هذا النوع في الإنجليزية Dictionary of Quotations أي معجم الاقتباسات. وقد وجدت هذا المعجم مفيداً لي في الترجمة في بعض الحالات القليلة. وأضرب هنا مثالًا واحداً: فقد وجدت في كتاب دورين إنجرامز السالف ذكره

عبارة وردت في وصف أحد الأشخاص من ذوي المناصب المهمة في السلطنة القعيطية ووجدت المؤلفة وضعت هذه العبارة بين فاصلتين مما يعني أنها عبارة مقتبسة من مكان ما، ولكن دورين وزوجها هارولد دأبا على أنهما عندما يقتبسان لا يشيران إلى مصدر الاقتباس، وتقول العبارة بالإنجليزية: smile and smile and be a villain . ولم يكن أمامي إلا أن أجرب البحث عنها في معجم الاقتباسات في حرف s فوجدتها فعلًا وعرفت أنها مأخوذة من مسرحية (هملت) لشيكسبير ولكنني ابتعدت عن مسؤولية ترجمتها بنفسي واستعملت ترجمة الأديب جبرا إبراهيم جبرا مترجم بعض مسرحيات شيكسبير ومن بينها (هملت) الذي كانت ترجمته للعبارة هكذا: يهش ويبش وهو نذل.

رابعاً: ترجمة الاقتباسات ذات الأصل العربي:

وسميتها هنا ترجمة تجوزًا فهي ليست ترجمة وإنما إعادة للنص المقتبس إلى أصله العربي. وقد صادفتني في كتاب هارولد إنجرامز (اليمن أنمتها وحكامها وثوراتها) الكثير من النصوص التي أوردها المؤلف أو استعارها وهي ذات أصل عربي. وهذه إحدى مشكلات الترجمة المهمة التي ينتصب فيها أمام المترجم هذا السؤال: هل يركن إلى الكسل ويكتفي بترجمة النص ذي الأصل العربي بلغته وصياغته هو أم لا بد أن يجهد نفسه بالبحث عن هذا الأصل العربي حتى يعطي ترجمته المصداقية والموثوقية؟ أما أنا فقد اخترت الطريق الثاني فرجعت من بين ما رجعت إليه إلى مقدمة ابن خلدون وإلى الرسائل المتبادلة بين جمال عبدالناصر والرئيس الأمريكي كندي التي أوردها هيكل في كتابه (سنوات الغليان) فوجدت ضالتي في إحداها، وبحثت عن أبيات الإمام أحمد الموجهة ضد عبدالناصر فوجدتها في أكثر من مصدر وهي التي تقول:

هيا بنا لوحدة مبنية ... على أصول بيننا مرضية
قانونها شريعة الإسلام ... قدسية الأوصاف والأحكام
ليس بها شائبة من البدع ... تجيز ما الإسلام عنه قد منع
من أخذ ما للناس من أموال ... وما تكسبوا من الحلال
بحجة التأميم والمعادلة ... بين ذوي المال ومن لا مال له
لأن هذا ما له دليل ... في الدين أو تجيزه العقول

وقد وجدت أن كل المصادر تستشهد تقريباً بالأبيات نفسها التي ترجمها نثراً إنجرامز في كتابه، ولكن بعد مدة من صدور الكتاب علمت أن القصيدة كاملة موجودة في كتاب (أشعة الأنوار) للشيخ محمد سالم البيحاني وهو عبارة عن منظومة جيدة في التاريخ الإسلامي مع شرح وتعليقات فسعيت للحصول عليها واحتفظت بها في أرشيفي.

وعلى مشقة البحث عن الأصول العربية لهذه النصوص، فقد كان الأمر هيناً عندما يكون صاحب النص أو قائله معروفاً. ولكن هارولد استعار مثلًا عبارة على الطريقة التي استعارت بها زوجته عبارة شيكسبير واضعاً إياها بين فاصلتين فترجمتها في الطبعة الأولى بصياغتي الخاصة لأنني لم أجد حينها أمامي أي مدخل لمعرفة مصدرها. ولكنني عندما كنت أحضر للطبعة الثانية من الكتاب اهتديت مصادفة حينما كنت أراجع أحد الكتب عن تاريخ اليمن إلى أن مصدر العبارة ربما يكون هو كتاب (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) للخزرجي. ولما لم يكن الكتاب في مكتبتي فقد استعرته من المكتبة السلطانية ووجدت فعلاً أن هناك علاقة وثيقة بين نص الخزرجي واقتباس إنجرامز. نعم إنها عملية مرهقة وتحتاج إلى لوثة معاشرة الكتب التي كنت قد تكلمت عنها سابقًا والتي تجعل البحث ممتعاً رغم المعاناة. ولكن قد

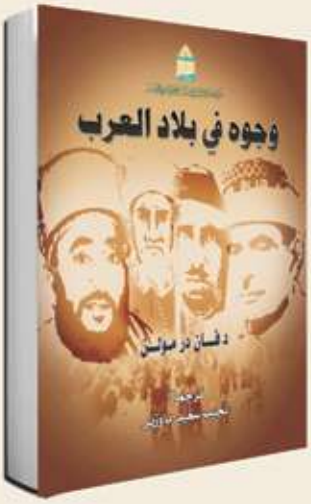

لا يحالف الحظ المترجم في كثير من الحالات ولذلك علينا أن نلتمس له العذر إذا بذل ما في وسعه لإتقان ترجمته في المجال الواسع الذي يمكنه العمل فيه.

خامسًا وأخيرًا: الهوامش والتعليقات:

من الأسئلة التي تعترض المترجم وعليه أن يقرر بشأنها سؤال ما إذا كان مطلوباً منه أن يضيف إلى الكتاب هوامش وتعليقات من عنده يُعتقد أنها ستكون ذات فائدة للقارئ العربي أو المحلي. وقد استعملت أنا عدداً من الهوامش والتعليقات بعضها طويل في كتابي الأول المترجم عن هارولد إنجرامز، وأيضاً إلى حد ما في ترجمتي لكتاب دورين. ولكن مؤخراً ربما يكون عندي اقتناع طبقته في الكتاب الثالث الذي سيصدر قريباً عن هذا المركز المبارك وهو أن على المترجم أن يوجه اهتمامه إلى تجويد وإتقان ترجمته أكثر من الاهتمام بشرح النقاط التي يعتقد أنها تحتاج إلى شرح أو تعليق. فأفضل للمترجم أن يشكر على مستوى ترجمته من أن يشكر على مستوى علمه وثقافته التي يحاول أن يظهرها من خلال تلك التعليقات وإن إثقال الكتاب بمثل هذه التعليقات يجعل منه كتاباً آخر غير الكتاب الأصلي وربما يكون هذا الصنيع انتهاكاً وتعدياً على الأصل أكثر منه إثراء وخدمة له. نعم يمكن أن يقوم شخص آخر بعمل ما يشبه التحقيق للكتاب. وهناك كتاب معروف اشتهر كاتب تعليقاته أكثر من شهرة مؤلفه الأصلي ومن شهرة المترجم أيضاً، وهو كتاب (حاضر العالم الإسلامي) الذي تأثر به والدي رحمه الله من بين ما تأثر به من الكتب في بداية حياته. فمؤلف هذا الكتاب بالإنجليزية أمريكي اسمه لوثروب ستودّارد وعنوانه الأصلي The New World of Islam وترجمه إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، ويقال إن المترجم تقدم بعد تمام الترجمة إلى شكيب أرسلان المعروف بأمير البيان يسأله تقريظ الكتاب، إلا أن الأمير شكيب استرسل في التعليق وألحق البحوث بالكتاب حتى جاوزت حجم الأصل لتصدر الطبعة العربية باسم (حاضر العالم الإسلامي)، وهو ما رآه مترجمه أقرب إلى موضوعه. هذه نقطة رأيت أنها مهمة وليست بعيدة عن موضوع المحور فأحببت إضافتها وهي أهم مما يعرف بعملية المراجعة التي أرى أنها ليست بذات فائدة تذكر في الترجمة.

وأود أن أستشهد في الختام بكتاب أعتبره نموذجياً في هذا المجال هو كتاب (مملكتا قتبان وسبأ.. استكشاف الممالك القديمة التي تناهت إليها رحلة الشتاء) للمستكشف الأمريكي وندل فيليبس الصادر عن المجمع الثقافي بأبوظبي، والذي ترجمه الفاضل عباس ومكتوب على الغلاف مراجعة وتقديم الدكتور أحمد عبدالرحمن السقاف، ولكن في حقيقة الأمر إن ما قام به الدكتور السقاف هو عملية تحقيق للكتاب، فاجتمع لهذا الكتاب جمال أسلوب الترجمة ودقة وثراء التحقيق. ومن حسن الحظ أنني اطلعت على هذا الكتاب في الوقت المناسب لأنه أفادني كثيراً في تحقيق ومراجعة الطبعة الثانية من كتاب والدي (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي)، الذي تحدث فيه بشيء من التفصيل عن بعثة وندل فيليبس هذه التي مرت بالمكلا في سنة ١٩٥٠م في طريقها إلى بيحان. وما دمنا نتحدث عن الترجمة تجدر الإشارة إلى أن هناك ترجمة عربية قديمة غير موفقة للكتاب فيها تشويه وتحريف خاصة في أسماء المناطق، وقد اطلعت على نسختها الموجودة في المكتبة السلطانية وتأكد لي أنه الكتاب نفسه، ولكن شتان بين الترجمتين..!

42
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

من ثمرات اللغة (١)

أ.د. عبدالله صالح بابعير

من ألفاظ اللغة

نقل الثعالبي في (فقه اللغة) عن أحمد بن يحيى ثعلب، عن ابن الأعرابي، الألفاظ الدالّة على الحُسْن في العربية، وتقسيمها على أجزاءٍ مختلفة:

- فالصّباحة في الوجه، ففي تاج العروس:

((والصَّباحَةُ: الجمال، هكذا فسّره غيرُ واحدٍ من الأئمّة، وقيّده بعضُ فقهاءِ اللُّغة بأنه الجمالُ في الوَجْهِ خاصّةً .... وقد صَبُحَ، ككَرُمَ، صَباحَةً: أشْرَقَ وأنارَ ... فهو صَبيحٌ وصَبَاحٌ وصُبَاحٌ ... وصُبَحانٌ ... والأنثى فيهما بالهاء، والجمع صِباحٌ ... وقال اللَّيث: الصَّبِيحُ: الوَضِيءُ الوَجْهِ)). وفي الاشتقاق لابن دريد: ((ورجلٌ صَبيحٌ بَيِّنُ الصَّباحة، إذا كان جميلاً، من قوم صِباح)).

- والوضاءة في البَشَرة عامّة، وفي اللسان:

((والوَضاءَةُ: مصدرُ الوَضِيءِ، وهو الحَسَنُ النَّظِيفُ. والوَضاءَةُ: الحُسْنُ والنَّظافَةُ. وقد وَضُؤَ يَوْضُؤُ وَضاءَةً، بالفتح والمدّ: صار وَضِيئًا، فهو وَضِيءٌ من قَوْمٍ أوْضِياءَ ووُضاءٍ ووُضَّاءٍ .... وفي حديث عائشة: لَقَلَّما كانتِ امرأةٌ وَضِيئةٌ عند رجلٍ يُحِبُّها. الوَضاءَة: الحُسْنُ والبَهْجَةُ. يقال وَضُؤَتْ، فهي وَضِيئةٌ. وفي حديث عمر - رضي الله عنه - لِحَفْصَةَ: لا يَغُرَّكِ أن كانَتْ جارَتُكِ هي أوْضَأَ مِنْكِ، أي أحْسَنَ)) يقول علي بن الجهم:

وَضِيءٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ إنْ رُثَّ غِمْدُهُ
إذا كانَ مَصْقُولَ الغرارَيْنِ مُخْذَما

- والجمال في الأنف، وقيل: الجمالُ مطلَقُ الحُسْن، يقع في الأجسام والأفعال. يقول صاحب اللسان: ((والجَمال: مصدر الجَميل، والفعل جَمُلَ. وقوله عز وجل: ﴿ ولَكُمْ فيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾، أي بَهاءٌ وحُسْن. ابن سيده: الجَمال الحُسْنُ، يكون في الفِعْل والخَلْق. وقد جَمُلَ الرجلُ، بالضم، جَمالاً، فهو جَميلٌ وجُمَال، بالتخفيف، هذه عن اللحياني، وجُمَّال، الأخيرة لا تُكَسَّر. والجُمَّال، بالضم والتشديد: أجمل من الجَميل. وجَمَّلَه أي زَيَّنَه .... وامرأة جَمْلاءُ وجَميلةٌ ... قال:

وَهَبْتُهُ مِنْ أَمَةٍ سَوْداءِ لَيْسَتْ بِحَسْناءَ ولا جَمْلاءِ

وقال الشاعر:

فَهِيَ جَمْلاءُ كَبَدْرٍ طالِعٍ بَذَّتِ الخَلْقَ جَميعًا بالجَمالْ

وفي حديث الإسراء: ثم عُرِضَتْ له امرأةٌ حَسْناءُ جَمْلاءُ، أي جَميلةٌ مليحةٌ))

- والحَلاوةُ في العينين: أي أن يكون الشيءُ حُلْوًا في النظر. جاء في اللسان: ((والحُلْوُ من الرجال: الذي يَسْتَخِفُّه الناسُ ويَسْتَحْلُونَه وتستَحْلِيه العينُ: أنشد اللحياني:

وإنِّ لَحُلْوٌ تَعْتَرِيني مَرارَةٌ وإنِّ لَصَعْبُ الرأسِ غيرُ ذَلُولِ

والجمع حُلُوون، ولا يُكسَّر، والأنثى حُلْوَةٌ، والجمع حُلْوَاتٌ، ولا يُكسَّر أيضًا. ويقال: حَلَتِ الجاريةُ بعيني وفي عيني، تَحْلُو حَلاوَةً. واستَحْلاه: من الحَلاوة كما يقال استجاده من الجَوْدة)). ويقول أبو تمام:

فَلَقِيتُ بَيْنَ يَدَيْكَ حُلْوَ عَطائِهِ ولَقِيتُ بَيْنَ يَدَيَّ مُرَّ سُؤالِهِ

- والمَلاحة في الفم، وفي اللسان: ((والمِلْحُ: الحُسْنُ، من المَلاحة. وقد مَلُحَ يَمْلُحُ مُلُوحةً ومَلاحةً ومَلْحاً، أي حَسُنَ، فهو مَلِيحٌ ومَلاحٌ ومُلَّاحٌ. والمَلَّاحُ أمْلَحُ من المَليح .... وجمع المَليح مِلاحٌ، وجمعُ مُلَاحٌ ومُلَّاحٌ: مُلَاحُون ومُلَّاحُون، والأنثى مَليحَة .... والمُلْحَة والمُلَحَة: الكلمة المَليحة)) يقول عمر بن أبي ربيعة:

قُلْ لِلمَلِيحَةِ قَدْ أَبَلَّتْنِي الذِّكَرُ
فَالدَّمْعُ كُلَّ صَباحٍ فِيكِ يَبْتَدِرُ

- والظَّرْف في اللسان، جاء في تاج العروس:

((والظَّرْفُ: الكياسَةُ كما في الصِّحاح، وهكذا صَرَّحَ به الأئمة، قال شيْخُنا: وبعضُ المُتَشَدِّقين يقولونه بالضمّ، للفَرْق بينه وبين الظَّرْف الذي هو الوعاءُ، وهو غَلَطٌ محضٌ لا قائِلَ به. وقد ظَرُفَ الرَّجُلُ، ككَرُمَ، ظَرْفًا وظَرافَةً .... فهو ظَرِيفٌ من قَوْمٍ ظُرَفاءَ هذه عن اللِّحْيانيِّ، قال ابنُ بَرِّي: وقد قالوا: ظُرُف، ككُتُب، وقوم ظِراف ككِتاب، وظَرِيفين، وقد قالوا: ظُرُوف قال الجوْهَرِيّ: كأنَّهم جَمَعُوه بعد حَذْفِ الزائد ... أو الظَّرْفُ إنَّما هو في اللِّسان، فالظَّرِيفُ هو البَلِيغُ الجَيِّدُ الكَلام، قاله الأصْمَعِيُّ، وابنُ الأعرابيِّ، واحْتَجَّا بقَوْلِ عُمَرَ في الحَديث: إذا كانَ اللِّصُّ ظَرِيفًا لَمْ يُقْطَعْ، أي إذا كانَ بَليغًا جَيِّدَ الكَلام احْتَجَّ عَنْ نَفْسِه بِما يُسْقِطُ عنه الحدَّ)) وفي الأغاني من أخبار حسين بن الضحاك: ((ويقال: إنه أول من جالس منهم محمد الأمين. شاعرٌ أديبٌ ظَريفٌ مطبوعٌ، حسنُ التصرف في الشعر حلوُ المذهب، لشعره قبول ورونق صافٍ)) وفي الأمالي لأبي علي القالي: ((قال معاوية للناس: كيف ابنُ زيادٍ فيكم؟ قالوا: ظَريفٌ، على أنه يَلْحَنُ، قال فذاك أظرفُ له. ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة، وذهبوا هم إلى اللحن الذي هو الخطأ)).

- والرشاقة في القَدّ، جاء في اللسان:

((والمَرْشَقُ والرَّشِيقُ من الغِلمان والجَواري: الخَفيفُ الحَسَنُ القَدِّ اللَّطيفةُ. وقد رَشُقَ، بالضم، رَشاقةً. التهذيب: يقال للغلام والجارية إذا كانا في اعْتِدال: رَشيقٌ ورَشيقةٌ، وقد رَشُقا رَشاقة. وناقة رَشيقة: خفيفة سريعة)). وفي الأغاني: ((كان حنين غلامًا يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان لطيفًا في عمل التحيات، فكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان والمتطربين إلى الحيرة، ورأوا رشاقته وحُسْنَ قَدِّه، وحلاوته وخفةَ روحه، استحلوه، وأقام عندهم وخفَّ لهم)) يقول أبو نواس:

تَقِيُّ النَّفْسِ أزْهَرُ قُرْطُقِيٌّ
رَشِيقُ القَدِّ كالظَّبْيِ النَّعُوسِ

- واللباقة في الشمائل، وفي اللسان:

((اللَّبِقُ: الظَّرْفُ والرِّفْقُ. لَبِقَ، بالكسر، لَبَقًا ولَباقَةً، فهو لَبِقٌ .... والأنثى لَبَقَةٌ. ولَبُقَ فهو لَبِيقٌ كَلَبِقٍ، والأنثى لَبِيقَةٌ ... وقيل: اللَّبِقَةُ واللَّبِيقة: الحَسَنَةُ الدَّلِّ واللَّبْسَةُ اللَّبِيبةُ الصَّناعُ، وقال الفراء: اللَّبِقَةُ التي يشاكلها كلُّ لِباسٍ وطِيبٍ. الليث: رجل لَبِقٌ ويقال لَبِيق، وهو الحاذق الرفيق بكل عمل، وامرأةٌ لبيقة ظريفة رَفيقةٌ ويليق بها كلُّ ثوب. أبو بكر: اللَّبِقُ الحُلْوُ اللَّيِّنُ الأخلاق، قال: وهذا قول ابن الأعرابي، قال: ومن ذلك المَلْبَقة، إنما سميت مَلْبَقةً لِلِينها وحلاوتها، وقال قوم: معناه الرفيقُ اللطيفُ العمل ... وهذا الأمر يَلْبَقُ بك، أي يوافقك ويزكو بك. الأزهري: العرب تقول هذا الأمر لا يليق بك ولا يَلْيَقُ بك، فمن قال لا يليق فمعناه لا يحسن بك حتى يَلْصَق بك، ومن قال لا يَلْبَقُ فمعناه أنه ليس يوفّق لك. ومنه لَبِقَ به الثوبُ أي لاق به)).

- وكمالُ الحُسْن في الشِّعر:

وهذا ما ختم به الثعالبيُّ تقسيم ألفاظ الحُسْن والجمال، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

آلة القنبوس في حضرموت

مع الفقيه باصبرين

عبدالله صالح حدّاد

ليس لهذا العلامة الديني أية علاقة بآلة الطرب الموسيقية المعروفة بآلة (القنبوس) ولكنها وردت في إحدى كتبه، لهذا وجب التنبيه.

وباصبرين هو العلامة الفقيه علي بن أحمد بن سعيد بن محمد باصبرين، حسبما ورد مكتوباً على غلاف كتابه (إعانة المستعين، حاشية فتح المعين) المخطوط بمكتبة المخطوطات بتريم، وهو من قرية (قرحة باحميش) التي تقع بأعلى الفرع الأيمن لوادي دوعن. ولا تعرف سنة ميلاده ولا سنة وفاته. لكن الاحتمال هو (أن يكون ميلاده في العشرين الثانية من القرن الثالث عشر ووفاته في حدود العشر الأولى من القرن الرابع عشر) الهجريين. كما يقدر ذلك الفقيه علي سالم بكير المدير السابق لمكتبة الأحقاف بتريم (انظر الحكمة عدد ١٣٥، أكتوبر ١٩٨٨ وكتابه (رجل وكتاب).

ويقيد الحداد في كتابه (الشامل) عند ذكره لوادي دوعن بقوله: (القرحة ... ويسكنها آل باحميش وآل باصبرين من نوح وسيبان) وقال علي بكير (إنه فقيهه ذكي) وقال ابن عبدالله في ادام القوت (كان جبلاً من جبال العلم).

وما يلفت النظر أن المؤرخ عبدالله السقاف لم يترجمه في كتابه المشهور (تاريخ الشعراء الحضرميين) والمحتمل أنه (لم يترجمه لشيء في نفسه، لاسيما أنه جرت بينه وبين والد مؤلف تاريخ الشعراء أخذ ورد في مسائل الفروع الفقهية ... كما تجاهل ابن عبيد الله أيضاً لشيء جرى بينهما) جاء ذلك في كتاب بكير (رجل وكتاب).

وقد هاجر العلامة باصبرين إلى الحجاز ومارس هناك التجارة بجدة دار هجرته وبها نشر علمه وله بها تلاميذ كثيرون وقد كان شجاعاً ذا عزم (وأحسب أن له يداً في الثورة التي وقعت بجدة على قناصل الدول، وهي واقعة مشهورة وقد تمكن من الفرار فسلم). وهو الذي أثار العوام على الأبنية التي جعلت على الجمرات الثلاث بمنى فهجموا عليها وأخربوها. وطلبه والي مكة الشريف، فهرب إلى حضرموت عن طريق البر ولم يستطع بعد ذلك المجيء إلى مكة ظاهراً إلا أنه حج مرتين مستخفياً براً مع أن الشريف عمل بإشارته في تحويط الجمرات فسلم الناس الضعفاء من كثير من أضرار الرحام، فقد كان رأيه موافقاً لرأي الشريف ولهذا بادر الأخير بتنفيذه وطلب منه أن يكثر التردد عليه).

وهذه المعلومات مأخوذة من مقال لعلي سالم بكير نشر بمجلة الحكمة (١٥٣) ثم جمعت مقالاته وصدرت في كتاب بعنوان (رجل وكتاب) صدر عن دار حضرموت للطباعة والنشر بالمكلا.

وللعلامة باصبرين عدد من المؤلفات جلها في الفقه وفروعه، والتي منها في مقامنا هذا الموسوم

آلة القنبوس
من مقتنيات
الفنان الراحل بدوي زبير

بـ(الحمل من المهمات الدينية في بعض المرتكب من المناهي الربانية) وهو عبارة عن رسالة نقد فيها بعض التصرفات الجارية في بلده. وكتب منها نسخاً وأرسلها إلى الوجهاء والزعماء والأعيان في كل بلدة، وقد أثارت عليه هذه التوجيهات التي قدمها لمجتمعه حفيظة الرأي العام. رغم خلوص نيته وشعوره بأن هذا واجب يفرضه عليه دينه وعمله. ورغم ذلك ضاعت نسخ هذه الرسالة ما عدا واحدة بمكتبة الأحقاف تحت رقم ... كتبها سعيد بن محمد جابر الأحمدي سنة ١٣٠٣هـ وهي رديئة الخط كثيرة الغلط وتقع في ٢٢ ورقة.

وفي مقدمة هذه الرسالة يقول العلامة باصبرين (لمّا منّ الله الكريم المفضال علي بالوصول إلى وطني الميلادي قرية القرحة أعلى وادي دوعن بعد الحط والترحال من أرض الحجاز المكرمة في واحد وعشر رمضان المبارك عام ألف ومائتين وأربعة وتسعين، نظرت إلى ما للناس له من المناهي الربانية راكبون وعليه بتقدير العزيز العليم من المخالفات عاكفون ... ولقد جمعت في هذه العجالة خمساً وسبعين من مهمات الدين مما عمّ الابتلاء بالتلبس بها)

ونحن نركز هنا على المسألة رقم (٤٨) من هذه الرسالة والتي يقول العلامة باصبرين فيها: (العنفيطة والمزمار والمدروف والقنبوس والربابة كلها آلات محرمة على معتمد جميع المذاهب بخلاف نفير الحج والحرب والعيد) ونلاحظ من عنوان الرسالة ومن المقدمة الألفاظ الآتية: (المرتكب، راكبون، عاكفون، عم الابتلاء) وهي ألفاظ تدل على أن المسائل التي ينتقدها العلامة تمارس منذ زمن وقبل أن تكتب رسالته هذه في التاريخ الذي يوافق ٢٩ سبتمبر ١٨٧٧م.

وبما إن الفنان سلطان بن صالح بن الشيخ الذي قيل خطأ: إنه أول من أدخل القنبوس والعزف عليه في حضرموت عاش للفترة مابين (١٢٨٦- ١٣٢١هـ) (١٨٦٩- ١٩٠٤م) فإن العلامة باصبرين كتب رسالته وعمر الفنان سلطان ثمان سنوات فقط. وهنا يبطل الإدعاء بهذا القول، فالقنبوس هذه الآلة الوترية موجودة في حضرموت قبل هذه المدة بكثير ولقد اطلع المستشرق البريطاني روبرت سارجنت على كتاب / رسالة العلامة باصبرين هذه، أورد ذلك في كتابه (نثر وشعر من حضرموت) لكنه قال: (وعندما استفسرت عن (العنفيطة التي ذكرها (باصبرين) قيل لي بأنها (الزيتي) وهي كلمة تستعمل في عدن للصفارة العسكرية) وكان لابد أن نؤكد أن الزيتي ربما تكون لفظة هندية، ولكنها لا تعني غير الصفارة في عدن وحضرموت. ولكن الحقيقة غير هذه فالعنفيطة هي الجزء المركب على أحد قصبتي المزمار المجوز، وهي التي يخرج منها الصوت، وتكون من القصب، ويسميها البعض (الريشة) ولكل مزمار عنفيطتان أي ريشتان.

والمثل الشعبي يقول (عنفطي وإلا خشعتش)، عنفطي أي زمري، أطلقي الصوت، وخشعتش، جعلتك تسكتين ولا ينطلق منك الصوت وذلك بكسرك، وخشع الصوت يعني سكن.

والآن لم يعد لأي إنسان الحق لأن يردد ما سبق أن قيل من أن القنبوس آلة طرب أدخلها الفنان سلطان بن الشيخ علي، وعلى ذلك يجب أن تعدل المعلومات في أي كتاب يعاد طباعته وحتى يصح ما يقال أنها طبعة منقحة ومزيدة.

بيننا عيش وملح

عندما كنت عضواً في عشيرة الجوّالة، وهي مرتبة أعلى من الكشافة بجامعة الكويت، اعتدنا عند استقبال أحد الأعضاء الجدد أن تأتي العشيرة بالخبز وعليه قليلاً من الملح، ثم يقوم القائد بتمريره على كل الأعضاء، فرداً فرداً ليأخذوا منه ويأكلوه.

وتبيّنت من الأعراف الحضرمية فوجدت أن الأكل في إناء واحد له اعتبارات أمنية بين المتخاصمين. لذا فهم يقولون: (بيننا عيش وملح).

وسمعت العوام يرددون في أمثالهم: (ماعقّه العيش والملح) عن ذلك الشخص الغادر الناكر للمعروف السيء الخلق.

ثم صرت أتساءل عن حكاية (العيش والملح) التي يقسم بها كثير من البسطاء وغير البسطاء في شكل يُعد من أكثر أشكال القسم تراجيدياً ودرامية، وذلك عندما يقول الواحد منهم دامغاً أو شبه دامغ لسامعه:

(يصدّق بالله وحياة العيش والملح اللي بيننا، أن كذا وكذا قد حدث) وذلك كي يدلل على صدق قوله أو صحة روايته..!!

سامي محمد بن شيخان

إنني أتساءل عن الحكمة وراء الاستمساك العنيد من هؤلاء المقسمين بهذا القسم، وذلك بغض النظر عن أمرين على جانب كبير من الأهمية.

أولهما: أننا مأمورون بنص الحديث الشريف ألا نقسم بغير الله، (من حلف فليحلف بالله أو ليصمت)، (من حلف بغير الله فقد كذب).

وثانيهما: أن لفظة العيش لها معنى في بلادنا ما ليس لها في بقية البلدان العربية. ففي مصر مثلاً يقصدون بالعيش الخبز. وفي الخليج يقصدون به الأرز، بينما في بلادنا يقصدون بالعيش في الغالب هو الطعام (القوت) عموماً دون تحديد نوعيته (كما جاء في الأعراف الحضرمية).

أقول بأنني أتساءل، بغض النظر عن هذين الأمرين عن حكمتهم في القسم بالعيش والملح بالذات مقترنين؟!! لماذا لا يقسمون بـ(التين والزيتون) مثلما أقسم الله عز وجل من فوق سبع سماوات طالما أنهم يبحثون عن (أكل) يقسمون به؟!.

البعض قال في معرض تبرير القسم بهذين الصنفين من الطعام، أن في العيش والملح كل مقومات الحياة التي يحتاجها الجسد كي يبقى حياً، من كربوهيدرات وأملاح وفيتامينات وبعض الدهون وبعض البروتينات، لذا فمكانتهما تساوي أي طعام وربما تفوقه، لأنه -العيش والملح- يخلو ببساطة من كل مسببات السمنة والأمراض والرفاهية. وهذه المكانة هي التي جعلته أهلاً للقسم به..

النساء هن أكثر الفئات قسما بالعيش والملح في حديثهن مع بعضهن أو مع الرجال

والبعض الآخر قال إن العيش (الخبز) الجاف الذي يغمس بالملح - فقط - كما هو في الجوالة، هو زاد الفقير الذي لا يجد في كثير من الأحيان إلا هو، ولذا فإن من الشرف ما يجعله أهلاً لأن يقسموا به.. الفقراء والأغنياء على السواء..!!.

والبعض الثالث قال: إن العيش والملح هو كناية عن كل ما يؤكل من طعام. ولا يعقل أن يقول رجل لآخر مذكّرا إياه بما تطاعماه سوياً، (وحياة اللحم المضبي والمندي والدجاج المشوي واللخم والبراوطة والشربة والكبسة اللي بيينا) وكأنه يعيّره بما أطعمه أو يمن عليه به. فيكتفي بالإشارة إلى أقل ما أطعمه منه ربما نكراناً للذات.

وقد أورد ابن الجاور في كتابه: (تاريخ المستبصر) صـ ٢٢٤ عند ذكره لذمام العرب ما يلي:

(إذا أمسك عربي لصاً أو ربيطاً أومن يكون عليه دم، فإن أكل الربيط في بيت صاحبه تمراً

أو لحماً قتله بعد يومين وليلتين، وقيل بعد ثلاثة أيام، ويقال بعد سبعة أيام. وإن أكل خبزاً قتله بعد يومين وليلة، وقيل يومين وليلتين، ويقال بعد ساعة واحدة. وإن شرب ماء في بيته بعد يوم واحد، ويقال بعد ساعة واحدة. وإن شرب حليباً أحرم عليه دمه بعد ثلاثة أيام بلياليها. ويقال إن السلام يكون في ذمامه الى أن يغيب كلٌ عن صاحبه. فإن سلّم عليه صاحبه بطُل حقّه وأمن من جميع ما يكره. قيل: ولم ذا؟، قال: لأن اللحم يبقى بمعدة الإنسان يومين وليلتين، ويبقى الخبز يومين وليلة، ويبقى الماء يوماً واحداً. والسلام ما يغيب عن النظر، فما تقتضي المروءة أن تقتل إنساناً وخبزك في أمعائه).

أما النساء، وهن أكثر الفئات قسماً بالعيش والملح في حديثهن مع بعضهن أو مع الرجال، فقد قلن إنه كناية عما بين المرأة وزوجها من طعام اقتسماه سوياً، فراح نصفه في جسده ونصفه الآخر في جسدها، فحق أن يكون كلاهما توأمين في مكونات جسديهما، وبالتالي في فضلات طعامهما المقتسم هذا من عرق وإخراج، إلى حد أن رائحتيهما تكاد تكون، بعد دوام العشرة بينهما، متشابهة. فإذا أقسمت المرأة على زوجها بهما، فكأنها تقصد أن تذكّره - عمداً- بكل ما هو مشترك من لحم ودم. وهذا قسم غالٍ لا يعلم قدره إلا من كان شريكاً في الحياة وشريكاً في اللقمة.

ألم تسمع - هكذا قالت إحداهن - قول المطربة الراحلة: (ليلى مراد) وهي تقول في واحدة من أروع أغانيها مذكّرة زوجها بأن ما بينهما من عيش وملح هو الذي- بالتأكيد- سيزيل أسباب الخصام بينهما ويرجعهما إلى بعضيهما في أقرب فرصة:(والعيش والملح وعشرتنا، ما تهونش علينا محبتنا، ولا تقدر على نار فرقتنا، وحنرجع ومسيرنا لبيتنا، بيتنا وحشنا ووحشني هواه، يمين بالله والعيش والملح).

أما أنا، فلم أتمكن من إكراه عقلي على الانصياع لأي من الأقوال والتبريرات السابقة رغم وجاهة بعضها، لأنني كنت محاصراً بين شقي رحى لا أملك الفكاك من بينهما، بين أقوال جدّتي التي حفرت لها في الذاكرة مكاناً غير قصي، وبين صفتي الاعتبارية التي نعتني بها البعض: (باحث) التي تفرض البحث عن الأصول والفروع لأي موضوع..!

أماجدّتي، فقد تذكرت أنها لطالما قالت لي:

(إذا خشيت غدر صديق فأطعمه في بيتك. ثم دع العيش والملح يتصرف معه أو يفعل فيه فعله).

ولطالما قالت لي أيضاً:

(قد تجد لكل الخائنين أعذاراً، إلا خائن العيش والملح. لا يهون إلا على قليل الأصل).

وكانت تسمعني ذلك المقطع من أغنية الشاعر حسين المحضار:

(ريت الزمن لي فات يرجع على العدان)

الذي يقول فيه:

(الغش ما كان ديني والعيش والملح يكفيني
عاملت ساير محبيني بالجود والإحسان).

الغش ما كان ديني والعيش والملح يكفيني
عاملت ساير محبيني بالجود والإحسان

لأنها- أي جدّتي- تحب الطرب الأصيل، وكل ما هو أصيل. وتستشهد بما سمعه جدي من نظم للشعراء الشعبيين أمثال الشاعر سعيد بكران:

العيش والملح يكفي بيننا خرده
ونسى الصداقة وذم الأهل والجيران
لي فك لسانه ونيّربي في البلده
ويقول للناس.. كل حقّي ولد بكران

وقول الشاعر بوسرجين:

العيش هو والملح في باحريز ماأثّر وعق
يحتاج والله رشخ على غفلة وخلق الله ليوم

قد تجد لكل الخائنين أعذارا، إلا خائن العيش والملح، لا يهون ألا على قليل الأصل

أما صفتي الاعتبارية، فقد سحبتني عنوة إلى صفحات القواميس وأمهات الكتب، فوجدت بها- بين ما وجدت- معنى يضرب كل أولئك المجتهدين الذين سعيت إليهم مستفتياً، ويضرب أيضاً كل أقوال جدّتي رحمها الله إن كانت قد قصدت هي أو غيرها، أن العيش هو الخبز الذي نأكله، وأن الملح هو الذي نستخدمه مع الطعام مثل ملح (الصليف).

فالقواميس- في هذا الصدد- لا تقيم من لفظة (العيش) أيّة علاقة مع الخبز الذي نأكله، فالعيش في القاموس هو (الحياة)، وهي العيشة والمعيشة، وهي المعايشة وهي العشرة أي التعيش، ومنها عائش وعائشة وعيوشة، أي حي ومعايش ومعاش ومتعيش.

والقواميس في معنى كلمة (الملح)، رغم أنها تشير في أحد معانيها إلى الملح المستخدم في الطعام، لكنها تشير إلى معنيين آخرين أقرب ما يكونان إلى معنى العيش. المعنى الأول هو الملح بمعنى الممالحة أي المؤاكلة والرضاع، أي تشارك البالغين في طعام واحد، أو تشارك الأطفال في الرضاعة من ثدي امرأة واحدة..!!.

والمعنى الثاني، وهو الملح من الملاحة والمليح والاستملاح والملاح، أي كل ما ظرف وسهل وحسن وجمل..!!.

وبجمع المعنيين القاموسيين عن (العيش والملح)، فإننا نرجّح أن ليس فيهما ما يشير إلى ما درج الناس على فهمه من معنى له صلة بالخبز أو (القوت واللقم) والملح. بل هو- في أغلب الظن- القاموسي (الأكاديمي) قسم بالحياة والعشرة والمعاشرة وما فيهما من ملاحة وظرف وأيام جميلة وكل شيء مليح. كان يوماً ما بين من يقسم بهما وبين المقسوم له، أو المقسوم عليه.

والآن، وبعد أن انتهينا- بحثياً- إلى معنى لـ(العيش والملح) هو أقرب للقناعة والمنطق منه إلى العاطفة التي تحركنا تجاه كثير من قضايانا، هل لنا ألا نقسم بالعيش والملح. بل نتعاهد على أن نقسم لبعضنا فنقول: (والله الذي قدّر بيننا عشرة، وقدّر بيننا فيها كل شيء مليح..أن كذا وكذا...) فنكون بذلك قد اتبعنا سنة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وفي الوقت ذاته أرضينا رغبتنا في أن نذكّر السامع بما نريد أن نذكّره به كي يلين لنا- إذا استعصى- للأيام المليحة والذكريات الجميلة التي كانت بيننا يوماً.

السلطان غالب بن عوض بن صالح القعيطي يستعيد ذكرياته ويكشف حقائق لأول مرة

١ - ٢

عندما شرعنا في إعداد وصف وتنسيق العدد الأول من مجلة (حضرموت الثقافية) وقفنا كثيراً عند صفحات المجلة المخصصة للحوار، وطافت بنا الذاكرة في داخل الوطن الحضرمي ومهجره بحثاً عن حوار يسهم في تنشيط الذاكرة الحضرمية وتاريخها الحديث والمعاصر، فكان السلطان غالب بن عوض بن صالح القعيطي هو غايتنا المنشودة بما يمثله وأسرته من تاريخ حضرمي يمتد إلى بدايات القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، إضافة إلى حضوره الكبير في مشهد التغيرات الحاسمة في حياة حضرموت وما يحمله من مواقف وذكريات وأسرار ظلت حبيسة جدران ذاكرته المتقدة لأكثر من نصف قرن، فالسلطان غالب الثاني الذي غادر (المكلا) عاصمة السلطنة القعيطية في السابع عشر من سبتمبر من العام ١٩٦٧م، ظل مثقلاً - حتى اللحظة - بكثير من المشاهد وأكثر منها تبدلات اللحظات الأخيرة للسلطنة القعيطية، ولم يقف بعد المسافة حاجزاً دون محاولة اللقاء به على صفحات المجلة، وقد كان لنا ما أردناه من خلال المتابعة الحثيثة من قبل الشيخ الفاضل محمد بن سالم بن علي جابر المشرف العام على المركز الذي ظل يتابع حيثيات هذا الحوار الذي أعددنا أسئلته لتتوج جهوده بهذا الحديث الطويل من قبل السلطان غالب بن عوض، ونظراً لطول الحوار وما يحمله من أسرار حياتية وإنسانية وسياسية تنشر لأول فقد آثرنا أن ننشره على جزأين نضعها بين يدي القارئ الكريم عبر صفحات مجلة (حضرموت الثقافية) لعلنا نضع أكثر من نقطة على حروفها الحضرمية المبعثرة منذ زمن بعيد على رقعة التاريخ الحضرمي المجيد.

حوار : صالح حسين الفردي

البداية

أولاً، أريد منكم السماح لي ألا أتقيد بدقة في إجاباتي لإطار أسئلتكم، حيث إنني أنوي أن أتطرق في أجوبتي - في هذه المقابلة - إلى رواية أمور وتفاصيل لم أتذكر بأنني كنت قد تطرقت إليها سابقاً. فليُسمح لي أن أتبنى أسلوب (إنما الشيء بالشيء يُذكر) وعلى سبيل المثال وفقا لتعبير "المبرد" في كتابه "الكامل".

• من أرشيف الطفولة لشخصكم الكريم تظهر بارزة تلك اللقطة (الصورة) التي يحتضنك فيها، المغفور له بإذن الله، جدك السلطان صالح بن غالب القعيطي، فما الذي لم يزل عالقاً من سنوات الطفولة تلك؟.

- أخذت تلك الصورة في نهار يوم ولادتي في قصر جدي (والد الوالدة) في ٧ يناير ١٩٤٨م (٢٤ صفر ١٣٦٧هـ الذي يصادف ٢٥ صفر في حضرموت)، والغريب أنه تاريخ وفاة الجد المؤسس عمر بن عوض القعيطي الأول أيضاً، وجدي السلطان صالح هو الذي أسماني غالباً تيمناً باسم والده السلطان غالب بن عوض الأول يرحمه الله، الذي كان يشتهر في يومه بلقب (أبونا آدم)، أو (آدم أبو البشر)، كما يشير إليه - على سبيل المثال - الأديب والمؤرخ "القومندان" الأمير أحمد فضل العبدلي. وعن سبب إطلاق هذه التسمية عليه، هناك قصة ممتعة رواها لي العالم الفاضل المعروف الشيخ عبدالله بن أحمد الناخبي - يرحمه الله - الذي عاصر خواتم عهده صبياً، وهي أنه لما زار السلطان غالب لحجاً تلبية لدعوة من صديقه السلطان عبدالكريم فضل العبدلي يرحمه الله، طاف في ساعة متأخرة من الليل على منازل جميع ذوي الحاجة بمعية أحد ثقاته من السادة الجفارية، الذي كان دليله عليها تاركاً "صرة" (أي كيس صغير) من الريالات على عتبة أو باب كل منها، وفقا لحاجة صاحبها، كما كان يدل عليه مرافقه. ويذكر أنه لما طلع الفجر واكتشف أهالي تلك الديار الأكياس

الأمير غالب بن عوض القعيطي طفلاً في حضن جده السلطان صالح بن غالب القعيطي

واستفسروا عن الأمر وعن فاعله، ولكن دون جواب. فبدؤوا يتداولون بينهم بأن لابد أن "أبونا آدم" الذي فعل ذلك! وأما السادة العلوية، فكانوا يطلقون عليه لقب "غالب السادات" للسبب نفسه. وانني إذ أرى بأن السلطان غالب يعد أول باني للنهضة الحضرمية التي تناولت العديد من المواضيع مثل: التنظيم الإداري للألوية، والعسكري للجيش، مع تدريب قسم منه على النظام العسكري الحديث، مع تأسيس قوة أغلبها من الحاشية، التي أطلقت عليها تسمية "النظام"، وهو يعد نواة للجيش النظامي المؤسس في عهد ابنه السلطان صالح بن غالب. إضافة إلى هذه الإصلاحات والتحسينات الإدارية، كان الجد غالب – يرحمه الله - المصدر لإطلاق وتنفيذ أول دستور نظامي حديث للدولة بتأسيس مجلس شورى، والذي نص على أن يكون افتتاح عمله وإجراء قراراته "من ربيع الثاني ١٣٢٧هـ". ولقد أوردت نصه الذي قدم لي من الشيخ عبدالرحمن عبدالله بكير في ملاحق تأليفي المتواضع "تأملات عن تاريخ حضرموت" الذي طبع في جدة عام ١٩٩٦م. وفي عصر نيابته لوالده، كان قد تم إدخال المياه للمكلا في قصب حديدية من البقرين، الذي أشار إليه السيد عبدالرحمن بن عبيدالله في " بضائع التابوت " كعمل يوازي -في أهميته - ما فعلته زبيدة (طيب الله ثراها) لأهالي مكة وزوارها بإجراء النهر الحامل لتسميتها. ولقد أدخل اللاسلكي في عهده. وكان يهتم غاية الاهتمام – أيضا - بتطوير إمكانيات الدولة، الزراعية منها والمعدنية.

لما زار السلطان غالب (الأول) لحجاً تلبية لدعوة من صديقه السلطان العبدلي، طاف في ساعة متأخرة من الليل على منازل جميع ذوي الحاجة تاركاً "صرة" من الريالات على عتبة أو باب كل منها .

ثومبسون وجون بال في مايو ١٩١٨م، والثانية بقيادة خبير بريطاني آخر، ليتل O. H. Little الذي قام بدراسة جيولوجية للمناطق الساحلية نشرت في مصر باللغة الانجليزية، وأعاد نشرها عمي عبدالعزيز بن علي بن صلاح القعيطي في عام ٢٠١٣م، مع مقدمة مني. والجدير بالذكر أن الخبير ليتل قد أشار فيها إلى السلطان غالب الذي تعامل معه وبأنه وجده سابقاً لعصره في تفكيره في مجالات عدة!

ثم أن هناك أيضا أمر الاتفاقية الثانية في البريطانية إلا في ١٩١٥م في عهد السلطان غالب بن عوض. وهذه الاتفاقية لم تحظَ بأية نتيجة، ولعل لوضع السوق العالمي للنفط ضلعاً في هذا الأمر، لأن لغاية الستينيات، كان العرض يفوق الطلب. فلم يكن من حظ حضرموت أن يتم فيها التنقيب من تلك المجموعة التي كانت ناوية الاكتفاء بدفع رسوم سنوية فقط مقابل منح الامتياز لها. وهي التي كانت دخلت في اتفاقية مع الملك عبدالعزيز أيضا، بالسياسة والنتيجة نفسها. وبينما نحن في حديث عن أمور جيولوجية، يجب الإفادة بأن السلطان صالح الذي جمع بين العلوم التقليدية والحديثة كان خبيراً في دراسة تقييم علم طبقات الأرض والجيولوجيا أيضاً.

الأمير غالب بن عوض القعيطي في صغره بالزي الرسمي

والسلطان غالب كان أهم بانٍ مع السلطانين المنصور ومحسن ابني غالب الكثيري في القرن العشرين لمشروع الوحدة الحضرمية. وكان ذلك في شكل إبرام اتفاق بينهم يعود تاريخه إلى ١٩١٨م بأن "إقليم حضرموت إقليم واحد". ومن بعض آثاره المعمارية بناء سدة وفرضة المكلا إضافة إلى المسجد الذي يحمل اسمه في المكلا.

وكان للسلطان غالب بن عوض ابن آخر، اسمه محمد، الذي كان مشهوراً بالفروسية والرمي، إلا أنه وافته المنية فجأة في عز شبابه بعد أن حج مع جده وعمه السلطان عمر بن عوض سنة ١٩٠١م (١٣١٨هـ)، وله ثلاث بنات منهن شقيقة السلطان صالح التي اقترنت بابن عمها محمد بن صلاح، إلا أنها لم تنجب، وكذلك كان حال ابنة أخرى تزوجت على نبيل هندي، أما الثالثة والمشهورة بلقب "بيقم" في حضرموت، فكانت زوجة السيد حامد بن أبوبكر المحضار وخلفت ابنين وابنة.

كان (جدّي السلطان صالح) يقضي ساعات طويلة وبصمت عند هندولي

وعلى سبيل المثال، فإضافة إلى ضمه منطقة حجر الخصبة بإرضاء قبائلها عبر توزيع الخيرات بسخاء بينها، كما أورده ذلك السيد حامد بن أبوبكر المحضار في تأليف سيرة جده السيد حسين بن حامد ليكون نواة للتطوير الزراعي والمعدني في حضرموت، كما طلب من الحكومة المصرية خبراء أجانب للقيام بدراسة وتقديم اقتراح للإصلاح الزراعي والقيام بمسح جيولوجي مع الدراسة عن إمكانات وجود معادن مثل الفحم والكبريت والنفط وغيرها. وعلى سبيل المثال، واستجابة لهذا الطلب، فقد أرسلت الحكومة المصرية بعثتين، الأولى فيها الخبيران بيبي تاريخ العالم العربي التي تمت بين شركة "ايسترن ساندیکیت ليميتد" والدولة القعيطية للاستكشاف عن النفط التي فاوضها السلطان صالح نيابة عن جده

السلطان غالب (الأول) كان أهم بانٍ مع السلطانين المنصور ومحسن ابني غالب الكثيري في القرن العشرين لمشروع الوحدة الحضرمية

السلطان عوض بن عمر في بومبي ثم في لندن في سنة ١٩٠٧م. ولعلها تعد أول زيارة من قبل أمير من الجزيرة العربية إلى لندن! وهي الاتفاقية التي لم تصادق عليها الحكومة

هذا، وأطلب السماح لهذا الانحراف بعض الشيء في الإجابة عن السؤال، إلا أنني أعدها معلومات مجدية، فأحببت أن أعرضها على القراء،ولعل كثيراً منها أذكره لأول مرة.

وعودة إلى موضوع السؤال، ودليلاً على مدى حبه لحفيده، كان قد أمر السلطان صالح بإصدار بطاقة معايدة رسمية في شكل صورة لميناء المكلا، وتشير إلى بلقب "صاحب السمو الملكي"، بينما الإشارة إلى ابنه الوحيد كانت اكتفت بلقب "صاحب السمو". ويذكر بأنه كان يقضي ساعات طويلة وبصمت عند هندولي، ويسعد كثيراً عندما كان الزوار يذكرون له - وبالذات من العرب - أنني أشبهه كثيراً، ولعل ذلك لأنني كنت بديناً وفاتح اللون مثله آنذاك! وبناءً على ما تربيت عليها من قصص وروايات من والدتي وغيرها عنه وشخصيته وانجازاته حيثما ثقف، فقد كان السلطان صالح القدوة النموذجية لي في باطني حتى من قبل أن أتعرف على مفهوم ومعاني هذه العبارة. وكان والدي رحمه الله، يعلق لي دائما بعد المناسبات الرسمية التي كنا نرتدي الزي الرسمي لها، قائلا: "يابه انته زي جدك".

ومع ذلك، فيهمني أن أوضح بكل تواضع أنه لا يوجد مجال للمقارنة بيني وبين جدي ومستواه الفكري والثقافي وإنجازاته، حيث إنني أرى نفسي لا أعادل حتى "الغبار على نعاله" في مجالات كثيرة.

• كثير من الناس في حضرموت حتى هذه اللحظة لم يقفوا عند مشوار حياتكم العلمي، فهل لك أن تقف بنا عند تلك المحطات المهمة من حياة السلطان غالب؟.

- كانت ولادتي كما ذكرت في قصر جدي لوالدتي الواقع في سكندراباد (المدينة التوأم لحيدرأباد)، وذلك وفقاً للتقاليد المعروفة بأن تضع المرأة مولودها الأول في بيت والدها. ولقد احتفل بي جدي كثيراً. وبما أن نظام حيدرأباد (خال الوالدة)، كان قد اتخذ القرار أن تكون حيدرأباد مملكة مستقلة ورفض الانضمام إلى الهند، الأمر الذي أرغم الحكومة الهندية على القيام بمحاصرة مملكة حيدرأباد من جميع الأطراف لضمها إليها جبراً. فعندما حاول السلطان صالح أن ينقل جميع أفراد أسرته الشخصية إلى حضرموت ووصل إلى بومباي، التي كانت تقع في الجمهورية الهندية، من أجل السفر إلى عدن، تم منع مغادرة والدتي بسبب انتمائها لأسرة النظام. وبما أن عمري كان دون السنة، فقد رجعت مع والدتي وأهلها إلى حيدرأباد ، الذين كانوا رافقوها إلى بومباي ليودعوها، فكانت نشأتي وتربيتي تحت إشراف والدتي في مدارس انجليزية مع تعلم العربية والقرآن والدين في المنزل. وعندما توفي السلطان صالح (الذي كان يزورنا من حين إلى آخر) في عام ١٩٥٦م، وتسلطن والدي وأصبحت ولياً للعهد، تمت الترتيبات لانتقالي إلى المكلا. ولقد اشترطت والدتي عند ذلك على الحكومة البريطانية أن تلتزم بالإشراف على تعليمي.

وعند وصولي المكلا بمعية والدتي، تقرر أنه قبل أن يصل مستوى ثقافتي بالعربي إلى درجة لائقة لكي يتمكن الشيخ عبدالله بن أحمد الناخبي من استلام أمر تدريسي أن توضع ترتيبات لإعدادي لذلك. ففتحت لي مدرسة في الباغ (وهو آنذاك السكن الرسمي لولي العهد، إلا أنني لم أسكن فيه بسبب عامل سني)، وكنت كلفت لأخضع لدراسة مكثفة من الصبح إلى الظهر، ثم بعد العصر إلى المساء، والهدف منها تغطية كل ما درسته في منهجي الانجليزي باللغة العربية. وكان كُلف الأستاذ المرحوم سالم عبدالله الحبشي، حفيد النائب عبدالخالق الماس عمر، ووالده آنذاك قائم في بروم، بهذه المهمة.

نموذج لبطاقة معايدة حضرمية من أواخر الاربعينيات. ويبدو في وسط الصورة السلطان صالح بن غالب القعيطي وعلى يساره نجله الأمير عوض بن صالح (ولياً للعهد آنذاك) وعلى يمينه حفيده الأمير غالب بن عوض وفي الأسفل منظر عام من البحر لميناء المكلا.

وفي ذات الحين، عين الوالد، رحمه الله، القاضي السيد حسين بن الشيخ ابوبكر، الملقب "شلنقات" لتدريس القرآن. وهنا علي الاعتراف بأنني لم أجد في حياتي بكاملها أستاذاً أفضل من الأستاذ سالم في تأدية واجبه. وكان من شيمه، رحمه الله، إنه إذا وجدني غير قادر على استيعاب مسألة ما، كان لا يعد هذا فشلاً لي، بل فشلاً له، فيحاول أن يشرح لي المسألة بكل وسيلة ممكنة، وبفارغ الصبر ودون أدنى غضب، ولا يرتاح من هذه الممارسة ويمتنع عنها إلا عندما يتيقن بأنني استوعبتها. وكان زميلي في دراستي أخي عمر، إلا أن منهجه كان مختلفا عني، وأستاذه كان أحمد باغفار، وكلاهما مدير مدرسة تابعة لدائرة المعارف التي كانت تحت إمرة الشيخ عمر باحشوان (يرحمه الله) الذي كان ناظراً للمعارف في الدولة، وكان خير رجل. ويطيب لي من باب الإفادة أن أقول إنه عندما قرر جدي إرسال والدي إلى الأزهر الشريف، كان من اختياره إرسال السيد حامد بن أبوبكر المحضار وأحد إخوة الشيخ عمر باحشوان الذي هو أحد المرافقين له. إلا أنه شاء القدر في الأخير إلغاء هذا البرنامج بسبب ظروف الوالد الصحية، فلم يسافر، ويتأخر معه احمد باحشوان أيضاً. أما السيد حامد، فسافر وقضى سنتين فيه.

وبعد قضاء فترة، عندما تقرر بأنني جاهز للابتعاث إلى السودان لإكمال دراستي الثانوية في مدرسة "كمبوني" الخاصة، بحكم الظن أن منهجها سيكون أقرب لما تعودت عليه في حيدرأباد، بدأت الاستعدادات لها.

علي الاعتراف بأنني لم أجد في حياتي بكاملها أستاذاً أفضل من الأستاذ سالم عبدالله الحبشي في تأدية واجبه

الأمير غالب خلال دراسته في السودان . ويبدو في الصورة من اليسار (الجلوس): السلطان غالب.
السيد أحمد محمد العطاس (مرافق في الرحلة). سالم عبداللاه الحبشي (أستاذ مرافق).
الواقفون: أحمد صالح باعبود (وكيل الدولة في السودان). حسين بارباع (طالب جامعي).

وتقرر أن يرافقني في هذه الرحلة أيضاً الأستاذ سالم للإشراف علي والتواصل في تغطية دراستي العربية. وإضافة إليه، كان رافقني في هذه الرحلة السيد أحمد محمد العطاس أيضاً الذي كان عيّن آنذاك مفتشاً للألوية في محل السوداني علي حامد، وسبق أنه كان رافق الوالد من قبل في حجه. وهناك لدى وصولنا الخرطوم، قمنا بزيارة السيد هادي المهدي، الذي كتب رسالة لوالدي، السلطان عوض، بعد لقائي به، طالباً موافقته باستضافتي والإقامة لديه في قصره مع أسرته. وكان رافقني في زيارتي له السيد أحمد العطاس أيضاً بمعية أحمد صالح باعبود (القائم بأعمال شئون الطلبة وغيرها) وهو بمثابة وكيل الدولة في السودان. هذا، وكنا قمنا بزيارة الفريق إبراهيم عبود (رئيس جمهورية السودان) الذي أثنى - خلال المقابلة - على الطلبة الحضارم الجامعيين في الخرطوم آنذاك، ومنهم: حسين بارباع وفرج بن غانم، وذلك على عدم مشاركتهم في الأنشطة السياسية المضادة له من قبل الطلبة السودانيين وبأن سلطات الأمن تراقبهم، كما اقترح أفضلية انضمامي إلى ثانوية حكومية بدلا من كمبوني، بصفتها مدرسة خاصة أجنبية وحكومته لم تكن مرتاحة من وجود مدارس خاصة مدارة من قبل أجانب، وقد أثنى على مستوى التعليم في المدارس الحكومية، مضيفاً بأن ثلاثة من أولاده آنذاك يدرسون في مدرسة ثانوية حكومية. وهو ما يعكس مستوى التعليم في السودان آنذاك، وأتذكر أنه عند التحاقي بثانوية الخرطوم بحري، حيث كان يدرس أولاد الرئيس، اكتشفت أن عدداً كبيراً من الأساتذة لمواضيع مثل اللغة الانجليزية والعلوم والرياضيات كانوا انجليزاً. وبالاختصار، تم تسجيلي في هذه المدرسة المذكورة، وتقررت إقامتي بمعية الأستاذ سالم بمنزل وكيل الدولة الشيخ احمد باعبود. وبعد ذلك، عاد السيد أحمد العطاس إلى المكلا، وزارني بعد فترة الشيخ عمر باحشوان (مدير المعارف) لتفقد وضعي وأوضاع الطلبة الآخرين المبتعثين. وكان مدير مدرستي الأستاذ عبدالقادر كرف، الذي شاء القدر أن يتعين فيما بعد أول مدير لأول مدرسة ثانوية في حضرموت في المكلا. فكان من نصيبي أنه يروي بعض الأحيان لطلبته بأنه لم يكن مدير مدرسة سلطانهم فحسب، بل أنه ضربه أيضا، ويذكر السبب لذلك. وهو أنه حصل ذات مرة أنه لم يأت الأستاذ المختص لأخذ الحصة مما جعل الطلبة يأخذون حريتهم في السلوك وبضجة بينما كانت العادة أنه لم يسمع من أي صف صوت أثناء الحصص، فضجتنا وصلت إلى أذني المدير الذي وصل إلى صفنا للاطلاع على سببها وقرر أن يعاقبنا. وبما أنني كنت أصغر طالب سناً وحجماً في الصف وأجلس في ركن في الصف الأمامي، لهذا لم يأت دوري لاستلام العقاب إلا في الأخير وبعد أكثر من أربعين طالبا. وعندما أتى دوري لاحظ المدير حجمي وحجم العصا الكبير الذي بيده، فقرر عطفاً إعفائي من الضرب وذلك عبر استخدام العذر بأنني "ضيف" في بلدهم، إلا أنني أصررت أن يعاملني أسوة بالبقية. وعند ذلك، ضربني ضرباً جعل عيني يدمعان من الحرقة. فبينما أنا كنت نادماً على غبائي في عدم قبول عرضه، إلا أنه كان قد تأثر بتصرفي كثيراً.

وعندما رجعت إلى البلاد في الإجازة الصيفية، كانت رتبت لي زيارة رسمية إلى خمسة من ألوية الدولة الستة: (ماعدا حجر، لأنه لم يكن موسم الخريف الذي تتجمع فيه القبائل). وخلال تلك الفترة، وبدون درايتي، كانت تمت ترتيبات لابتعاثي إلى بريطانيا لمواصلة وإتمام دراستي فيها مع القرار أن يرافقني فيها الأستاذ سالم عبداللاه الحبشي لغرض مواصلة تدريسي اللغة العربية.

وأتذكر أنه أثناء رحلتي إلى الألوية المختلفة، كنت طلبت أن يرافقني فيها السيد أحمد العطاس، الذي كنت متعلقا به. وللمعلومية أن طلبي هذا كان بتشجيع منه. إلا أن المستشار البريطاني آرثر واطس اعترض عليه، ذاكراً بأنه يجب علي بوصفي ولياً للعهد

كان مدير مدرستي الأستاذ (السوداني) عبدالقادر كرف، الذي شاء الله أن يتعين فيما بعد أول مدير لأول مدرسة ثانوية في حضرموت في المكلا

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) في الخرطوم. لابساً الزي السوداني خلال دراسته في عام ١٩٦٠م

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) مع زملائه في داخلية مدرسته الشهيرة عالمياً (ملفيلد) في بريطانيا عام ١٩٦٥م وهو الرابع من اليسار في الصف الثاني. ويبدو في الصف الأمامي مدير الداخلية المستر باري هويسون مع زوجته وطفليه وكلابه. وكان أخوه لوري هويسون ضابطاً سياسياً في حضرموت وثم في عدن وبعد من الأسباب الرئيسية لابتعاث الأمير غالب لهذه المدرسة.

أن أتعرف على موظفين آخرين أيضا من الدولة عن قرب. واختير لهذه المهمة رئيس الجمارك عبدالرحمن خان من جنوب أفريقيا، الذي كان يجيد اللغة العربية نطقاً وكتابة، إضافة إلى الانكليزية كما كان المستشار المذكور.

وبعد سنة في مدرسة تمهيدية، التحقت بما هو أعلى حسب النظام البريطاني، وهي مدرسة ملفيلد، التي تعد من أشهر مثيلاتها في بريطانيا، بل العالم، للإعداد لاختبارات في "المستوى العادي" (الذي يوازي بالتقريب الثانوية العامة)، ثم في "المستوى العالي" بعد سنتين من النجاح في الاختبارات السابقة، وهي أكثر تخصصاً. ومن هناك كنت قدمت للالتحاق بجامعة أكسفورد وبالتحديد كلية مودلين التي قبلتني مبدئياً شريطة أن أحقق النتائج المطلوبة في اختبارات المستوى العالي. وكانت نيتي أيضاً الالتحاق بدورة مكثفة في الكلية العسكرية الملكية بساندهيرست، قبل مواصلتي التعليم الجامعي في السياسة والفلسفة والاقتصاد، علماً بأنه كان أحد المواضيع التخصصية التي اخترتها للاختبار فيها على المستوى العالي كان الاقتصاد. إلا أن صحة الوالد كلفتني على العودة إلى المكلا فور الانتهاء من تقديم الاختبارات. ولدى العودة، قرر، رحمه الله، أن يكلفني رسمياً بعدد كبير من التزاماته ومسئولياته. ومع ذلك، تم التحاقي بجامعة لندن بدلاً من أكسفورد على أن يتم التواصل للدراسة بالمراسلة في القانون والاقتصاد والتاريخ. ومن مشيئة الله أن أكمل دراستي بعد أحداث ١٩٦٧م في جامعة أكسفورد في مجال الدراسات الشرقية، وبعدها في جامعة كمبردج. وبعد التخرج فيها عملت كعضو باحث في مركز الدراسات الشرق أوسطية فيها. ولدى عودتي إلى المملكة وانخراطي

من الدوافع الكبيرة التي كانت تحثني على الإنجاز، والابتعاد عن اللهو، معرفتي بأن الجميع كان يطلع على تقاريري

الأمير غالب بن عوض القعيطي في معسكر القوات البريطانية "الدرشوت" وهو يتلقى تدريبات عسكرية.

في الأعمال، عملت عدة دورات خاصة في لندن ولاهاي للتوجيه والتكييف والتعريف بمعالجة النفط، وفي الشؤون العالمية مع مجموعة شل، كما في جامعة ميدلسكس، وفي معهد للتسويق في كوكهام (بريطانيا). وكان ذلك إضافة إلى دورات في جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية) وفي بيت سوذابيز في الفنون والتحف والنوادر الإسلامية (مخطوطات ورسوم وسجاد ونسيج ومسكوكات وأسلحة وأحجار كريمة ومجوهرات)، وتلقيت دعوات لإلقاء محاضرات في جامعات مثل: جامعة هلسنكي بفنلندا. وخلفيتي بالثقافة المتنوعة جعلت العديد من الطلبة الراغبين للتخصص في الدراسات عن المنطقة لشهادة الدكتوراه، يطلبون المساعدة مني في إعداد رسائلهم، وذلك بالرغم من أنني لم أكن دكتوراً. وإن الذي سيكون غريباً للقراء، أنني وجدت في جامعة أكسفورد - على سبيل المثال - أساتذة بشهادة ماجستير يدرسون دكاترة، ومنهم - على سبيل المثال - المستشرق ألبير حوراني، وذلك خلافاً لتقليدنا وتمسكنا بالشهادات. فكتابة رسالة الدكتوراه تعني لديهم دراسة وبحث في جانب من موضوع بتعمق، ولا شيء إضافي!

وخلال مرحلة تعليمي، من الدوافع الكبيرة التي كانت تحثني على الانجاز، والابتعاد عن اللهو، معرفتي بأن الجميع كان يطلع على تقاريري ومحتوياتها عبر الموظفين الإداريين في سكرتارية الدولة، والذي كان بإمكانهم الوصول إلى الملفات الخاصة بي والاطلاع على محتوياتها وتداولها اجتماعياً. ثم كنت أشعر دائما أنه بما أن الحكومة القعيطية تصرف علي هذه المبالغ الكبيرة التي من الممكن أن تصرف على أفراد أعلى تقديرا مني، فكنت أرى أن علي ألا أخيب الظن والتوقعات. وكانت والدتي - يرحمها الله - مهتمة دائماً بمتابعة نتائجي والضغط علي بعكس والدي، الذي كان ينسى أي تقصير بعد انفعال في بادئ الأمر.

• هناك الكثير من الصور التي في أرشيف حياتكم العملي وأنتم في ريعان الشباب رصدتها الكاميرا في أكثر من مكان وموضع. فلقد كنتم كثير التجوال إلى مناطق حضرموت في سنوات الشباب تلك، فما هي المواقف الصعبة التي واجهتكم مع مواطنيكم وبني قومكم منذئذ؟.

- هذا سؤال مثير للغاية. بينما لم ألاق غير الترحيب الصادق والخالص من أعماق القلوب في جميع المناسبات والمحلات أثناء زياراتي

سوى مرة في خيلة في عام ١٩٦١م وفي رخية في عام ١٩٦٥م. وعلى سبيل المثال في الشمرية في رخية، بلاد اللواء صالح يسلم بن سميدع، كان طُلب مني كما سبق وحصل في خيلة أن تضمن الدولة للأهالي مطاراً وإذاعة وجامعة خصيصاً لهم. وبينما لم أتمكن من الرد على هذه المطالب المقدمة في خيلة بسبب صغر سني، إلا أنني كنت تمكنت من تقديم إجابة معقولة في المناسبة الأخيرة مع شرح لتواضع إمكانياتنا، ثم رمي بعض اللوم عليهم لعدم استجابتهم لدعوة الدولة الموجهة لهم بإرسال أولادهم للمدارس بسبب شكوك وأوهام، مستخدماً اللواء بن سميدع كمثل بارع للفوائد المترتبة على التعليم والانصياع لتوجيهات الدولة بدلاً من الشك فيها، وبالنتيجة أن قلوبهم الطاهرة كانت تجعلهم يندمون على جهل تصرفهم!

وعلي بالذكر، أن الأمر الذي يشغل بالي إلى الآن عندما أعيد الذاكرة إلى تلك الأيام، هي معاملتي منذ صغري كرجل كامل ومسئول دون الأخذ في الاعتبار عامل سني، وذلك حتى من قبل والدي يرحمه الله، دع عنك الموظفين الآخرين، مما كان يرغمني على التقيد بسلوك المسنين المسئولين في جميع المناسبات.

إن الأمر الذي يشغل بالي إلى الآن عندما أعيد الذاكرة إلى تلك الأيام، هو معاملتي منذ صغري كرجل كامل ومسئول دون الأخذ في الاعتبار عامل سني

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) يلقي كلمة في معسكر باسرة عند زيارته التفقدية للواء، دوعن عام ١٩٦١م
ويبدو في الصورة من اليمين: النائب حسن باسرة، القائد ناصر عوض البطاطي (قائد الشرطة القعيطية المسلحة)، الأمير عمر بن عوض القعيطي

• في السلطنة القعيطية الكثير من الشخصيات التي كانت إلى جوارك في تنقلاتك وجولاتك ومشاركاتك في الحياة اليومية العامة، ومنها على سبيل المثال: اللواء صالح يسلم بن سميدع وزير الدفاع في الحكومة القعيطية والشخصية الرياضية والاجتماعية المهمة في تاريخ حضرموت الحديث. هل لك أن تصف لنا خواطرك اليوم عن هذه الشخصية السامقة وغيرها من الشخصيات التي ترى ضرورة إنصافها اليوم؟

- لقد سألتم عن الشخصيات البارزة في الدولة والمجتمع الحضرمي التي كان من حظي أن أتعرف عليها وأتعامل معها، وركزتم في سؤالكم على اللواء صالح يسلم بن سميدع. فمن غير المنصف أن أشير إلى البعض وأترك آخرين. إنما حيث أنها ممارسة لابد منها، لذا، ولكي أحاول أن أجيب عن هذا السؤال، أطلب من الجميع المعذرة على عدم الإشارة هنا إلى العديد من الذين يستحقون ذلك، وهم عديدون ولم أتمكن من الإشارة إليهم.

وابتداء باللواء صالح بن سميدع - رحمه الله - كما طلبتم، وبالاختصار، فأعدُّ اللواء صالح الشخصية المثالية للحضرمي الذكي، الحاذق، المغامر، الذي أشار إليه الأستاذ والأديب الكبير علي أحمد باكثير في بيت شعره المشهور:

ولو ثقفت يوما حضرميا لجاءك آية في النابغينا

فكان - رحمه الله - هو من مواليد قرية الشمرية التي أشرت إليها سابقاً في وادي رخية، وسافر صغيراً إلى جاوا وثم إلى حيدرأباد، حيث انخرط في قواتها المسلحة في قسم الشبيبة (Line Boys)، الذين يصطفون على جانبي السير للمواكب الرسمية. وعندما استلم السلطان صالح

الأمير غالب بن عوض القعيطي عند زيارته التفقدية للواء دوعن، في خيلة. ويبدو من اليمين: الشيخ محمد أحمد بقشان، علي بن بريك (نائب اللواء الغربي - حورة)، القائد ناصر عوض البطاطي (قائد الشرطة القعيطية المسلحة)، النائب حسن باسرة (نائب لواء دوعن)، السلطان غالب، الأمير عمر. ويبدو في أول يمين الصورة الشيخ عبدالله سعيد بقشان.

الحكم ووجه دعوته للحضارم في المهاجر أن يعودوا إلى الوطن، مع ما اكتسبوا من خبرات في مهاجرهم، ليساهموا في رقي بلادهم، واعداً إياهم بأنهم لن يندموا من اتباع هذه الخطوة من حيث المعاملة والمكاسب، كان (ابن سميدع) من أوائل الذين عادوا استجابة لهذه الدعوة، والتحق بالجيش النظامي، ولم تخذله تلبيته نداء السلطان صالح، حيث ترقى إلى أن أصبح أول قائد حضرمي له، ثم أول من حمل رتبة لواء في تاريخ حضرموت. ولو أنه لم يكن مثقفاً ثقافة عالية حديثة، إنما كان خارق الذكاء وصاحب بصيرة ورؤية. وأتذكر أنه لما زرت الشمرية في إحدى رحلاتي التفقدية التي أشرت إليها سابقاً وأنا ولي للعهد ويرافقني فيها اللواء صالح، كانت قُدمت لي طلبات من قبل الأهالي مع الادعاء بأنهم لم ينالوا -كبادية- نصيبهم من الوظائف مثل السكان الحضر. فكان ردي عليهم أن الدولة فتحت لهم فرصاً للانضمام للمدارس الحكومية مجاناً ولكن هم الذين كانوا يشككون في التعليم ومنافعه ويخشون أنه سيغير من أخلاقهم. وأثناء الحديث، كنت أستغل وجود اللواء صالح معي لأشير إليه، وهو صامت ومنحني الرأس ومبتسم، كمثل بارع لنجاح من استمع إلى نداء ودعوة حكومته كما قد ذكرت سابقاً.

وكان اللواء صالح من أوفى الضباط للدولة، ومن الذين يحظون بثقة عالية لدى

كثيراً ماكان يعتني ويهتم الأمير غالب من صغره بأركان الدولة ويتقرب اليهم. وتبدو الصورة في الشحر في حصن دار ناصر خلال زيارة الشحر السنوية عام ١٩٦١م. ويبدو في الصورة من اليمين، القائد صالح يسلم بن سميدع (قائد الجيش النظامي)، الأمير غالب، ووكيل قائد دسوندي خان (رئيس الفرقة الموسيقية السلطانية)

أعدّ اللواء صالح الشخصية المثالية للحضرمي الذكي، الحاذق، المغامر

المستشارية أيضاً، فكان يجيد كيفية التعامل معها وتوقعاتها منه، وهو حريص ألا يخيب ظنها فيه. وأتذكر أن بعثته الحكومة البريطانية - ذات مرة وعلى حسابها - لزيارة عدة مرافق عسكرية بريطانية. وكنت فوجئت في داخليتي (مكان سكني كطالب) لما فاجأني بزيارة خلالها لابساً كوت وبرنيطة، ويرافقه فيها ضابط انجليزي يترجم له ويخاطبه بلقب "سيدي"، وكان هذا مصدراً للمزح بيننا. وعلي بالتوضيح عن دوره في حادثة القصر في عهد السلطان صالح، إنه عندما حاولت بعض العناصر الشريرة إغلاق سدة المكلا، أوعزت المستشارية إليه كقائد الجيش النظامي بالتحرك السريع لإنقاذ الموقف. ولما وجد السدة مسدودة أمامه، لم يكن منه إلا أن يتسلل مع فرقة من الجنود من فوق الجبل الذي خلف المستشارية لمحاولة السيطرة على الفوضى وليصل إلى المتظاهرين. وعندما رأى ازدياد الفوضى دون التمكن من السيطرة، قرر أن يأمر بإطلاق طلقة تحذيرية في الجو لتخويف الحضور، إلا أن نتيجة تلك الخطوة كان المزيد من التحريض من قبل بعض العناصر التي أطلقت النار من مسدسات كانت بحوزة بعضهم ومهاجمة الصف العسكري محاولة نزع السلاح من أيديهم مع استخدام شتائم مستفزة تستحقرهم وتثير حميتهم كقبائل ولم تكن لهم أدنى خبرة قط في مواجهة أوضاعا كهذه. فقام الجنود بإطلاق الطلقة الثانية، مصوبين نيرانهم هذه المرة على الأرض والتي أصابت - كما يتوقع - أقدام المتظاهرين مما خلق فوضى عارمة، سقط فيها العديد عند محاولتهم الجري لإنقاذ أنفسهم وبالنتيجة أن أصيب عدد كبير منهم في أرجلهم، ولدى سقوطهم في أماكن مختلفة من أجسادهم، والتي أودت بأرواح عدد كبير منهم كما هو معلوم. وبما أن السكان الحضر في المدن عموماً كانوا ينظرون إلى البادية بعين الشك والخوف بسبب التعرضات لهم سابقاً من هذا القسم من السكان، فأصبح اللواء صالح هدفاً أضافياً لنقد الحضر.

وبالاختصار، كان المذكور من الناصحين المخلصين. فكنت عينته خلال الربع الثاني من ١٩٦٧م رئيساً تنفيذياً يمثلني في صدارة اللجنة الأمنية التي كنت شكلتها بالاتفاق مع المستشار، وهي تأوي ممثلين من قادة جميع الوحدات العسكرية في حضرموت بما فيها جيش البادية، وذلك بعد حادثة "تبادل" إطلاق النار بين جيش البادية وحرس القصر يوم تقديم الرئيس جمال عبدالناصر

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك)، في زيارة نيابة عن والده، لوالي عدن السير وليم لوس عند زيارته للمكلا عام ١٩٦٠م ويبدو في الصورة في مبنى المستشارية: على يسار السلطان المستشار المقيم أرثر واطر وعلى يمينه والي عدن السير وليم لوس

استقالته من الرئاسة بصفته المسئول الأول عن نكسة حزيران ١٩٦٧م، وقامت عليها مظاهرات في العالم العربي بشامله بما فيها المكلا، مظاهرات تطالبه بالبقاء في منصبه. والذي حصل في المكلا أنه عندما دخل المتظاهرون عنوة إلى داخل حوش مجمع المستشارية عنوة، التي كانت تحرسه من الخارج آنذاك حراسة خفيفة من الجيش النظامي رعاية لكراهية الأهالي للجيش البدوي، ولم تستطع هذه الحراسة المشكلة من جندي على كل مدخل من مدخليها أن تمنعهم من الاقتحام، وقام بعض المتظاهرين بالاعتداء على السيارات وإشعال النار فيها، أطلق عند ذلك جنود جيش البادية من رأس الجبل خلف المستشارية طلقات "طفف" لتخويفهم. وبما أن القصر كان مواجهاً للمستشارية، فاعتقدت حراسة القصر السلطاني، في ذلك الجو المفعم التالي للنكسة والدعاية بأنه كان لبريطانيا أيضاً دورٌ فيها، بأن هدف إطلاق نارهم على القصر، فلم يتمكنوا من السيطرة على أعصابهم وقاموا بالمقابل بصب نار كثيف على مقر المستشارية الرئيسي، بحيث أن غرفة نوم المستشار وزوجته بحالها أصيبت في داخلها بما لا يقل عن ٦٠ طلقة عبر شبابيكها الخشبية. ولم يتمكن أو يحاول الضباط السيطرة على الموقف. فعندما لاحظت ذلك الوضع، نزلت بنفسي إلى ساحة القصر لأصرخ بأمر وقف أطلاق النار فوراً. وعندما رأى ذلك الضباط، وبينهم القائدان أحمد عبدالله اليزيدي وناصر عوض البطاطي بمعية ضباط آخرين مثل فرج عبدالحبيب الجهوري، وقائد الشرطة أحمد بن منيف، بدأ إطلاق النار يخفف، وظهر هؤلاء من مخابيهم في القصر

عند نكسة حزيران ١٩٦٧م، قامت عليها مظاهرات في العالم العربي بشامله بما فيها المكلا، مظاهرات تطالب (جمال عبدالناصر) بالبقاء في منصبه

للمساهمة في تطبيق الأمر. والجدير بالذكر أنه لم تصب طلقة واحدة من الجيش البدوي أي جزء من بناية القصر ما سوى الحائط الخارجي الملاصق للشارع الرئيسي حيث كان المتظاهرون، كما لم يصب أي جندي، سواء من جيش البادية أو حراسة القصر!.

وإضافة إلى ذلك، علي بالذكر، أن اللواء صالح ابن سميدع كان مرافقاً لي وناصحي في زياراتي، ولو بتحفظ. وكان من عادته أنه لا يقدم رأيه إلا عندما يطلب منه ذلك، إنما علاقته معي كانت بدأت تشجعه على مخالفة هذا المبدأ. وعلى سبيل المثال، لما لاحظ نتائج زياراتي التفقدية، فكان قرر أن يشجعني على القيام بالمزيد منها وباستمرار، مكرراً النصيحة أنها لو تواصلت، فهي تساعد في زرع حيوية في سير النظام وتؤدي دوراً محفزاً للموظفين المخلصين وتردع وتخوف المفسدين. وبما إننا كنا نعلم جيداً بأن الحضارم لا يريدون الانضمام إلى أي كيان سياسي، فكنت طلبت منه سراً أن يعد خطة دفاعية لصد أي هجوم مزمع من الغرب ضد الحدود الحضرمية، إلا أنه بعد رئاستي لأول جلسة للجنة العسكرية التي شكلتها سرياً لهذا الغرض، والتي كانت مكونة من قادة القوات المسلحة، لم يتم تحقيقها، وسبقتنا الأحداث مع طلب بريطانيا مني السفر إلى جنيف لمقابلة لجنة هيئة الأمم لاستقلال المنطقة، علماً بأنه لم يتسع لي رفضه، بسبب اتفاقية الاستشارة المبرمة بيننا وبينها، والتي كانت تحتمني على قبول كل مشورة رسمية تقدم لي من قبلها، مع الافتراض بأنها في صالحي وصالح الشعب.

وكان أبناء اللواء صالح (محفوظ وفائز) من زملائي وأخي في صغرنا، حيث إنّ سنّهما كان مقارباً لسننا وكنا نلعب معهم ومع أولاد الضباط والعسكر كرة القدم في ميدان مقر الجيش النظامي (الرجمنت)، (الرزميت). ومع الذكر المطول للواء صالح، رحمه الله، علي أن أثني على عدد كبير من الشخصيات في عهدي جدي ووالدي إضافة إلى عهدي من أعيان ومناصب ومقادمة ومستشارين وموظفين المدنيين منهم والعسكريين، لا يمكن

إحصاؤهم، وعليكم بشمول ذكرهم في نشرتكم إن رأيتم لذلك مجالا. فمع طلب المعذرة، وبكل تواضع على أي تغافل أو تجاهل، يهمني أن أذكر أعضاء مجلس الدولة ورؤساء الدوائر الحكومية والنواب والقوام وقادة الجيش والشخصيات الأخرى في المجالات الحيوية الأخرى، الثقافية والرياضية (من التابعين للأندية وغيرهم)، ومنهم من باب التلخيص وليس الإحصاء: المرحومان الشيخ عبدالله عوض بكير، الشيخ أبوبكر بارحيم مع أولاده لاسيّما خالد الذي كان مهتماً في عهدي غاية الاهتمام بنمو البلاد من جوانب تجارية وسعى جاداً لغاية التنسيق معي لإحضار شركة "أجيب" الإيطالية للتنقيب عن النفط وأخيه الدكتور غازي الذي كان معاصراً لي أيام دراستي في السودان وأسرة آل بارحيم كافة، والشيخ عمر باسويد، والشيخ أحمد سالم باحكيم (وبعض من أفراد أسرته الذين كانوا يلعبون معي)، الشيخ أحمد بن ناصر البطاطي (مع ابنيه حسين وجويد)،

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) يلقي كلمة في الرزميت نيابة عن والده في يوم القوات المسلحة عام ١٩٦٤م خلال فترة إجازته المدرسية. ويبدو في الصورة من اليمين: المستشار المقيم المستر وايز، السلطان عوض بن صالح القعيطي، السلطان غالب، الأمير عمر.

جريدة "الطليعة")، وجميع مناصب حضرموت، وعلى رأسهم: المنصب الجليل السيد أحمد بن علي بن الشيخ ابوبكر بن سالم، القائد أحمد عبدالله أفندي (ضابط في الجيش النظامي، ثم قائد خفر السواحل، وقد كان

خلال رحلة سابقة له إلى حضرموت في عهد السلطان عمر، لما نزل ضيفاً على سالم بن أحمد وعين مرافقاً له من قبله في رحلته. وكان المذكور مطلعاً على تاريخ حضرموت القديم أيضا بسبب غزارة ثقافته التقليدية، يعد المصدر الأساس لجميع معلومات إنجرامس عن حضرموت. ومما يدل على شخصيتهما ونوعية العلاقة بينهما بعض الشيء، أن أنجرامس عندما أحس بأنه متمكن، فتح ملفاً خاصاً لمعلومات السيد عبدالقادر أطلق عليه تسمية "قنابل بافقيه". وعن اعتماد الدولة على السيد عبدالقادر في عهد السلطان عمر أنه كلف بترتيب كتاب رسمي مزيّن بالصور عن رحلته إلى حضرموت الذي لم يطبع لسوء الحظ بسبب مرض ووفاة السلطان عمر، ومن هذه الشخصيات: محفوظ صالح لرضي، سالمين خيره (الذي عاصر جميع السلاطين من أواخر عهد السلطان عوض بن عمر)، عبيد بن سنكر،

كانت نتيجة الإصلاحات في مجالات التعليم أن خريج المدرسة الوسطى بالغيل أصبح ينطق اللغة الانجليزية بمستوى أعلى بكثير من خريجي عدد من الجامعات العربية اليوم

الشيخ عبدالله بن أحمد الناخبي مع ابنته الموقرة فاطمة، وكان المذكور أول وخير معلم لي في تاريخ الأسرة وحضرموت، والتاجر محمد سعيد الناخبي (مع ابنيه محسن وصالح مع الإفادة بأن محسناً كان يقدم لي المشورة في بعض الأحيان تطوعاً منه كمواطن مخلص)، التاجر أحمد عمر بازرعة؛ ومن النواب الشيخ حسن قحطان النقيب، والمقدم أحمد "القبيلي" باصرة، والشيخ حسن باصرة، والشيخ عبدالخالق عبدالله البطاطي، الشيخ علي محفوظ بن بريك، الشيخ علي محمد العماري (الذي كنت أكن له تقديراً استثنائياً بسبب إنجازاته وأسلوبه في عمله)، عمر باصالح، بدر بن أحمد الكسادي، عبدالله بن دغار، المقدم عبدربه اليزيدي، عمر مثنى، محمد عبدالقادر بامطرف، الشيخ عمر باحشوان وأخوه أحمد، هادي بهيان، الشيخ علي محمد النقيب، القائم مصطفى سميط، عمر باهرمز، أبوبكر لعجم (ابنه كان معاصراً لي في السودان)، سالم محمد شماخ، السيد محمد بن أحمد الشاطري، مسلم بلعلا، الشيخ صالح حبيب بن علي جابر، الشيخ سعيد عوض باوزير وأخوه أحمد عوض باوزير (صاحب مصدراً تاريخياً)، السيد أحمد شرف الذي كان رئيس الشرطة المدنية، ثم مرافقاً لوالدي ومديراً لشئون القصر، الشيخ محمد باصفار، أحمد وعلي ابنا سالم باعشن، ومن الأعيان ومقادمة الحارات المقدم سالم أبوبكر باغويطة وغيره ومقادمة الحاشية، الشيخ سعيد والشيخ عبدالله ابنا علي بامخرمة (كان الشيخ سعيد من ابرز الشخصيات في سلك القضاء)، والشيخ عبدالقادر العماري، والشيخ

كانت لدى آل الكاف - هذه الأسرة الكريمة والفاضلة والمحبة للوطن - فكرة تأسيس شركة مساهمة لوضع خط سكة حديد من الشحر إلى الداخل

عبدالقادر بن علي الحاج، والسيد عبدالقادر بافقيه كان مساعدا مقرباً لسالم أحمد القعيطي (نائب السلطان عمر)، ثم لما أبعد المذكور من الحكم بعد تولية السلطان صالح بن غالب، قرر انجرامس الاستفادة من السيد عبدالقادر ليعرفه على جميع شئون حضرموت وخلفياتها التي كان المذكور على خير معرفة بها بسبب اقترابه من سالم أحمد، علماً بأن إنجرامس كان قد تعرف على السيد عبدالقادر

سالم الأغبري، أحمد محمد الفردي (من الشخصيات الرياضية)، ومن الفنانين محمد جمعة خان، وعبدالقادر جمعة خان (قائد فرقة الموسيقى)، كرامة سعيد مرسال، عبدالرب أدريس، محمد بن شامخ، الذين كانوا يحظون بتشجيع من والدي، وعدد كبير من الشعراء الشعبيين وغيرهم وعلى رأسهم السيد حسين ابوبكر المحضار، سعيد فرج باحريز، وكانت معرفتي بهؤلاء جميعاً من عهد والدي.

أما الذين كان لهم دور بارز في عهدي وفي التعامل معي إضافة إلى الذين سبق ذكرهم، فمن أهمهم السيد أحمد محمد العطاس الذي أدّى دور معلم لي في صغري في التعرف على خلفية شئون وشخصيات البلاد بكل حرية، خلال مرافقته لي في رحلاتي وعندما كان يرسل من قبل الوالد إلى عدن لاستقبالي وأخي عمر عند عودتنا من الدراسة لقضاء الإجازة، وكنت أراسله، وورثته - فيما بعد - وزيراً لي، عبدالرحمن بازرقان، السيد عبدالله محفوظ الحداد (رئيس المجلس العالي)، الشيخ عبدالرحمن بكير، عبدالله باحويرث (مستشار الحكومة لشئون العشائر، الذي كنت أكن له تقديراً خاصاً)، محمد عبدالقادر بافقيه، القائد سالم عمر الجوهي (الذي كان ضابطاً حضرمياً وفياً بالرغم من ما أمر بتنفيذه)، الضابط محمد عبود الكثيري، جعفر الكثيري، والكثير من زملائهم من ضباط وجنود من الأوفياء في الجيش النظامي، القائد ناصر عوض البطاطي وضباط وجنود الشرطة القعيطية المسلحة (ومنهم الرئيس عمر العيدروس)، القائد أحمد بن منيف (الشرطة المدنية)، القائد محسن المرفدي، والضابط أحمد (الملقب "القلي")، الشيخ حسين محمد بن حطبين البعسي، فرج عبدالحبيب الجهوري، سلمان الكلدي، السيد علي بافقيه (صاحب جريدة "الرأي العام")،عاشور فرج خنبري (مصوراتي)، غانم (مصوراتي)، أحمد

آخر صورة للأمير غالب بن عوض القعيطي قبل توليته الحكم

سعيد الحضرمي، سعيد عبدالخير النوبان، فرج بن غانم، الضابط مبارك عبدالله الجوهي، ووكيل قائد سعيد باقروان، عيسى مسلم بلعلا، السيد عمر محمد العطاس. ومن أبرز المقادمة الذين لم يسبق ذكرهم محمد بن بقصة بن قطيان الكربي، حمد بن ناصر الجبري، عسكر بن سالم الكربي، الحكم علي بن صالح بن ثابت، الحكم مبارك بن محمد بن عجاج، الشيخ ربيع بن صالح بن عيشان، المقدم محمد سعيد الجوهي، المقدم مانع بانياب العوبثاني، الحكم محسن بن نهيد، سالم بن صالح بن ثابت، الشيخ سالم محمد بن علي جابر، المقدم العبد بن علي التميمي، الحكم يسلم باهيصمي، التاجر عبدالله عبيد بامطرف وإخوانه، الرسام علي عوض غداف، سالمين بن حسين الحضرمي، ناصر ومحمد عمر مخارش، الضابط أحمد نوح، عبدالله وعمر وكرامة بن عاشور، فؤاد بارحيم، صالح بن عكظه، إضافة للعديد من المناصب والمقادمة والمشايخ والشخصيات الاجتماعية الأخرى. وهذه بعض الأسماء التي جاءت على لساني، كما علي بالذكر أيضاً أنه كان للبعض منهم

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد) في عام ١٩٦٥م يقلد وساماً للسيد أحمد شرف (رئيس الشرطة المدنية وبعدها مدير شئون القصر) نيابة عن والده السلطان عوض بن صالح القعيطي

وللأسف أدوار سلبية في الأخير. ونسأل الله للجميع المغفرة وهو سميع الدعاء.

• من المعلوم تاريخياً أن فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، زمن جدكم السلطان الموسوعي صالح بن غالب القعيطي، هي البدايات الحقيقية لما أطلق عليه مشروع النهضة الحضرمية، ففيها تم توقيع صلح (أنجرامس) السلام الحضرمي بين القبائل، وعبدت الطرق القبلية من الوادي إلى الساحل، وبدأ انتشار التعليم وابتعاث الطلاب للدراسة بالسودان ومصر، وانتشرت الأندية الرياضية والانتخابات البلدية والمؤتمرات الحضرمية لتوحيد الجغرافيا الحضرمية في كيان واحد، كيف تنظر لهذه السنوات وأين تضعها اليوم في سياق التاريخ الحضرمي المعاصر؟.

- لقد تكرمت بالإجابة بنفسك عن كثير من جوانب سؤالك الكبير والمتعدد الجوانب. إن عهد السلطان صالح ابتدئ بالسنوات التي سبقت استلامه الرسمي لمقاليد الحكم، حينما كان ينوب عن عمه السلطان عمر. وفترة عهد السلطان صالح تعد أهم فترة في تاريخ حضرموت الحديث، حيث وضعت خلالها جدياً الأسس الراسخة المتينة لبناء دولة نظامية بمؤسساتها وفقاً للمفاهيم الحديثة لتطور ورقي حضرموت دولة وشعباً. وكان من حسن حظ حضرموت أنه وجد لصدارة هذه المرحلة الحاسمة شخصية ذكية ونادرة مثل السلطان صالح الذي بعلمه ومعرفته وخبراته الدولية، النظرية منها والعملية، استطاع تأدية الدور المطلوب منه آنذاك. كما أنّ له أدواراً فريدة ورائعة على المسرح الإسلامي أيضاً مدعوماً فيه بأسفاره ولقاءاته مع شخصيات علمية بارزة خلال ذلك العصر. وقلّ من يعلم أنه كان على اتصال بشخصيات مثل: سيد قطب، ورشيد رضا، عبدالرحمن عزام باشا، والبروفيسور عبدالوهاب عزام، وعلماء الشام وشبه القارة الهندية بما فيهم شخصيات بريطانية خبيرة في مجالات مختلفة التي كانت توجد فيها. فكان رحمه الله، يحاورها ويستفيد من أفكارها وخبراتها ويدرس إمكانيات وكيفية تطبيقها في بلاده. وكان يعد العلم والتربية مفتاحاً لجميع خزائن الحياة. لذا، كان تركيزه، بالأول، على تحسين أوضاع الرجال والنساء في بلاده عبر التثقيف باستخدام جميع الرسائل التليدة والحديثة رغماً عن ضآلة الإمكانيات.

وعلى المسرح الدولي، فلنكتفي هنا بالإشارة

إلى بعض من أبرز مجهوداته. فعلى سبيل المثال، عندما حج للمرة الثانية في نهاية العشرينيات الميلادية، قرر أن يساهم في تحسين الأوضاع المعيشية المتواضعة في الحجاز وبطالة الأهالي في الأشهر خارج الموسم. وبعد تفكير وتبادل الرأي مع شخصيات رائدة أخرى، عزم على تأسيس منظمات في ديار الحرمين (ابتداء بالمدينة المنورة) لتدريب الأهالي على نسج أقمشة الإحرام كصناعة حرفية في المنازل خلال الأشهر الخارجة عن الموسم، مع ضمانة سوق لها في الخارج لشراء ما قد يتبقى من الإنتاج بكامله، إضافة إلى حاجة السوق المحلي. وعند بلورة هذه الفكرة والمشروع، كان قد عرض على جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في مكة المكرمة أن يمنح له حق تأسيس ما عرف في المدينة بتسمية "دار الصناعة" لتدريب أهل المدينة على هذه الحرفة. فرحب الملك عبدالعزيز بهذه الفكرة شريطة أن يكون مشروعاً خيرياً. فأسس "دار الصناعة" هذه المشار إليها، واستمر في عمله إلى مؤخرة الأربعينيات (أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية)، حين طمس على جدواه الاقتصادية الدخل من النفط. ثم هناك مشروع آخر خارج ديار الوطن من الممكن الإشارة إليه هنا، وهو سعيه لتأسيس جامعة إسلامية باسم "دار العرفان" في حيدرأباد، وكان قد وصل المشروع إلى مرحلة اختيار موقع له مع وضع منهج دراسي للدورات على اختلاف المستويات. إلا أنه لم ينفذ بسبب سقوط مملكة حيدرأباد بيد القوات الهندية في عام ١٩٤٨م. وكان هناك مشروع آخر مرتبط به، والذي لم يذكر عنه، وهدفه نشر اللغة العربية إلى كافة الديار الإسلامية التي لا تنطق بلغة الضاد، وإلى مستوى يجعلها لغة التعامل الرسمي بينها، مثل دور اللغة الانجليزية الدولي حاليا. وكان المشروع يتمخض في تشجيع الشباب، ابتداء بشبه القارة الهندية بحكم أنها كانت أعلى نسبة في الكثافة السكانية للمسلمين على تعلم اللغة العربية عبر إيجاد مؤسسات لها في كل حارة وفقاً لمنهج وعقد اختبارات رسمية عند اختتام الدورة مع توزيع شهادات. ولو أن هذا المشروع نجح في مشروعاته لتخرج أكثر من ٨٠٠٠٠ (ثمانين ألف) طالب في الاختبارات، إلا أنه لما استقلت الهند من الاستعمار البريطاني وأصبحت دولة علمانية، وبها انتهت صلات الأسرة القعيطية الرسمية ببلاط حيدرأباد، فلم يستمر نمو هذا المشروع وفقا للخطة المرسومة، علماً بأنه كان لعلماء مصر وأزهريين آخرين من الهنود دور بارز بشراكة علماء الهند برئاسة السلطان صالح في تأسيس وتفعيل هذا المشروع. ولقد سمعت من بعض الذين عاصروا تلك الأيام بأن مجالس السلطان صالح اليومية بعد العصر والحديث المتداول خلالها بين الخبراء والعلماء في كل مناسبة كان بمثابة محاضرات جامعية في مجالات شتى. ومن الذين أكدوا لي ذلك السيد حامد بن ابوبكر المحضار، الذي كان يتلذذ حينما يتذكر ويروي عن المناقشات للمسائل الفقهية على سبيل المثال التي كانت تنال اهتمامه. وهناك صور فوتوغرافية متوافرة إلى الآن، ولله الحمد، التي تؤكد ما سلف أعلاه، وإن أصاب مرور الزمن ذكراها بالنسيان.

هذا من جانب. إنما دعونا نعود إلى مسألة القرار لتقوية الروابط مع دولة عظمى التي بإمكانها أن تساعد حضرموت في تحقيق آمال أبنائها في البلاد والمهاجر مرؤوسين بنخبتهم الفكرية من الأعيان. وليكن معلوماً أن هذا القرار، كان قراراً جماعياً، ونتيجة لاجتماعات ولقاءات عريضة القاعدة عبر فترة

مشروع دار الصناعة في المدينة المنورة الذي أسسه السلطان صالح سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م

السلطان عوض بن عمر كان من أكبر المتبرعين في الشرق الأوسط لمشروع إنشاء سكة حديد الحجاز. وهذا المشروع الخيري أغضب الحكومة البريطانية كثيراً

السلطان صالح بن غالب القعيطي في زيارة لمصر في ١٩٢٨م. ويبدو السلطان في الصورة جالساً وعلى يمينه عبدالحميد البكري ورشيد رضا (صاحب جريدة المنار) وإلى يساره احمد شفيق. ووزير السلطان. ورئيس غرفة تجارة وصناعة إيران في مصر.

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) ١٩٦١م. ويبدو الصورة يلقي كلمة في مدينة شبام في جمع من الأهالي والأعيان والمرافقين الرسميين له في الرحلة. ويبدو في الصورة (الجلوس) من اليسار: النائب علي باصالح وخلفه عمر باهرمز، الدكتور حسين (المشرف على مستشفى شبام والشؤون الصحية في الثواء)، الأمير عمر بن عوض، الأمير غالب، عبدالرحمن خان

مديدة من الزمن، وذلك من عهد السلطان غالب، ولو أن أهمها كانت تلك التي عقدت في عهد السلطان عمر بصدارة ولي عهده ونائبه السلطان صالح، وسلاطين آل كثير (علي بن منصور وعبدالله بن محسن) وعلى رأس القائمة مؤتمر الشحر المنعقد في ربيع الثاني ١٣٤٦هـ الذي ساهم فيه أعيان من جميع الأطياف الاجتماعية، من مناصب ومقادمة وشخصيات روحية وتجارية أخرى مع تمثيل للمهاجر، حين قرر بأنه لابد من اتخاذ خطوات تضمن تحقيق آمال وفلاح الجميع. وعليه تم انتخاب الشخصية الحجازية النشطة لإجراء إصلاحات في جميع ربوع العالم الإسلامي الطيب الساسي للذهاب إلى المهاجر سفيراً من قبل المؤتمر لشرح الأفكار المتداولة فيه وأخذ التأييد لأهدافه. وكان على رأس هذه الشخصيات التي حضرت المؤتمر وأدّت دوراً بارزاً ومؤثراً في تداولاته الأثرياء الأخيار آل الكاف. فكانت اتفاقية الاستشارة هذه الناتجة للتفكير أنه لا بد من طلب العون من دولة عظمى صاحبة إمكانيات (وأفضلها وأنسبها في المنطقة بريطانيا) لتحقيق هذه الأهداف. وثمنها بالمقابل كان الدخول في هذه الاتفاقية التي طلبتها بريطانيا، وهي لم تختلف كثيراً في نصوصها عن اتفاقياتها الأخرى مع عدد كبير من الدول العربية والإسلامية، وغيرها في ذلك العصر لتحقيق الهدف المنشود، لأنه لم تكن لدى حضرموت الخبرات والإمكانيات لتحقيق ما كانت تريده. وتالياً للتوقيع على اتفاقية الاستشارة، لقد طلب السلطان صالح مساعدة بريطانيا في مجالات تطوير الصناعات الحيوية التي تنقص الحضارم خبرة حديثة فيها مثل: الزراعة والأسماك والتدريب في مجالات تحديث الجيش لصيانة الأمن، والصحة والتعليم الحديث، وجلب المدرسين الأجانب للتدريس، وإرسال البعثات للخارج. فكانت النتيجة الإصلاحات في مجالات التعليم بحالها بعد فترة وجيزة من توقيعها أن خريج المدرسة الوسطى بالغيل أصبح على سبيل المثال ينطق اللغة الانجليزية بمستوى أعلى بكثير من خريجي عدد من الجامعات العربية اليوم. ومن ابرز أمثلتها أستاذي سالم عبدالله الحبشي والطلبة من خريجي مدارس حضرموت الذين التقيت بهم في السودان مثل: فرج بن غانم وحسين باراع وغيرهم.

ثم لو راجعت تبادل القصائد ما بين صلاح أحمد الأحمدي المعارض لهذا التوجه حول الدخول في روابط أقوى مع بريطانيا والرد عليها من محمد بن هاشم السقاف وبعض الشعراء الذين كانوا يكتبون باسم الشاعر المجهول "الفرزدق" (وهم في الغالب السيد أبوبكر بن شهاب إلى أن توفي في ١٩٢٢م وحسين بن عبدالله القعيطي المتوفى في ١٩٢٦م، وأيضا صلاح أحمد الأحمدي)، نجد أنها تلقي الضوء الكافي على الفكرين المتصارعين آنذاك بين الحضارمة، حول أمر الاقتراب الرسمي بهذا الشكل إلى دولة عظمى، والتي لم تخدم مصالحنا من أجل سواد عيوننا إن لم تستفد أيضاً من خلفها.

عهد السلطان صالح يعد أهم فترة في تاريخ حضرموت الحديث، حيث وضع خلالها - جدياً - الأسس الراسخة المتينة لبناء دولة نظامية بمؤسساتها وفقاً للمفاهيم الحديثة لتطور ورقي حضرموت دولة وشعباً

بالاختصار، كان لثقافة وخبرة السلطان صالح الموسوعية دور كبير في ما تم. وعلى سبيل المثال، فلقد قال إنجرامس بنفسه بأنه كان يتلذذ عندما يسمع السلطان صالح يذكر له: "يا مستر إنجرامس أنا أريد مساعدتك في كذا وكذا....." ويحصي له المجالات ويحدد له المطلوب في كل أمر بدقة. ولنفكر هنيهة ونقارن سن وثقافة السلطان صالح بضابط إنجليزي بثقافة عادية في مؤخرة العشرينيات من العمر والمبتعث إلى منطقة متخلفة ومفتقرة مثل حضرموت! فالسلطان ورفقاؤه لم يقبلوه ومن ولاّه في منصبه، وبالتعاون معه إلا سعياً وراء حصول المساعدات المرتقبة من الحكومة البريطانية، وبالتالي فهؤلاء كانوا يستمدون أهميتهم في المجتمع الحضرمي كممثلين ومنسقين له من طرف حكومتهم.

الأمير غالب بن عوض القعيطي يلقي كلمة شكر في عينات في ضيافة المنصب الحبيب أحمد بن علي بن الشيخ أبوبكر بن سالم عام ١٩٦١م. وذلك خلال زيارته التفقدية لألوية السلطنة

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) في زيارة لسيئون ضيفاً على السلطان حسين بن علي الكثيري عام ١٩٦١م في قصر عزالدين. ويبدو في الصورة من اليمين: الأمير عبدالمجيد بن علي الكثيري، الأمير عمر بن عوض القعيطي، وخلفه علي باصالح (قائم بأعمال نائب شبام)، السلطان حسين بن علي الكثيري، السلطان غالب بن عوض القعيطي، عبدالرحمن خان (رئيس مصلحة الجمارك من جنوب افريقيا)، وزير السلطنة الكثيرية الأمير أحمد بن جعفر بن منصور الكثيري.

فكانت مشاريع الطرق وغيرها، مشاريع حضرمية خالصة، وذلك من أيام السلطان غالب ثم السلطان عمر. وعلى سبيل المثال، فلقد تم بناء الطريق الشرقي من الشحر إلى الوادي بمساعدة مالية كبيرة من آل الكاف وتم تنفيذ غالبه في عهد السلطان عمر بن عوض بإشراف نائبه في الشحر سالم بن أحمد القعيطي. وهذا أمر يشير إليه إنجرامس بنفسه في تأليفه، ولو بصفة نقدية منهما سالم بن أحمد بأنه كان يستفيد شخصياً من ميزانيتها.

وكانت لدى آل الكاف - هذه الأسرة الكريمة والفاضلة والمحبة للوطن فكرة لتأسيس شركة مساهمة لوضع خط سكة حديد من الشحر إلى الداخل أيضاً وقامت بدراسة مبدئية لجدواها من نواح تجارية أيضا. وبما أننا بدأنا نتكلم عن مشاريع لإدخال خطوط سكة حديد في حضرموت، فيجب علي أن الفت انتباه القراء إلى أنه كانت لدى الأسرة القعيطية خبرة في هذا الشأن، اكتسبتها عندما ساهمت في مشروع في شمال غرب مملكة حيدرأباد يسمى "مشروع شاندا للسكة الحديدية"، والذي لم ينفذ بسبب ضغوط بريطانية. وكان ذلك في عهد السلطان عوض بن عمر القعيطي الذي كان عبّر عن استعداده ليساهم فيها بعشرة مليون روبية!

ويجدر بالذكر أيضاً هنا عن السلطان عوض بن عمر بأنه كان من أكبر المتبرعين في الشرق الأوسط لمشروع إنشاء سكة حديد الحجاز. وهذا المشروع الخيري الذي أغضب الحكومة البريطانية كثيراً سراً، وأصبح مصدر قلق وارتباك شديد لديه ونجله السلطان غالب بن عوض (الذي كان ينوب عنه) وذلك عندما علما عن عدم ارتياح بريطانيا من تنفيذ هذا المشروع. وكانت خطة الدولة العثمانية توصيل هذا الخط إلى تعز. وكان من حلم السلطان عوض توصيله من عدن إلى الشحر كمشروع تجاري، إلا أن التطورات الدولية والسياسية والأحداث الأخرى لم تساعد في إنجاح الخطة العثمانية، وأهمها انفجار الحرب العالمية الأولى، وتمرد الشريف حسين بن علي - يرحمه الله - على نظامها. فلم يتجاوز المشروع المدينة المنورة التي كانت آخر محطة له، بينما كانت الخطة مد الخط إلى مكة المكرمة، ثم جنوباً إلى اليمن (جزء من الدولة العثمانية). والجدير بالذكر أيضاً أن القائد العثماني علي سعيد باشا كان قد مد خطاً من اليمن إلى لحج التي كان احتلها خلال الحرب العالمية الأولى.

أما انتشار التعليم الحديث في حضرموت، فكان للمساعدة البريطانية دور كبير فيها، حيث إنها كانت ساعدت بربط النظام والمناهج في حضرموت التي كانت أدخلتها في السودان. وتلاحظ أنه بعد سنة من تولي السلطان صالح، كانت ميزانية الدولة القعيطية ضعفي ما كانت تصرفه الحكومة البريطانية على بند المعارف في مستعمرة عدن بذاتها. وفي هذا ما يدل على الأهمية التي كان يوليها السلطان صالح للتعليم.

وأما بالنسبة لما سمي بـ"صلح إنجرامس"، فدون التخفيض من انجازات إنجرامس في حضرموت، علينا أن نعلم في الحين نفسه أن هذه التسمية كانت أطلقت عليه تكريماً له بمناسبة زيارته لحضرموت كممثل لدولة عظمى يريد السلطان والحضارم الاقتراب منها، وتمهيدا لبداية مرحلة جديدة من العلاقات الودية معها ومع ممثلها. فهل تعتقدون أنه دون دور ودعم الشخصيات الحضرمية القبلية والروحية التقليدية أنه سيكون هناك قبول لشخصية أجنبية لدى القبائل الحضرمية ! فكان على سبيل المثال: للسلطان علي بن صلاح بتوجيه من السلطان صالح، ولأسرة آل الكاف وعلى رأسهم السيد

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) في زيارة لتاوا، الشحر عام ١٩٦٠م. ويبدو في الصورة على يسار السلطان غالب الأمير عمر. وعلى يمينه المستشار المقيم المستر واطس. وخلفه النائب عبدالخالق بن عبدالله البطاطي. ومتلثم الأقاليم السيد أحمد محمد العطاس.

أبوبكر، ومنصب المشهد أحمد بن حسن العطاس، والمقدم علي بن أحمد بن يماني وغيرهم، وسادات وأعيان حضرموت، من شخصيات روحية وقبلية أخرى التي تعودت وفقاً للتقاليد على لعب دور في هذه المجالات كان له شأن كبير في تجديد وتمديد فترات الصلح بين قبائل المجتمع الحضرمي التي كانت على وشك الانتهاء. هذا من جانب، ويجب أن يكون معلوماً - أيضاً - أن زيارة السلطان عمر بن عوض إلى حضرموت الداخل والتي كانت كللت بنجاح كبير هي تعد الأساس للعديد من هذه الاتفاقيات بين القبائل والتي كانت على وشك الانتهاء في وقت يصادف زيارة انجرامس، وتم تجديدها مع انتساب اسمه. ولو أنه يجب علينا ألا نقلل في الوقت نفسه من مساعي ونوايا انجرامس الخيرة، فإن هذه الممارسة كانت حضرمية خالصة ومبنية على أسس وتقاليد حضرمية ليس لأي نظام بريطاني دخل فيها سوى وجود انجرامس أثناء عقده، ولتحمسه ودفعه لها.

وكان من شأن السلطان صالح في سفراته ولقاءاته أنه عندما يرى أي مشروع أو قانون أو نظام يلفت انتباهه ويثير إعجابه، فيحاول أن يطبقه في حضرموت. وكان هدفه تأسيس حكم دستوري ملكي، وهو - رحمه الله - يعد من السلاطين الفريدين الذي لوحظ عنهم بأنهم قاموا بتشجيع تأسيس تكوين الأحزاب والمجالس البلدية والقروية لمساعدة الأهالي في معالجة شئونهم. وكانت تعد بعض هذه التطبيقات أو التجارب سابقة لأوانها. وعلى سبيل المثال، السماح بتأسيس أحزاب فكان له ردة فعل سلبية لسوء الفهم من قبل بعض العناصر للحقائق السياسية الموجودة في الساحة مثل: الوجود البريطاني وسياستها وأهدافها في المنطقة، وقلة الخبرة والثقافة

الأمير غالب (ولياً للعهد آنذاك) في زيارة لشبوة. إحدى مقاطعات الدولة القعيطية الحضرمية سنة ١٩٦٥م. ويبدو في الصورة: ثاني يمين الشيخ ربيع بن عيشان بن عجاج النهدي. ثم بدر بن أحمد الكسادي (نائب نواب السلطنة). والسادس الأمير عمر بن عوض القعيطي. والسابع المقدم أحمد بن بقعه بن قعطيان الكربي. والثامن السلطان غالب بن عوض القعيطي. والتاسع اللواء صالح يسلم بن سميدع وخلفه السيدلي سالم ربيع. والشيخ حمد بن ناصر الجبري

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك) في زيارة تفقدية لمدينة شبوة التاريخية عام ١٩٦٥م. ويبدو في الصورة وهو يتمعن في عمود أثري بنقوش حميرية بغاية الوضوح وقد استخدم كعمود لمسجد المدينة.

لدى الأهالي لاستيعاب مثل هذه المسائل الحساسة. وعلى سبيل المثال، علينا الاعتراف بكل صراحة، أنه لم يكن هناك وزير حضرمي في الدولة القعيطية لغاية أحداث سبتمبر ١٩٦٧م، الذي بإمكاننا أن نصفه بأنه كان يتمتع بثقافة جامعية حديثة! وقلة الدراية بهذه الحقائق المرة، هي التي كانت من الأسباب الضمنية لـ"حادثة القصر"، والتي بسببها منعت الأحزاب لفترة، وانتهت بتقوية دور بريطانيا ومجال تدخلها في سياسة وإدارة البلاد، حيث إن الذي فشل هو مشروع السلطان لتطوير النظام السياسي في حضرموت وجهل بعض الأهالي في إدراك ذلك.

• في زمن والدكم السلطان عوض بن صالح القعيطي، المغفور له بإذن الله تعالى، وفي يونيو من العام ١٩٦٥م، جاءت بعثة مجلة العربي الكويتية وعملت استطلاع موسع وشامل عن حضرموت وعاصمتها المكلا ضمن ملف: (اعرف وطنك)، الكثير اليوم يجدون في ذلك الاستطلاع وما اشتملت عليه المدينة العاصمة المكلا من مشاهد حياة تعليمية وثقافية وإدارية ومهنية وعلاقات إنسانية ومساحة الحريات تطورا يتجاوز الكثير من مشاهد واقع الحال اليوم، هل لك أن تستعيد تلك اللحظات التي كان الصحفي سليم زيال يجوب شوارع المكلا بمعية المصور أوسكار؟.

- على الرغم من أنني اطلعت على هذه المجلة الجميلة ورائعة المحتويات وكنت أكن تقديراً خاصاً لمجهودها المتميز في التعريف بالوطن العربي للقراء بأسلوب ايجابي جيد عبر استخدام مزيج رائع وناطق بين الصور والوصف والتعليق عليها، إلا إنني وللأسف لم أكن موجوداً في المكلا أثناء زيارة طاقمها الصحفي،، بل كنت في بريطانيا.

(للحوار بقية في العدد القادم)

الأمير غالب بن عوض القعيطي (ولياً للعهد آنذاك)
في زيارة تفقدية لمركز قموضة عام ١٩٦١م.
ويبدو في الصورة وهو يشارك في تمرين كيفية استخدام مدفع الهاون

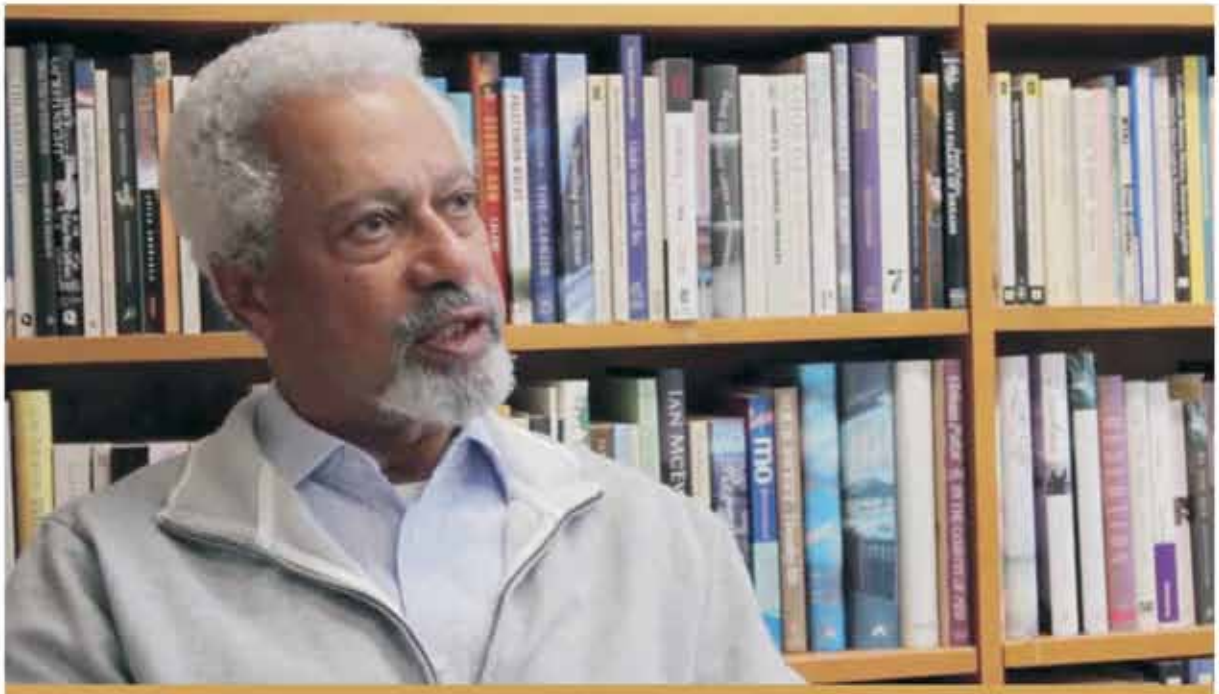

حكايتي .. مع عبدالرزاق قرنح

د. خالد يسلم بلخشر

اسمه عبدالرزاق سالم قرنح، هاجرت أسرته من بلدة الديس الشرقية ١٠٠ كلم إلى الشرق من مدينة المكلا إلى جزيرة زنجبار القريبة من الساحل الشرقي لأفريقيا في أربعينيات القرن الماضي.

يوم السبت ٦ فبراير ٢٠١٦ قدمت محاضرة عنه في بلدة أسرته، وكنت أظن بأنني سأكون كمن يبيع الماء في حارة السقايين، ولكني تفاجأت بأن كل الحاضرين لا يعرفون عنه شيئا عدا أن أسرته من هذه المنطقة، ولحسن الحظ كان بحوزتي روايتان عرضتهما كدليل على صحة ما أقول! في تلك الأمسية قابلت ابن شقيقه وبدعى جمال الذي عاش طفولته مع عبدالرزاق في زنجبار، طلبت منه أن يساعدني في الجزئية الخاصة بالأسرة وهجرتها وبعض الموضوعات التي لم أجد لها إشارة في الكتب التي تناولت هذا العلم الكبير.

كانت أمسية جميلة أثارت العديد من الأسئلة والنقاشات. ولكن لاهتمامي بهذا الروائي قصة أوجزها في الآتي:

قبل حوالي ٨ سنوات اتفقت مع أستاذتي الأمريكية أ. كلير براندبور أن نتشارك في كتابة بحوث في الرواية في إطار النقد الكولونيالي ومابعده، واقترحت كلير الروائي عبدالرزاق قرنح كونه يتناول الموضوعات والثيمات التي تقع في دائرة اهتمامنا البحثية المشتركة ولم يدرس بعد بشكل مؤثر، وقتها كانت تعمل في جامعة دوقس Dogus University في اسطنبول بتركيا، وكنت أعرف بأن رئيس قسمها اسمه محمد بكاري من خلال مراسلتنا ولم يكن لدي أي تفاصيل أخرى عنه. منذ تلك اللحظة بدأت أقرأ روايات قرنح وكان عددها سبعاً قبل أن يكتب روايته الثامنة (العطية الأخيرة) في ٢٠١١.

كنت أقرأ اسمه حسب اللغة الإنجليزية (قرنه)، وللأسف لم ترد إشارة واضحة في رواياته عن حضرموت، بل لم أجد مرجعا عربيا يشير لهذا العلم عدا مقابلة يتيمة أجرتها معه صحيفة المدى الثقافي العراقية في مايو ٢٠٠٨ عندما كان في جنيف. لم يخطر في بالي - إطلاقا - أن اصوله حضرمية. في أحد الأيام اتصلت علي د. كلير هاتفيا وكانت تعاتبني: خالد لماذا لم تقل لي بأن قرنه (قرنح) بلدياتك؟

_ ومن قال لك انه بلدياتي؟

_ د. محمد بكاري.

_ وكيف عرف د. محمد انه بلدياتي؟

_ لأن د. محمد بلدياتك هو الأخر !!

_ لا تكوني أنت كمان بلدياتي يادكتورة كلير؟؟

ضحكت، وقالت ممكن سوف اتأكد من تاريخ العائلة.

اتضح لي فيما بعد أن د. محمد بكاري هو

د. كلير براند بور

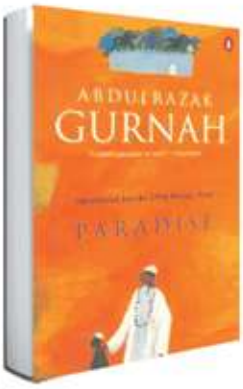

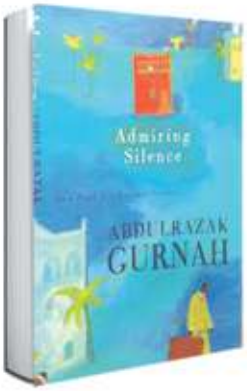

من عائلة السادة آل "السقاف" الحضرمية المعروفة واسمه الكامل محمد أبوبكر السقاف وهو يحمل الجنسية الكينية. طلبت منها أن ترسل لي أيميل د. بكاري ثم تواصلت معه ، بعدها بفترة أرسل لي بحثا عن الهجرة الحضرمية وطلب مني أن أراجعه لأنه سيشارك به في مؤتمر عن الهجرة الحضرمية في ماليزيا. في سياق علاقتي بهما طلبت مني د. كلير أن أرسل ملفي لأنظم لجامعتهم، لم استحسن الفكرة وقتئذ لالتزامات أكاديمية وأسرية، ولكني قلت للدكتورة كلير يبدو أن قدر الحضارمة الهجرة والغربة والشتات لكن دعيني أكون استثناء لهذه القاعدة ولو إلى حين. لم تمر فترة طويلة إلا وأصيبت د. كلير بالسرطان، بقينا على تواصل ولكن كانت في وضع لم يسعفها للقيام بأي نشاط بحثي،

لهذا قررت تصفية أمورها في تركيا والعودة إلى شيكاغو لترقد روحها في سلام في ٦ مارس ٢٠١٥م ، كتبت بحثاً وحيداً عنه بعنوان " الذاكرة الأليمة : التاريخ والهجرة والعنصرية في رواية طريق الحجيج لعبدالرزاق قرنح " ونشرته في ٢٠١٢م، ولكن مازال هذا الروائي يثير في داخلي شجونا انثرها كلمات بين الفينة والأخرى.

أعود لقرنح _ موضوعنا الأساس _ وأوجز عنه الآتي:

عبد الرزاق قرنح من مواليد زنجبار في عام ١٩٤٨ من أبوين حضرميين حيث إن أمه من عائلة "باسلامة" الحضرمية المعروفة.

تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط في زنجبار، وبعد الأحداث الدموية التي عصفت بزنجبار بعد الاستقلال وحالة الهستيريا الانتقامية من العرب والهنود وغيرهم من الأجناس المستوطنة في الجزيرة، اضطر للهجرة إلى بريطانيا في عام ١٩٦٨، عمل منظفا في أحد المشافي ثم أكمل تعليمه إلى أن حصل على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من كلية رنرفورد بجامعة كنت عام ١٩٨٢.

في عام ١٩٨٥ عُين أستاذاً للأدب ودراسات ما بعد الكولونيالية في الجامعة نفسها.

لعبدالرزاق قرنح ثماني روايات :

١. Memory of Departure (١٩٨٧) (ذاكرة الرحيل)
٢. Pilgrims Way (١٩٨٨) (طريق الحجيج)
٣. Dottie (١٩٩٠) (دوتي)
٤. Paradise (١٩٩٤) (الفردوس)
٥. Admiring Silence (١٩٩٦) (إعجاب بالصمت)
٦. By the Sea (٢٠٠١) (عبر البحر)
٧. Desertion (٢٠٠٥) (فرار)
٨. The Last Gift (٢٠١١) (العطية الأخيرة)

نال جائزة راديو فرنسا العالمي "Temoin du Monde"، وكانت روايته(عبر البحر) على القائمة القصيرة لجائزة البوكروجائزة الكتاب للوس أنجلس تايمز ، وكانت رواية (الفردوس) على القائمة الطويلة لجائزة البوكر، تتناول روايات قرنح الثمان الإرث الاستعماري وما بعد الاستعماري للساحل الشرقي لأفريقيا وتحديد زنجبار والساحل الأفريقي المقابل لها من خلال تعرية الممارسات الاستعمارية العنصرية في بلده وفي بلاد المهجر ، كما تتناول الانعكاسات السلبية لما بعد الاستعمار وحالات الهجرة والشتات والتمييز العنصري الذي يواجهه المهاجرون الأفارقة في بريطانيا تحديدا. والملاحظ أن هناك خيطا رفيعاً يربط الروايات كلها بالسيرة الذاتية للمؤلف .. حيث إن أكثر الشخصيات تجسد حياة قرنح نفسه في مرحلة ما ، وكيف هاجر من جزيرته الخضراء التي عشقها وحياته المبكرة في بريطانيا ، لهذا نجد تكنيك "الفلاش باك" طاغياً في أكثر روايته من خلال العودة بالذاكرة إلى مراتع الطفولة والصبا.

ترجمت رواياته إلى العديد من اللغات(ولكن للأسف الشديد لم تترجم إلى العربية) ، وتدرس هذه الروايات في أعرق الجامعات الأوروبية والأمريكية كشاهد على الاستعمار وما افرزه من مشكلات للقارة السمراء ممثلة بجزيرة القرنفل زنجبار.

62
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

الدفاع عن عدن عام 1940
بين فريا ستارك ومحمد علي لقمان

أ.د. مسعود سعيد عمشوش

في نهاية عام ١٩٣٩ جاءت الرحالة البريطانية فريا ستارك إلى عدن في إطار مهمة رسمية – إعلامية واستخباراتية – كلفتها بها حكومة بلادها. وحالما وصلت إلى عدن، تمّ تعيينها مساعدة لستيوارت بيراون، مدير مكتب الإعلام. ولتسكينها تمّ تخصيص غرفتين من مبنى المكتب، الذي يطل على منظر بانورامي للميناء في منطقة التواهي، قدّمه التاجر الفارسي فرامروز، دعماً حربياً للحكومة البريطانية، التي مكنته – بفضل حمايتها – من جمع ثروته في هذه السواحل المكتظة بالقراصنة كما تقول ستارك.

ومن أبرز المهام التي كان على فريا ستارك الاضطلاع بها في عدن: الإشراف على توزيع النشرة التي يعدها المكتب، ومراقبة الأفلام الواردة، وإعادة صياغة الأخبار وترجمتها إلى العربية، وبثّها بالراديو ومكبرات الصوت في مختلف ساحات عدن.

وقد ضمّنت فريا ستارك كتابيها (الشرق هو الغرب East is West)، و(غبار في مخالب الأسد، سيرة ذاتية ١٩٣٩-١٩٤٦ Dust in the Lions Paw)، أفضل رصد للأحداث اليومية التي شهدتها مدينة عدن خلال السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية. ومن المعلوم أن معظم أجزاء الكتاب الثاني تتكوّن من مزيج من الرسائل التي بعثتها المؤلفة إلى أقاربها وأصدقائها في مختلف أنحاء العالم، ومن اليوميات التي ذكرت أنها انتظمت في تسجيلها طوال سنوات الحرب.

كما رصدت فريا ستارك في هذين الكتابين مشاعر الناس الساكنين في عدن تجاه الانتكاسات التي مُنيت بها فرنسا وبريطانيا خلال تلك الفترة، وأكدت أن سكان المدينة كانوا يشعرون بالخطر منذ بداية الحرب، إذ إنهم مقتنعون بأن إيطاليا ستدخل الحرب إلى جانب ألمانيا، وأن ذلك يعني قيام القواعد الإيطالية في القرن الإفريقي بشن غارات على مستعمرة عدن البريطانية.

وذكرت أيضاً أنّ كثيراً من سكان عدن قد سارعوا في مغادرة المدينة حتى قبل دخول

إيطاليا الحرب في العاشر من يونيو ١٩٤٠. كما قامت السلطات البريطانية نفسها بترحيل معظم الأطفال والنساء البريطانيات قبل ذلك التاريخ، وكتبت: "وكان العرب في عدن قلقين على أسرهم، ويتساءلون عمّا إذا كانت لحج ستظل آمنة، وفضّل كثيرٌ منهم السفر إلى الهند". وأضافت أنها ومديرها ستيوارت بيراون وضعا مجموعة من منشورات التوعية والتحريض، وقاما ببثّها في مختلف الساحات ومراكز الشرطة في مدينة عدن.

ونجد صدى تلك الأحداث في مذكرات المحامي محمد علي لقمان (رجال وشؤون وذكريات Men, matters and Memories)، الذي كتب في الحلقة الرابعة والستين منها: "في العاشر من يونيو من عام ١٩٤٠، انضمّ موسيليني إلى الحرب، إلى جانب هتلر، وبذلك انضمت الفاشية إلى النازية، في محاولة للسيطرة على العالم. وكنت قبل أيّام قليلة، أرسلت أسرتي إلى لحج، حيث ساعدني السلطان عبد الكريم في استئجار بيت طيني محاط بملحق ضخم بدون بوابة، لكن الأمن جيد بنسبة ١٠٠٪، ولزمت عدن مع ابني علي، الذي كان مسؤولا عن النشرة اليومية لمكتب الإعلام. وفي ليلة إعلان موسوليني الحرب، كنت جالساً بالقرب من المذياع، واستمعت إليه يتوعد ويهدد باللغة الإيطالية من محطة باريس الإذاعية. وجاءني السيد ستيوارت بيراون يطلب مساعدتي لإذاعة الأخبار من مكبرات الصوت من مركز شرطة كريتر. وقد نبّه الناس إلى أنْ يتوقعوا المعاناة والمحن، وأن يكونوا أقوياء في مواجهة الأضرار. وقد

تمّت محاصرة المواطنين الإيطاليين في عدن خلال ساعة واحدة بعد إعلان الحرب وتمّ التحفظ عليهم".

وقد توقعت فريا ستارك في بداية الحرب العالمية أن تقوم إيطاليا بقصف مستعمرة عدن، وهذا ما حدث فعلاً حينما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا العظمى وفرنسا في العاشر من يونيو من عام ١٩٤٠. وفي نهاية شهر يونيو ١٩٤٠، كتبت فريا ستارك أن الغارات الإيطالية على ميناء عدن أصبحت منتظمة، وتحدث في الغالب في أثناء الليل، أو عند الفجر. وأدت الغارات إلى تحطم زجاج نوافذ المباني، بما فيها المبنى الذي يقع فيه المركز الإعلامي. وتقول إن منطقة (الهلال) التجارية في التواهي غدت شبه مهجورة، و"هيمنت حالة من الهلع على المدينة، وجعلت السكان يتهافتون على شراء المواد الغذائية، والبضائع الأخرى من المحلات التجارية التي شرعت في التخلص مما لديها من بضائع، لأنها كانت تحرص على المال أكثر من البضائع. وهرب معظم السكان من منطقة التواهي، وكذلك من منطقة المعلا، وانتقل أصحاب المتاجر إلى فروع مؤسساتهم في منطقة كريتر، التي كانت أكثر أمناً".

وذكرت فريا ستارك أنّ السلطات البريطانية قامت بتلغيم ميناء عدن، وفي نهاية شهر يونيو ١٩٤٠ ألقت القبض على ثلاث غواصات إيطالية. وشاركت هي في التحقيق مع بعض ملاحيها. وكانت فريا ستارك، عند بدء تعرض عدن للغارات الإيطالية، قد بادرت إلى اقتراح تشكيل ثلاث فرق من الشباب العرب للعمل التطوعي: حراسة الشوارع والمنازل في أثناء الغارات الجوية الإيطالية. وتقول إن السلطات البريطانية، التي لم تعترض على ذلك، لم تقدم أية مساعدة، وتضيف: "بل إن الجيش المرهق والسلطات المحلية اعتبرونا إحدى المخلوقات الوهمية، إن لم نكن آخرها. لكنّا شعرنا أن ما قمنا به كان إيجابياً، على الأقل للهواة الذين يسعون إلى المشاركة في الدفاع عن أنفسهم. وحينما خططنا للتدريب في مجموعات مسلحة، أخبرنا البريق الذي يشع من عيني علي محمد لقمان أننا على صواب".

ونجد صدى لما كتبته فريا ستارك عن تلك الفرق الأمنية في الافتتاحية التي كتبها محمد علي لقمان للعدد ٢٦ من صحيفة (فتاة الجزيرة)، الصادر بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٤٠. فقد جاءت تلك الافتتاحية على النحو الآتي:

"الدفاع عن عدن.

إن دخول إيطاليا في الحرب قد قربنا من ساحات القتال، وأصبحنا عرضة لكل ما في القتال من ويلات وأهوال. ولكننا حتى الآن والحمد لله، بفضل قوة الدفاع البريطانية في هذه المنطقة، في خير وسلامة. ولم تؤثر

غارات العدو على وطننا وبلادنا، بل باءت بالفشل والخسران في كل محاولة قامت بها. بيد أنه يجب علينا معشر العدنيين أن نساهم في الدفاع عن وطننا بكل ما نستطيعه طالما قد هيأت لنا حكومة سعادة والي عدن الفرصة للأخذ بنصيب وافر في هذا الدفاع. وقد تطوع حتى الآن ١٠٠ من أبناء العرب والهنود الوطنيين وانخرطوا في سلك المحافظة على الأمن في مدينة عدن. وتطوع ٥٠ آخرون في مدينة الشيخ عثمان، كما انخرط في سلك المتطوعين عدد كبير من الوطنيين على اختلاف نحلهم وأجناسهم، والتحقوا بمراكز المحافظين ضد الغارات الجوية وسُلّمت إليهم الأسلحة والصفارات والكمامات. وأظهر أهالي عدن على وجه العموم هدوءاً وثباتاً عظيمين ولم نر منهم حتى الآن إلا الطاعة لأوامر المحافظين على الأمن العام والإسراع إلى المخابئ عند الغارات الجوية. وشعر الناس بما لهذه الدولة من فضل عليهم في نشر ألوية الأمن والأمان فيما مضى من الزمن. ولم يبق أحد لم يبتهل إلى الله بأن ينصرها ويؤيدها في الدفاع عن حريات الشعوب. أما مراكز الدفاع فقد برهنت على اليقظة والاستعداد كما برهن الأسطول البريطاني على كفاءته وقوته بما قام به من صد الغارات الجوية وأسر طائرات العدو وغواصاته في هذه البحار واقتيادها إلى ميناء عدن صاغرة حيث رآها الجميع.

وفي المحميات السبع تسود السكينة والرغبة الأكيدة في التعاون مع الحكومة البريطانية للوصول إلى النصر ضد أعدائها بل أعداء جميع الشعوب الضعيفة التي لا تنتظر سوى ضياع حريتها واستقلالها إذا ما انتصرت ألمانيا في هذه الحرب. أما بريطانيا العظمى رغم كل ما يقال عنها فإنها لم تعامل رعاياها يوماً من الأيام إلا بروح العدل والقانون. وقد اشتهر البريطانيون دائماً بعدلهم الاجتماعي العام. ولذا تتكاتف معهم جميع الشعوب العربية تقريباً والشرقية على وجه العموم لما يؤملونه على أيديهم من نيل الحقوق بعد الحرب.

وإننا نؤمل ونرجو أن سعادة الوالي سيشجع التطوع في سبيل الدفاع عن هذا الوطن وسيسمح لجميع الشبان الراغبين في المحافظة على الأمن والاستقرار أن يشتركوا في هذا السبيل ولهذه الغاية، حتى تعود المياه إلى مجاريها. وحتى يحق الحق ويزهق الباطل".

وبعد عام ونصف من ذلك التاريخ، يعود محمد علي لقمان ويكرس افتتاحية أخرى (العدد ١١٠ الصادر بتاريخ ٨ مارس ١٩٤٢) للحديث عن (الدفاع عن عدن)، يشير فيها إلى القرارات التي اتخذها والي عدن، هاثورن هال، بشأن وضع أفراد الفرق الأمنية في كنف الدولة وتحت رعايتها، وعلاج المصابين منهم، إذ إنه سنّ قانوناً بإعطاء معاشات تقاعد للذين يصابون بجروح أو يفقدون أرواحهم.

تحية لهذا الفارس

تذكاري كتبه جون دوكر

ونشر في مجلة الجمعية البريطانية عام ٢٠٠٣م

قبل خمسين عاماً ، جرى منح المحسن الكبير ورجل السلام السيد أبي بكر بن شيخ الكاف وسام رتبة فارس الإمبراطورية البريطانية تقديراً للخدمات الجليلة ذات النفع العام التي قام بها في حضرموت .

جون دوكر الذي خدم كضابط سياسي في المنطقة قبل الاستقلال ، يقدم في هذا المقال تحية إجلال وتقدير لذكرى هذا الفارس .

ترجمة : محمد سالم قطن

أبوبكر بن شيخ الكاف ينتمي لأسرة وافرة النجاح من عائلات أسياد تريم، هذه الأسرة التي جمعت ثروة ماديه هائلة من التجارة ومن امتلاك العقارات في سنغافورا وغيرها من جزر الهند الشرقية الهولندية .

ولد في سنغافورا عام ١٨٩٠ م ، لكنه قضى الجزء الأكبر من حياته في وادي حضرموت، وأيضاً أنفق الجزء الأكبر من ثروته في سبيل توطيد السلام بين ربوع حضرموت، كما كان واسع التأثير على السلطات البريطانية في عدن، وهو الذي أقنعها على أن تأخذ بعناية واهتمام مسألة رفاهية حضرموت ،بلده الأصلي.

في عام ١٩٣٤ م تم إرسال هارولد انجرامز في زيارة استطلاع وتحرٍ لحضرموت، كما عاد (أي انجرامز) إليها مرة أخرى عام ١٩٣٦ م ليعمل مع السيد أبي بكر والحكام المحليين (القعيطي والكثيري) في إقناع القبائل التي تعيش على الدوام داخل دائرة الاقتتال والحروب فيما بينها ، للقبول بهدنة عامة لمدة ٣ سنوات. لقد أدى التأثير الشخصي مع الإنفاق السخي للسيد أبي بكر إلى إنجاح المفاوضات التي قادت إلى تحقيق الصلح العام والهدوء في أنحاء القطر الحضرمي وإرساء دعائم أمنه المستقبلي واستقراره .

قبل هذا الحدث ، كان السيد أبوبكر يباشر مشروع شق طريق من ساحل حضرموت إلى داخلها ، مموّلاً معظم التكاليف من جيبه الخاص ، بما فيها المبالغ التي دفعت لتعويض رجال القبائل عن النقص في العائدات التي يحصلون عليها من قوافل جمالهم التي يعملون عليها في النقل ، قبل إدخال النقل بالموتورات (السيارات) كما كان السيد أبوبكر عاكفاً على تسيير وتحسين أداء المستشفى والمدرسة في تريم ، وهذه المستشفى وتلك المدرسة ممولتان بالكامل من قبل عائلة الكاف وتقدمان الرعاية الصحية المجانية والتعليم المجاني للسكان المحليين .

وفي عام ١٩٣٨ منح السيد أبوبكر لقب كومبانيون أوف بريتش امباير سي بي اي نظير خدماته العامة .

وعن أهمية دوره في عملية صنع السلام بحضرموت، تم تأكيد ذلك عبر عريضة مرفوعة شهد عليها ووقعها تسعه وتسعون شخصيه من وجهاء الحضارمة في تاريخ مبكر من عام ١٩٣٨ م . الأمر الذي اضطره إلى تأجيل عزمه المقرر للسفر إلى الخارج تخوفاً من احتمال أن يتسبب غيابه في تعريض الصلح والسلام الذي ساهم هو شخصياً في إرسائه بحضرموت للخطر.

كان السيد أبوبكر يتمتع بروح استقلالية ولا يتردد عن الصدع برأيه فعندما رقي إلى فارس الإمبراطورية كي بي أي عام ١٩٥٣ م ،أعلن تخليه عن هذه المرتبة معلقاً على ما كان يقتضيه البروتوكول في ذلك الوقت - في إشارة إلى أن البريطانيين يسلبون باليد ما يمنحونه باليد الأخرى، كما ظهر كلا الوسامين كي بي اي و سي بي اي على الترويسة الخاصة بمطبوعات مؤسسته التجارية .

وفي عام ١٩٥٤ م جرى الاحتفال رسمياً بمنحه وسام فارس الإمبراطورية كي بي اي من قبل جلالة الملكة إليزابيث خلال زيارتها الأولى والوحيدة لعدن. وفي الحفل تم استثناؤه من شرط من شروط البروتوكول ؛ يقضي بالركوع أمام جلالتها، فقد أوضح السيد أبوبكر للجميع وقتها بأنه كمسلم لا يستطيع الركوع إلا لله وحده .

كان السيد أبوبكر مبجلاً في حياته الشخصية باعتباره مسلماً تقياً ورجلاً صادق العهد والوعد، كما أسعد بزوجة تتمتع مثله بسمعة ومكانة مرموقتين .

كتب عنه انجرامز مطولاً في كتابه :" شبه الجزيرة العربية والجزر" تناول حياة السيد أبي بكر منذ أوائل ثلاثينات القرن العشرين وحتى وفاته عام ١٩٦٥م .

الرحالة الغربيون والرسميون ومن ضمنهم أنا، استفدنا من حكمته وتعاونه وحسن ضيافته .

كنت في سيئون يوم وفاته، حيث اجتمع مئات المشيعين من كل أنحاء حضرموت ، لإلقاء النظرة الأخيرة عليه وتقديم احتراماتهم .

وقد انضممت شخصياً لتلك الجمهرة الحاشدة خلف جنازته . وفي مراسم دفنه قرعت الطبول وناحت النساء على الشرفات بالعويل والنحيب .

لقد كان صباحاً حاراً ذلك اليوم في سيئون ، وقد علا الغبار وارتفع في الهواء الساكن. وأخيراً تجمعنا في القصر الطيني لزوج ابنته السيد مشهور بن حسن الكاف للتعبير عن حزننا وتقديم عزائنا لأفراد العائلة .

وباستثناء السلطان صالح بن غالب القعيطي توفي عام ١٩٥٨ م لا توجد شخصية في ذلك الجيل بمحمية عدن تقارن بالسيد أبي بكر. فقد كان عطوفاً ومحسناً كبيراً ، سيظل اسمه معطراً بالذكرى الطيبة إلى مستقبل بعيد.

تباريح قلم

د. طه حسين الحضرمي

في هوية الإبداع الأدبي (الروائي)

(١)

هل للإبداع الأدبي هوية خاصة تميّزه عن بقية الأنشطة الإبداعية الأخرى ؟

ظل هذا التساؤل يشاغبني مدة من الزمن، لا أدري سعة مساحته الفضائية في أعماقي، بيد أنه ظل كامناً في مخبئه الإجباري محاولاً بين آن وآخر أن يزلزل كياني الفكري في محاولة مستميتة للخروج من مكمنه متشبهاً بمارد مصباح علاء الدين السحري؛ مستخدماً الاحتيال نفسه لمجاراته في لعبة الترغيب بمتع فكرية لا تُعدّ ولا تُحصى؛ إنْ سمحت له بأن يطل برأسه قليلاً من فتحة مخبئه على العالم الفسيح. ولكنني كنتُ أستبقه إلى إغلاق الفتحة الضيقة التي كان يستشرف ضوءها الخافت؛ إذْ كنتُ أناجيه من حين إلى آخر في غفلة من عفاريت الفكر المقلقة.

وعود على بدء، هل لهذه الكينونة الخفية هويةٌ محددة ؟ أتساءلُ اليوم وقد جمحتْ بي السنونُ بعد معاناة مع الحروف المتلألئة أنوارُها والسطور الساطعة أضواؤها، وقد كان لهما نصيب الأسد في مضغ وبلع وهضم مجمل هذه السنين. تراني أقف اليوم متسائلا مثل التلميذ الخائب الذي فاته حلُّ واجبه الإجباري بسبب لهوه وعبثه الدائبين ! هل لهذا التساؤل جدوى فكرية تحرك مياهنا الآسنة ؟ ربما ! فلا بأس من خوض هذه المغامرة التي تأخر أوانها كثيراً.

(٢)

الإبداع -في عمومه- ظاهرة متعددة الأبعاد على حد تعبير الكسندرو روشكا؛ بما تحمله في أعماقها من مشكلات فلسفية ونفسية ومعرفية. لستُ هنا بصدد تبياناها؛ فلكلٍّ منها ميدانها وفرسانها ونظرياتها المتعددة المتجددة؛ بوصفها مشكلة مهمة من مشكلات العلم المعاصر. ولكن بما أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره -كما يقول الأصوليون- كان لزاماً عليّ أن أقف قليلاً أمام هذا المفهوم المعقد -بكسر القاف وفتحها- ابتداء من المعنى اللغوي الذي يدور حول الإنشاء على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى (بديعُ السماواتِ والأرضِ) البقرة ١١٧ ؛ أي خالقها ومبدعها على غير مثال سابق، بيد أن هذا الأمر خاص بالله عز وجل. أما ماله صلة بالإنسان المبدع فيشير المعنى اللغوي السابق إلى الدلالة على مطلق الإنشاء القائم على تصوير المشاهدة الحيّة للكون ثم تخصيب هذه المشاهدات بخصوصية (الخلق التواصلي) بحسب تعبير الديكارتيين للدلالة على التشكل المتجدد للخلق؛ لاستحالة تصوّر ما لا وجود له سابق.

هل للإبداع الأدبي هوية خاصة تميّزه عن بقية الأنشطة الإبداعية الأخرى ؟

أما المفهوم الاصطلاحي للإبداع فلا يبحر كثيراً عن كونه نشاطا عقلياً (في الإبداع العام) وشعورياً (في الإبداع الأدبي) متجدداً ومفيداً وأصيلاً ومقبولاً اجتماعياً. يحل مشكلة ما منطقياً أو وجدانياً.

وبعيداً عن هذا المفهوم العام للإبداع الذي تتعدد أسهمُ دلالاته؛ ينحصر الإبداع الأدبي في الحديث الخاص عن تشكل العملية الإبداعية وفقاً للمقولات النقدية المنطلقة من سياقات فكرية ومعرفية تتعامل مع النص الأدبي بخصوصية منهجية لكل منها.

(٣)

نظر أصحاب الاتجاه النفسي - في إطار المناهج السياقية- إلى النص الأدبي من جانبين (المبدع – الإبداع)؛ ففي الجانب الأول كانوا يسعون إلى دراسة سيكولوجية المبدع وما الذي يجعله مبدعاً، فتوصلوا إلى نتائج تكاد تكون متقاربة فحواها: أن مفتاح شخصية المبدع شيئان: الحرمان والألم. فهذان الأمران ينشطان موهبته الفنية، وكأنه يعوض عن حرمانه وآلامه بإبداع فن عظيم. وعلى رأس هؤلاء سيجموند فرويد الذي وقف أمام إبداع الروائي دوستويفسكي، فوجد أنه نتاج أربعة وجوه (الفنان الخالق/ الأخلاقي/ العُصابي/ الآثم) فمن هنا جاء اهتمامهم بدراسة أحوال المبدع دون الإبداع نفسه.

وقد تفرد في مدرسة التحليل النفسي، شارل مورون في دراسته الرائدة عن الشاعر الفرنسي (مالارميه) ؛ لأن دراسته تميزت عن غيرها من الدراسات النفسية بأنها تلقي على الأثر الأدبي أضواء تحمل إلى النقد الأدبي فوائد جمة بخلاف الدراسات الأخرى التي تعامل المبدع بوصفه مريضاً يُشخص على ضوء أطروحات علم الأمراض العقلية وعلم الطباع. فقد قدّم مورون في دراسته خدمات جليلة للنقد الأدبي حين ربط بين مالارميه وإبداعه بإشارات نقدية ثاقبة. فعمل على إيصال الجسور بين شطي العلم والفن وإن كان سهمه في اتجاه دائم نحو الفن. كما جاءت أهمية مورون من إعلانه أن النص الأدبي يقبل المشابهة بقطعة نسيج. فكل صورة مجازية لا تحيا إلا نسبة إلى صورة أو صور مجازية أخرى، تترابط لتؤلف لحمة مستمرة تميز شخصية الكاتب اللاشعورية.

أما الجانب الثاني فقد سعت هذه الدراسات إلى تفنيد العملية الإبداعية من خلال العمليات النفسية التي تعدّ مركز الإبداع، ومنها الصراعات اللاشعورية والتوازن بين اللاشعور والأنا المبدعة و مظاهر التخيل و تشكلات أحلام اليقظة وسوى ذلك في العمل الأدبي.

في أدبنا العربي الحديث كان لدراسة الدكتور مصطفى سويف للأسس النفسية في الإبداع الشعري دلالة متميزة على أهمية مثل هذه الدراسات النفسية للإبداع الأدبي شعراً ونثراً؛ فقد سار على خطاه تلميذاه الدكتور مصري عبدالحميد حنورة والدكتور شاكر عبدالحميد اللذان درسا الأسس النفسية في السرد.

على الرغم من أهمية مثل هذه الدراسات تظل العملية الإبداعية عملية معقدة لا تنحصر في الجانب النفسي للمبدع بل هي أمشاج مختلطة من العمليات النفسية والفكرية والمعرفة الثقافية والقدرة المتميزة على تخصيب كل ذلك في إطار بوتقة التشكيل الفني واللغوي.

قراءة في كتاب

علي أنيس الكاف بحاث وموثق، عرفته ذات ليلة من ليالي سيئون العلمية في أحد منتدياتها الثقافية، فألفيته شابًا خلقه الله ليملأ البلاد علمًا ونورًا، تهوي إليه الأفئدة بما يزرع فيها من سمو العلم وعلو الخُلق، ثم ولجت بيته برجلي اليمنى فلقيت فيه كل ما باحث يتمنى، فلديه الآلاف من الوثائق الورقية والفلمية التي يندر وجودها في بيوت أمثاله من الباحثين والمهتمين بالشأن التاريخي بحضرموت، يحرص على حفظها بصونها ونشرها، فيؤلف منها ويعطي منها لمن يبتغي البحث والتأليف، ومما ألفه وطبعه منها كتاب (الحركة الإصلاحية في حضرموت) عبر ما يحتفظ به من وثائق مؤتمري الشحر وسنغافورة المنعقدين في الربع الأخير من عقد العشرينيات من القرن العشرين، وهو يدل على ما لديه من حس سياسي وشعور وطني تجاه بلاده الحضرمية التي تشق طريقها في موج كالجبال.

(الحركة الإصلاحية في حضرموت) لعلي الكاف

د. أحمد هادي باحارثة

قال المؤلف: إنه وضع الكتاب عن مؤتمري الإصلاح بسنغافورا "توثيقًا لهما بعيداً عن آراء من أيدهما أو من عارضهما"، وذلك "بهدف الاستفادة من الإيجابيات والابتعاد عن السلبيات، ونبذ الفرقة، ومعرفة التاريخ"، أي إن مهمته عرض محض لفعاليات ذينك المؤتمرين، ولما انبثق عنهما من وثائق ومراسلات في الملاحق.

وخلال ذلك ترجم لبعض الأعلام المذكورين في الكتاب، وهم: السلطان علي بن منصور الكثيري، والسلطان صالح بن غالب القعيطي، والسيد أبو بكر بن شيخ الكاف، والشيخ الحجازي الطيب الساسي، والسيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف، والسيد إبراهيم السقاف.

ومن خلال الكتاب عرفنا أن أول لقاء بين الطيب الساسي والسلطان عمر القعيطي كان عقب نجاح مساعي الصلح مع الحموم حيث أرسل مندوبًا عن الكثيريين، وتمت المقابلة، ثم أرسل السلطان عمر رسالة للطيب يخبره بسفره للهند ونيابة صالح عنه، ومع هذا تنصل السلطان عمر فيما بعد من الساسي وعده رجلاً غريباً لا يعرف شيئًا عن المشهد الحضرمي.

وقد بدأت فكرة الإصلاح بعد نجاح التوفيق والصلح بين الحموم والقعطة، وتبودلت الرسائل بشأنه، ثم كان بداية التحرك العملي برسالة وجهها أبو بكر الكاف للسلطان صالح الذي كان حينها ينوب عن عمه السلطان عمر في إدارة السلطنة القعيطية، وقد كتب الكاف رسالته بالاتفاق مع سلاطين الكثيرية للحضور للساحل لهذا الغرض، وعليه فإن المبادرين للصلح هم آل الكاف مع آل كثير، كمبادرين للإصلاح عمومًا، وسعيًا لإحراز مكسب سياسي بعد أن حوصروا باتفاقية ١٩١٨ التي جعلت سلطنتهم مجرد لواء قعيطي حسب تعبير بعض المؤرخين.

ثم وجه لهم السلطان صالح دعوة رسمية تأذن لهم بالحضور، فانطلق وفدهم إلى المكلا، مكونًا من ستة عشر فردًا من بينهم أحد عشر من العلويين، ومعهم الطيب الساسي، وقد أشار المؤلف لرسالة من الساسي وصف فيها مراسيم استقبال الوفد، لكن لم يذكرها في الملاحق ولا موضع حصوله عليها، وأشار أيضًا في الهامش لكتاب يدعى رحلة الأسفار لابن شهاب، دون إيضاحات أو بيانات عنه، ثم بدأت جلسات المؤتمر الأول في المكلا بين الجانبين، وذكر المؤلف أسماء المشاركين من الوفد الكثيري، ولم يذكر من الجانب القعيطي سوى السلطان صالح، فهل حضر وحده؟

ثم عنون المؤلف لكلمة الجانب الكثيري بعنوان (كلمة الوفد الحضرمي !!) ولعله قصد المفهوم العرفي لحضرموت المقتصر على جزء من الوادي. ووصف الكلمة بالملخص ولا ندري من قام بالتلخيص، وأين الكلمة نفسها؟ ولم يذكر من ألقى الكلمة وربما كتبها أيضًا هو الساسي، وعرفنا ذلك من خلال كلمة السلطان القعيطي، فهل يعد هذا الصنيع لائقًا من ذلك الوفد الذي تجشم عناء السفر عبر رؤوس الجبال وبطون الأودية وفي الأخير يعتمدون بالكامل على شخص الساسي حتى أنه هو من يكتب لهم ويتكلم بالنيابة عنهم في ذلك الموقف الخطير، وكيف نظر صالح لهذا الأمر، وقد أشار لذلك في كلمته حين قال مخاطبًا الوفد المشتمل على تلك الوجاهات: "أجاد الفاضل الساسي في إيضاح ما تكنه صدوركم"، هل فيه لمز لهم أنهم لم يستطيعوا أن يعبروا بمرادهم على شرفه وأهميته إلا عبر هذا الغريب.

ووجه السلطان صالح في كلمته بصياغة خطة عمل للإصلاح، ووصفها بثلاث صفات: عاجلة، سليمة، عادلة، وعليها أن تمر بمصفاتين: الأولى: أهل الحل والعقد، والثانية: الفحص، دون تحديد المقصود بالفحص، ومن هو

الفاحـــص وما معاييره وآلياته، فهو هنا كأنه يضع عقد تحت المنشار وعصا بين الدواليب، ومبكرًا يضع بجوار خطة العمل التي يطالب بها خط رجعة له إذا لم تأت على حسب مراده.

لقد كان حذرًا في كلمته، ينذر بالفشل المسبق ثلاث مرات بـثلاث صيغ: فأولها: استشـهاده بقول الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ثانيها: استشهاده بالمثل حيث قال: "لئلا نرجع مما نحن بصدده بخفي حنين".

ثالثها: استشهاده بنصف بيت آخر في قوله: "قد يعرض لنا بعض العوارض، وقد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن".

وقد غلب على المقترحات والمناقشات والقرارات الطابع الأمني والاستخباراتي، ما عدا الأول الذي دعا إلى إقامة كيان فيدرالي يجمع السلطنتين تحت اسم تردد بين الدولة والمملكة، ولم نعرف عن المقترحات التي ذكرها أخيراً هل نوقشت حقًا؟ ولمَ هي موجودة في ورقة قديمة؟ وبخط من كتبت، وهل كتبت في حين الانعقاد للمؤتمر، ربما تكون قد قدمت لكنها لم تحظ بالنقاش، أو نوقشت ورفضت لعدم ذكرها فيما سبق.

وذكر المؤلف أن مفاوضات المكلا استمرت حتى انتهت بقرارات وقع عليها السلاطين، ثم قال في الهامش إنه لم يعثر على نصها، فكيف إذاً حصل على معلومات بوجود قرارات جرى التوقيع عليها، وإلا تكون القرارات هي ما أوردها مسبقًا حيث قال: "وتقرر في المؤتمر تنفيذ المواد الآتية"، وذكر أربعة قرارات. فلم لا تكون هي المقصودة، ومن ثم لم يكن هناك داع لتلك العبارة الهامشية من أصله، والاكتفاء بذكر البلاغ الأول، وهي قرارات منشورة في الصحافة حسب مرجع المؤلف، والبلاغ هو نفسه تكرار لتلك القرارات، واصطبغ بالطابع الأمني ولم يشر لأي اتحاد أو مجالس مشتركة.

ثم تناول المؤلف انتقال أعضاء المؤتمر إلى مدينة الشحر، وذكر من انضم إليهم ممن قدم من الوادي من شخصيات كثيرية وعلوية، وما زال ممثلو الساحل أو الجانب القعيطي في منطقة الظل، مع أن المؤلف مرجعه صحيفة (حضرموت) الصادرة بإندونيسيا فهل هي من اكتفى بذكر أعضاء الجانب الكثيري وحسب، وذكر آخرين دون مرجع يدلل على حضورهم، من بينهم علي بن صلاح القعيطي، مع أن مترجمه وكاتب سيرته لم يذكر عنه ذلك الحضور أو تلك المشاركة، ثم أفصح في أثناء السياق عن اثنين من الجانب القعيطي هما (أبو بكر بن حسين المحضار، وأحمد بن ناصر البطاطي)، دون أن يشير إلى موقعهما الوظيفي أو السياسي الكبير في الدولة القعيطية.

ثم عطف المؤلف على ذكر نص معاهدة الشحر المكونة من ثلاثة عشر بنداً، أتت على النحو الآتي:

ستة بنود منها ذات مهام وترتيبات أمنية محضة، تتضمن التعاون على فرض الأمن سواء بالوسائل السلمية أو بالقوة (١)، والموقف من القبائل المناوئة (٢)، والموقف من الخصوم السياسيين للسلطنتين (٣)، وتأمين السبل (٤)، وتأسيس قوة عسكرية لحمايتهما (٦)، الجوازات وحركة الأفراد بينهما (٧).

ثلاثة بنود (٩، ١٠، ١١) تتعلق بتكوين

علي أنيس الكاف
(مؤلف الكتاب)

الجمعية الوطنية، ولم تحدد مهمتها إلا بكلمة عامة فضفاضة هي (الإصلاحات) دون بيان طبيعتها، لكن نصوص المعاهدة الشحرية كانت حريصة على محاصرتها أو تقييدها بأمرين: خضوعها للمعاهدات الموقعة مع الإنجليز، وعدم إخلالها بمركز الدولتين، دون تحديد للمقصود بذلك المركز وحدود الإخلال، أما عضوية الجمعية فهي مفتوحة لتشمل "جميع الوطنيين في الداخل والمهجر"، ومع ذلك لم تتضمن المعاهدة قراراً نافذًا بتشكيلها وإنما بصيغة الدعوة لذلك "يجب أن تتألف جمعية وطنية عامة"، فعلى من تجب وأولئك هم قادة القوم وصفوتهم.

بند (٥) يتعلق بتبادل المندوبين بين السلطنتين، وبند (٨) ينص على إصدار بلاغ بالمعاهدة وطباعته، وبند (١٢) يقر إرسال وفد للمهجر الحضرمي في جاوة على وجه الخصوص دون بيان سبب الاقتصار عليها دون سائر المهاجر الحضرمية في آسيا فضلا عن شرق إفريقيا، (ربما لاحتدام الخلاف الاجتماعي فيها، مع أن محاور مشروع الإصلاح كانت أشمل من ذلك، وتهم الجميع)، أما بند (١٣) فهو ذو طبيعة إجرائية محضة.

أما البلاغ الرسمي الذي أسفر عنه المؤتمر فكان ذا طبيعة أمنية محضة، وكأنه صادر عن مصدر مسئول بوزارة الداخلية لإحدى الدول العربية ذات النظام البوليسي !!

ثم ذكر المؤلف عودة وفد الداخل والاستقبال الفرائحي لقدومهم، فقد أقيم في تريم حفل ألقيت فيه الخطب الرنانة، منها كلمة متفائلة مستبشرة لأحد أعضاء الوفد، هو عبد الإله محمد الكاف، وهو تفاؤل نابع من ذات الخطيب وأمانيه أكثر من كونه مترجمًا لمقررات المؤتمر وبنوده، ومما يلفت في كلمته نعت الشعب بصفة (المقدس)، وهي وصف غير معهود في وصف الشعب إلا ما كان من اليهود الذين يصفون أنفسهم بشعب الله المختار.

ثم تحدث عن خطوات الشروع في تنفيذ تلك القرارات، ومن بينها تبادل المندوبين بين السلطنتين، وأرسلت قوة يافعية مكونة من سبعين فردًا رابطت قريبًا من مدينة تريم، ثم سعي أتى منفردًا من جانب واحد هو جانب الداخل (كثيري علوي)، لصياغة مشروعي الجمعية الوطنية والنظام الفيدرالي بين السلطنتين، وواضح أن الجانب القعطوي لم يكن متحمسًا لهما آنذاك، وليس في باله.

ثم أتى المؤلف بسياق آخر فأشار إلى وثيقة وقعت بين السلطانين الكثيري والقعيطي، وقد فاجأنا بها فلا نعرف متى وقعت، أهي جزء من وثائق المؤتمر أم وقعت بعده، ثم أخبرنا المؤلف بأن أصل الوثيقة في حوزته، ولم يفسر لنا لم أعرض عن نشرها مع أنها من متعلقات موضوع كتابه.

وفي الصفحة التالية سلط الضوء على اجتماع عقد في تريم حضره نخب من سينون ليتناولوا مشروع الجمعية التي تشغل بال القوم، وأسفر عنه أمران، أولهما: تشكيل لجنة للترويج للجمعية وإبراز أهميتها، وثانيهما: وضع مواد أولية للجمعية ذات طابع إجرائي عن عضويتها وهيكلها ولوائحها التنظيمية، ومما جاء فيها أن الجمعية تسعى لإصلاح اقتصادي وسياسي، وأنها تسعى لتحقيق مقاصدها عبر الدعاية لها ومفاوضة المعنيين وحملهم على تنفيذ قراراتها "بكل ما تستطيع الجمعية من الوسائل"، وهنا غموض يتصل ببيان تلك الوسائل وطبيعتها، وكشف المقصود بالمعنيين الذين وصفوا بـ(أولي الأمر والنفوذ)، وكل ذلك كان إجراءً أحاديًا بدا الجانب القعيطي غير آبه له، وربما لا يعنيه ولا يتعامل معه ولا

غير آبه له، وربما لا يعنيه ولا يتعامل معه ولا ينظر إليه بجدية، وأثبتت الأحداث أنه كان من فجر مسعى الإصلاح برمته، ويكشف أن طرح الجمعية الوطنية هو مطلب كثيري - علوي بالدرجة الأولى.

مؤتمر سنغافورة وتداعياته

إن اختيار الطيب الساسي وهو شخص غريب غير حضرمي مبعوثًا لمهجر لا يعرفه يمثل مؤشر لحالة فتور مبكر لمساعي الإصلاح لدى الأطراف الحضرمية المعنية، برزت منذ البداية عندما اختاره الجانب الكثيري معبرًا عنه في المؤتمر الأول ليشير إلى ارتياب منهم في نجاحها وعدم الثقة في تقبلها من القعيطي الذي جاراهم بدوره في اتخاذه مبعوثًا لحضارمة المهجر، ولا شك أن هؤلاء المهجريين سيمثل لهم هذا الاختيار لذلك المبعوث النكرة عاملا سلبيا في تفاعلهم مع المؤتمر ودعوته حين يرون أن من يأتيهم داعيًا للإصلاح والوفاق من حضرموت شخص ليس من بني جلدتهم، وسيرتابون في جدية المشروع الذي يحمله، فلو كان الأمر بتلك الجدية والخطورة فلم لا يتصدى لها أحد وجاهات الحضارم في الداخل وتسند لهذا المتطفل الغريب مهما كانت طيبته.

ومهما غلف الأمر بقصد الحياد إلا أنه أيضًا يدل على درجة عالية من الحذر وتوقع الفشل، فيسهل من ثم جعل تلك الشخصية الغريبة كبش فداء، دون الحاجة إلى إراقة ماء وجه أحد الوجاهات أو إحراجها فيترتب على الفشل تعقيدات داخلية أريد تجنبها والحؤول دون وقوعها، وهو ما حدث فعلا لاحقًا وبينته الأيام وتطورات الأحداث.

والعجيب أن المؤلف جزم بأن اختيار الطيب الساسي لمهمة الإيفاد إلى جاوة كان "من ضمن ما تقرر في مؤتمر الإصلاح" في المكلا والشحر، وليس الأمر كذلك؛ لأن قرار الإيفاد لم ينص على تسمية الموفد، ويبقى السؤال ماثلا كيف تم اختياره، باتفاق أم بمبادرة كثيرية علوية.

ويأتي سؤال آخر ما المقصود بجاوة آنذاك، أهي إندونيسيا فقط أم تشمل بلاد الملايو بما فيها سنغافورة، ولم خصت جاوة بالذكر دون سائر بلاد المهجر الحضرمي بشرق آسيا، كالهند التي هي منطلق الحراك السياسي السلاطيني بحضرموت، فضلا عن المهجر الشرق إفريقي الذي يضم وجودًا متعاظمًا للحضارم ولاسيما في زنجبار وكينيا ومثله في الصومال وجزر القمر.

هل استقرار الطيب الساسي في سنغافورة يعد نكوصًا عن التوجه الحقيقي لجاوة، أم هي داخلة في مسمى جاوة في العرف الحضرمي فلا ملام عليه، المؤلف لم يتطرق لذلك أو يوضح هذه المسألة، ولاسيما أننا في الخطابات والوثائق لم نجد أحدًا احتج بهذا الأمر، بل إن في بلاغ السلطان عمر الأخير ما يشير إلى أن اختيار سنغافورة مكانًا لانعقاد المؤتمر كان أمرًا متوافقًا عليه، والمؤلف الكاف نفسه يقول "وصل الساسي إلى جاوة" أي كأن سنغافورة عنده جزء من جاوة.

بالوقوف على خطاب السلطان صالح الموجه إلى مؤتمر سنغافورة نجد أنه قد ركز فيه على الجوانب الأمنية، والشؤون المتعلقة بالنمو الاجتماعي والنهوض الثقافي

وبادر المؤلف إلى وصف الطيب الساسي بأنه "طرف محايد"، وبأنه "عرف بكل تفاصيل الخلاف قبل مجيئه إلى جاوة"، وعلل اختياره بذلك الخلاف مع أنه يمكن إيجاد شخصية محايدة ومقبولة من الحضارم أنفسهم، وكون الساسي طرفًا محايدًا مشكوك فيه؛ لأنه مثل جانبًا في مفاوضات المؤتمر الأول وهو الجانب الكثيري العلوي، وإذا كان على معرفة بالخلافات فلم لم يراع هذا الأمر في قوام المؤتمر الثاني وهو يراه مهيمنًا عليه من ذلك الطرف نفسه الذي مثله في الأول، والقول بتلك المعرفة يخالف بلاغ السلطان عمر حين قال عن الساسي: "ليس له أدنى معرفة بحضرموت وعوائدها وقبائلها"، فهل ما وصفه به المؤلف قائم على معلومات أو اجتهاد شخصي له، أو إنه تخلى هنا عن حياده كموثق لا غير.

أما خطاب السلطان الكثيري فأتى أكثر تقريرية ومباشرة في التعاون بين الدولتين القائمتين، بخطاب سياسي مباشر

وبالوقوف على خطاب السلطان صالح الموجه إلى مؤتمر سنغافورة نجد أنه قد ركز فيه على الجوانب الأمنية، والشؤون المتعلقة بالنمو الاجتماعي والنهوض الثقافي، متجنبًا التطرق للشؤون السياسية كالوحدة وإدارة الدولة، كان يشير لحضرموت كأمة ومجتمع، متحاشيًا الإشارة للدولتين أو لأي توصيف لوضعها السياسي، سوى تعبير (القوة الحاكمة) أو (الهيئة الحاكمة) وفيه عموم وغموض لا يخفى.

وفي خطابه نلحظ قدرًا من التعالي لشخصه، وعدم الإشارة للجهود المشتركة الموصلة إلى المؤتمر: "لقد دعاني الواجب أن أبذل قصارى جهدي في إصلاح وطني"، "وقد هدتني هذه الفكرة"، "وجهت"، "طلبت" ونحوها، فضمائر المتكلم الظاهرة والمستترة هي وحدها الطاغية على خطابه.

وفيه أيضًا نلمس أسلوب السلطان صالح الكتابي الذي يتكئ كثيرا على الجمل المتقابلة والسجع في بعضها، وفيه نفس رجل العلم والثقافة، ونفس المصلح الاجتماعي، لكننا لا نجد فيه نفس القائد أو الزعيم السياسي.

أما خطاب السلطان الكثيري فأتى أكثر تقريرية ومباشرة في التعاون بين الدولتين القائمتين، بخطاب سياسي مباشر، وفيه شكر للسلطان صالح ونسبة الأمر إليه دعوة، ربما من باب المجاملة، وأشار للوحدة الوطنية، بينما عبر الآخر بالوحدة القومية، وبينهما خصوص وعموم، والوطنية أخص.

وضع المؤلف جدولا بأسماء الجمعيات المدعوة اشتمل على اسم الجمعية وبلدها وجوابها أو موقفها من الدعوة للمؤتمر، بلغ عددها سبع عشرة هيئة، واحدة اتضح أنها وهمية وهي (جمعية معاونة الإخوان)، وقد تكون في بلدة أخرى غير التي وصلت إليها الدعوة، وواحدة امتنع سكرتيرها عن استلام الدعوة، هي (الجمعية التهذيبية)، وسبعة هيئات خلا الجدول من بيانات عن جوابها أو موقفها، وعليه كان المتبقي منها ثمانية، ثلاث منها أعلنت ترحيبها بفكرة المؤتمر ووافقت على المشاركة في أعماله، تلك هي (جمعية خير)، و(الرابطة العلوية)، و(الجمعية الخيرية).

والخمسة الأخرى اعتذرت عن الحضور، هي (جمعية النصر)، و(جمعية مراعاة الإخوان)، و(جمعية المدرسة الخيرية)، و(جمعية الاتفاق العطاسي)، و(جمعية الإصلاح والإرشاد العربية)، فالأربع الأولى مع اعتذارها بعثت بأمانيها للمؤتمر بالنجاح، والأخيرة أرسلت بطلب توضيح

عن جدول أعمال المؤتمر، وتم الرد عليها بوجوده في برنامج المؤتمر، وكأن الدعوة ترسل مرفقة بذلك البرنامج، لكنها اعتذرت بعد ذلك عن الحضور معللة اعتذارها بأسباب داخلية دون تأتي على ذكرها أو طبيعتها، واكتفت بإرسال خطاب يحمل آراء أعضائها في الإصلاح، ولا نعرف ما هي تلك الآراء، وهل نوقشت في المؤتمر أو عرضت على من حضروه، فليس في محاضر المؤتمر ما يبين ذلك نفيًا أو إثباتًا.

أما الشخصيات التي وجهت لهم دعوة الحضور للمؤتمر كأفراد، فعدد من ذكره المؤلف منهم مائة وواحد، تسع وستون من إندونيسيا، واثنان وثلاثون من الملايو، ومع ذلك ذكر المؤلف أن عدد المدعوين من الشخصيات يزيد عن المائة وتسع عشرة شخصية، فربما لم يحصل على بيانات عن الآخرين، أو أضاف إلى المذكورين الأشخاص الموجودين في سنغافورة وخوطبوا بالحضور شفاهة دون خطاب مكتوب.

من التسعة وستين في إندونيسيا حضر شخص واحد فقط !!، يدعى سقاف بن محمد السقاف، وأربعة وعشرون منهم اعتذروا لأسباب مختلفة، تراوحت ما بين الانشغال، والمرض، وتمنى أغلبهم النجاح للمؤتمر، بينما اشترط بعضهم مباركة جهة معينة له، إما من الجانب العلوي، أو من الجانب اليافعي، وثلاثة اعتذروا ببعد المسافة بين إندونيسيا ومكان انعقاد المؤتمر في سنغافورة، وبيانات مواقف اثنين وأربعين منهم غير مسجلة دون تفسير من المؤلف عن سبب غيابها.

ومن الاثنين والثلاثين في الملايو حضر اثنان فقط، هما حسن عبد الله الجفري وأبو بكر عبد الله العطاس، وواحد امتنع عن استلام الدعوة، وخمس عشرة بياناتهم غائبة، والآخرون اعتذروا لأسباب متباينة، وغالبًا ما يتمنون النجاح للمؤتمر، وبعضهم اشترط مباركة جهة بعينها، ولم يذكر المؤلف كشفًا بأسماء المدعوين في سنغافورة نفسها.

وانعقد المؤتمر بمن حضر بتاريخ ١٧ / ٤ /١٩٢٨م، في مقر النادي الأدبي العربي بسنغافورة، وفي الجلسة الافتتاحية جرى انتخاب السيد إبراهيم السقاف رئيسًا للمؤتمر، وأبو بكر السقاف سكرتيرًا، وكلاهما عضو في النادي المذكور، وألقى الطيب الساسي كلمة قال فيها بأن عدد الأفراد المدعوين (١١٩) فقط، فمن أين جاء المؤلف بكلمة أكثر؟

وقرئت رسائل بعض الجمعيات التي لم تتمكن من إحضار ممثليها، لكن لم يكن من بينها جمعية الإصلاح والإرشاد على أهمية رسالتها المشار إليها في البيانات، وعلى مكانة تلك الجمعية وحجم تمثيلها في المهجر.

ثم ذكر المؤلف عدد من حضر الجلسة الافتتاحية وأسماءهم، وهم ستة عشر شخصًا، اثنان غير حضرميين هم الساسي وسكرتيره، وأربعة عشر حضرميًا، منهم أحد عشر علويًا، وثلاثة من قبائل تنتمي لوادي حضرموت وتحديدًا للأسرة الكثيرية، أي أن الاجتماع كان علويًا كثيريًا.

قدم السيد علوي بن طاهر الحداد استيضاحات من الساسي دالة على جديته ورجاحة عقله، وقد أجمل محضر الجلسة ماهية تلك الاستيضاحات، ولم يفسر عدم حصول الاقتناع بمضمونها، ومن المحضر الجلسة الثانية اتضح أنها تتعلق ببنود معاهدة الشحر ومعرفتها، وكان الساسي مترددًا في الكشف عنها بحجة عدم تكليفه بذلك، ما يدل على ضعف شخصيته أو ضيق أفقه ومحدودية عقليته؛ لأن من البديهي للمؤتمرين أن يطلعوا على تلك البنود ليستأنسوا بها، بل ليبنوا عليها؛ لأن مؤتمرهم مترتب عليه ونتيجة من نتائجه.

ومن ثم تراكمت عدة مؤشرات دلت على عدم أهلية المبعوث الطيب للمهمة التي أوكلت له، أو عدم جديته المنعكسة ربما من عدم جدية من أرسلوه، فاختياره لسنغافورة مقرًا للمؤتمر مع أن أكثر المهاجرين عدة وتأثيرًا كان في إندونيسيا (جاوة)، فيه إيثار للسهولة والدعة، أو انحياز لفئة دون أخرى. ثم إنه رضي بانعقاد المؤتمر بذلك الحضور الضئيل الذي يصل إلى نصف ربع المدعوين، مع عدم شموله لاتجاهات المهجريين ونخبهم.

إن تلك القلة وعدم الشمولية في الحضور مع تقبلها من المبعوث الطيب لم تنل ارتياحًا من المؤتمرين أنفسهم، فلم يفتهم دلالة الغياب الكبير؛ لذا كان شبح الخلاف وهاجس الفشل مخيمًا على جلسات المؤتمر، ففي الجلسة الثامنة ناقش المؤتمرون ذلك الخلاف وأقروا بأثره على نجاح مساعي الإصلاح، ووضعوا مقترحًا بائسًا لحله، وهذه المناقشة فيها دلالة على عدم تجاهل الآخر أو الاستخفاف به، وبالأثر السلبي للخلاف، وإن كانوا قد استمروا في مؤتمرهم تحت ظلال الغياب وهواجسه الكئيبة.

وفي أحد جلسات المؤتمر وضع الشيخ سعيد باجري مقترحًا حول الصلح بين القبائل، وتمت الموافقة عليه من الحضور، وفيه دلالة على جدية الحوار، وتساوي أعضائه في الطرح، وعدم غلبة أو هيمنة صوت بعينه.

وفي الجلسة الحادية عشرة شكلت سكرتارية دائمة للمؤتمر جعل مقرها في سنغافورة، كونت من أربعة أعضاء من مهجريي سنغافورة بحكم الإقامة.

وأتت قرارات المؤتمر متعددة ومتباينة الأهمية والخطورة، وكان القرار الثالث من أخطر قرارات مؤتمر سنغافورة؛ إذ ألزم السلطنتين على السواء تقديم ميزانيتيهما المالية السنوية للجمعية الوطنية

وفي الجلسة الخامسة عشرة أدلى علوي بن طاهر بمقترح كان في الصميم ومن الحكمة بمكان، قضى بسفر الوفد المكلف بزيارة حضرموت أن يتجه أولاً إلى الهند لمقابلة السلطان صالح هناك، لعرض عليه مقررات المؤتمر قبل الإعلان عنها، وكان من العجيب أن يكون صالح في الهند في وقت ينتظر فيه الناس نتائج بتلك الأهمية والمصيرية، لاسيما مع غياب السلطان عمر في الهند أيضًا وقد كلف صالح بالنيابة عنه في حضرموت، فكان اقتراحًا موفقًا من ابن طاهر دال على قوة حدسه وصدق فراسته، لكن من طالع عدم التوفيق للمؤتمر وغفلة مبعوثه الطيب أن رُفض المقترح، فأتته الطعنة من الهند، لقد كان الحداد موفقًا ابتداء بطلب الاستيضاحات التي نازعه فيها الساسي ورفضها ثم رضخ لها، وانتهاء بإرجاع الأمر لأساسه، فلم يأبهوا لمقترحه فكبكبوا على وجوههم في نار الفشل التي كان الساسي أول من احترق بها.

ثم وضع المؤلف عنوان (رسالة المؤتمرين للكثيري)، وتحته تمهيد أفاد فيه أن هؤلاء قد أرسلوا رسالتين واحدة للكثيري، وأخرى للقعيطي، ثم ذكر نص الأولى، ولم يذكر الثانية دون أن يخبرنا بمصيرها ولا بمرجع يدل على إرسالها من عدمه.

اعترف من كتبوا الرسالة بأن تكوين الجمعية الوطنية هي الأساس في إصلاحهم المقترح، وأشادوا بالساسي واختياره مندوبًا، وقالوا إن

المؤتمر له أثر طيب حتى عند من لم يحضره من جمعيات وأفراد، وكأنهم لم يرعهم قلة الحضور مستأنسين بالمباركة عن بعد، أو ليخففوا بذلك من وطأة تلك القلة على صدورهم.

وأتت قرارات المؤتمر متعددة ومتباينة الأهمية والخطورة، وكان القرار الثالث من أخطر قرارات مؤتمر سنغافورة؛ إذ ألزم السلطنتين على السواء تقديم ميزانيتيهما المالية السنوية للجمعية الوطنية المزمع تشكيلها بغرض إبداء الرأي والتعديل، وتكون قراراتها ملزمة (مقبولة ومرعية).

والقرار الخامس رفض حصول الكثيرية على رسم دخول البضائع إليها من القعيطية، ومثلها بالعكس.

والقرار الخامس عشر يخص معالجة الخلاف المهجري.

والقرار التاسع عشر أغلق باب النقاش في مضمون القرار الثالث المتعلق بإشراف الجمعية الوطنية على ميزانية السلطنتين.

كان الموقعون على القرارات اثني عشر حضرميًا فقط، بينما كان الحضور في الجلسة الأول عددهم أربع عشرة، فغاب عدد وحضر آخرون، فالحاضرون في الجلسة الأولى وغابوا عن التوقيع هم عيدروس محمد الحبشي وحسن عبد الله الجفري، ومحمد عبد القادر الجفري، وأبو بكر العطاس (اثنان ممن حضرا يحملان الاسم نفسه ويختلفان في الجد، وأحدهما هو الغائب)، والحاضرون للختام هم: سعيد بن طالب وعيدروس المشهور، فالحاضرون من الحضارم ثمانية علويون وأربعة من غيرهم (كثيريون).

وألقى السيد إبراهيم السقاف رئيس المؤتمر كلمة مؤثرة كانت أشبه باللحن الجنائزي، بلغت ذروتها في قوله: "قد نعيش طويلاً كأفراد مشتتين، بعد أن نموت، لا سمح الله، كأمة لها وطن، إنما عيش لا يرضاه الرجل الحر الأبي، ولا يستسيغه إلا ذليل ميت شعور"، إن هذه العبارة تدل على صدق الرجل ونبله، وهم شاغل في لبه، ومما قاله عن المؤتمرين بأنهم "يعترفون بالفشل مقدمًا إذا لم تمدوا جميعًا إليهم أيديكم؛ لأنه لم يقم شيء في هذا العالم إلا بالإخلاص والتعاون".

لقد تفرست هاتان العبارتان حال المؤتمر وحال حضرموت ومستقبلهما، أو حذرت مما آل إليهما، فأصبح الحضارم مجرد أفراد مشتتين بعد أن ماتوا كوطن، وهم الآن في سواء في الداخل أو المهجر يتجرعون ذل التبعية لهذه الدولة أو تلك، أما المؤتمر أو بالأحرى مشروع الإصلاح ككل ففشل لافتقاده الإخلاص فضلاً عن التعاون، وأثبت القعيطيون بما فيهم السلطان صالح أنهم لا يخلصون لحضرموت كوطن بل للعرش الأسري، وكانوا يريدون فقط إصلاحًا ديكوريًا على مستوى المجتمع والإدارة، أما المداميك السياسية والركائز الوطنية فأهملوها؛ لذا أصبح عرشهم ذكرى كإيوان كسرى، ومات الوطن بعد تلك الكلمة بأمد قصير في دوامة الأعاصير وبئس المصير.

لم يعرض المؤلف نصًا يدل على ترحيب السلطان الكثيري بقرارات المؤتمر وقبولها من عدمه، لكنه عرض رسالة أخرى كتبت بعد نحو سنتين من عقد المؤتمر موجهة من السلطان علي بن منصور إلى أهل تريم وسيئون، ذكر فيها ما آل إليه المؤتمر وموقف السلطان عمر منه، أخذ المؤلف منها شاهدا على أن الكثيري كان قد رحب بمقررات المؤتمر في حينه.

أورد المؤلف رسالتين نصيتين من السلطان صالح المقيم حينها في الهند يقبل فيها قرارات المؤتمر، واحدة موجهة للمؤتمرين والأخرى للجنة التنفيذية، قال فيهما إنه اطلع على قرارات المؤتمر ووعد بتنفيذها تدريجيًا

وأورد المؤلف رسالتين نصيتين من السلطان صالح المقيم حينها في الهند يقبل فيها قرارات المؤتمر، واحدة موجهة للمؤتمرين والأخرى للجنة التنفيذية، قال فيهما إنه اطلع على قرارات المؤتمر ووعد بتنفيذها تدريجيًا، وذلك بعد "درس حال البلاد وما تقتضيه الظروف المحيطة بها من الحزم والحكمة، والسير بالأمور تدريجيًا"، فكان ترحيبه بالقرارات حذرًا أو فاترًا، معتصمًا بالتدرج الذي يسبقه (دراسة) لمدى استعداد البلاد لتطبيقها !!، وفي رسالته الأخرى نوه بالمندوب وحسن اختياره، وأبدى رغبته في استقبال أعضاء اللجنة التنفيذية، ولم يأت ما يدل على حدوث المقابلة، لكن هؤلاء هل بعثوا برسالة أخرى للسلطان عمر، أو لماذا لم يرسلوا له وهو أيضًا كان متواجدًا في الهند بجوار صالح؟

ثم عرض المؤلف نص بلاغ السلطان عمر الذي تضمن موقفه من المؤتمر ومقرراته، وفيه من الإشكالات والغموض الشيء الكثير، أولها كما ذكرت من قبل حول المتسبب في اتخاذه لهذا الموقف المصادم بقوة جملة وتفصيلا، شكلا ومضمونًا للمؤتمر ومقرراته ومبعوثه، وما علاقة السيد محمد عقيل بن يحيى بالموضوع، ولم انصب غضب السلطان عليهما؟ إن الساسي هو من سلم القرارات لصالح في الهند فلم عاد للمكلا ولم يعد إلى سيئون أو يواصل رحلته إليها حيث منطلقه الأول، من أبلغه بقرار النفي، ولماذا تحرك بعدها إلى عدن ولم يلجأ للكثيري في سيئون أو الكاف في تريم وهو الذي كان مرشحهما منذ البداية ودفعا به إلى هذا الغمار.

أما بيان السلطان عمر في صحيفة (الشرق الأدنى) المصرية فحديثه عجب ويثير عددًا من الملاحظات والتساؤلات: لماذا صب السلطان جام غضبه على الساسي دون غيره وحمله وحده المسئولية كاملة إلى درجة أن جعل قيام المؤتمر أتى بدعوة من الساسي!! وتكرر الكلام عنه في البيان ثلاث مرات، ووصفه بالغريب، وبجهل أحوال حضرموت، وبعدم معرفته بطبائع ساكنيها، فلماذا لم يفطنوا لذلك حين انتدبوه وراسلوه مباركين مهمته بما فيهم السلطان عمر نفسه حسب الوثيقة التي أوردها المؤلف، فإذا كان (ذوو العقول الراجحة) أنكروا دعوته فإن لديه توكيلات معتمدة من سلاطين حضرموت ووجهائها وأعيانها، فمن كان يقصد السلطان بذوي العقول الراجحة إذن.

لقد اشتمل بلاغ السلطان على عموميات جمة وعبارات مرسلة، فنحن لم نعرف من قصد بذوي العقول الراجحة، ومثله قوله "تجنبوا دعوة ذوي المكانة وذوي العقول" ولا نعرف من قصد بهم فالدعوات كانت شاملة أو قريبًا من ذلك، وإن لم يحضر أكثرهم، فلو كانوا عبر بالغياب لكان أقرب للصواب.

ومن ذلك قوله بأن المؤتمرين قد "قرروا قرارات تنطوي على أغراض شخصية تعود للقطر الحضرمي بأضرار جسيمة"، فما هي تلك الأغراض، ولم هي شخصية، وماذا قصد بالأضرار الجسيمة، لم يذكرها أو يمثل لها، لكنه قال: "لما تضمره تلك القرارات من التفرقة بين أهل حضرموت"، فأي تفرقة قصد وما نوعها، إنه لم يشر لقرار بعينه بل عمم عن عمد، وكان بالإمكان رفض قرارات محددة أو تعديلها والمجال مفتوح لذلك، ولكن كان المقصود هو إسقاط جميع القرارات وإفشال المؤتمر، بل إفشال مشروع الإصلاح من أساسه.

والسلطان عمر في بلاغه كشأن صالح تجاهل

السلطنة الكثيرية وعبر عن طرفها بعبارة "ذوي اليسار وبعض من أعيان"، ويتماثلان أيضًا في تجنب الحديث عن أي إصلاح سياسي أو يمس ركائز الدولة، ويقتصران على الجوانب المجتمعية أو الإدارية الإجرائية ولاسيما الأمنية، ومن ثم أشار البلاغ إلى عزم القعيطية على القيام بإصلاحات تخصها وبواسطة رجالها فقط، وكأن كاتب البلاغ هو صالح نفسه أو أوحى بأفكاره إلى عمه، وهو يعلم أنه السلطان القادم الذي سيتولى تلك الإصلاحات المقعططة.

إن في البلاغ إشارة تكاد تكون واضحة إلى أن السبب الحقيقي لزمجرة السلطان هو أن القرارات ربطت تمامًا بين القعيطية والكثيرية، ولاسيما في شأن الموازنة المالية، والأدهى من ذلك أنها ساوت سياسيًا بين الكيانين، وهو أمر يصب في صالح الكثيرية التي كانت خاضعة في علاقاتها الخارجية للقعيطية بحكم معاهدة ١٩١٨ التي وقعها الإنجليز بين الكيانين، وصارت الكثيرية بموجبها كأنها لواء قعيطي وليست كذلك، وهو أمر غفل عنه أو تجاهله المؤتمرون أو شق عليهم اعتباره بسبب نوعية المؤتمرين وانتماءاتهم كما أشرنا، أو ربما لأنهم اعتبروه واقعًا شاذًا نتج عن تدخل أجنبي، وهو فعلاً كذلك، فتلك المعاهدة لا هي أراحت سلاطين القعيطية ومكنتهم من إكمال بسط نفوذهم على مدينتي سيئون وتريم، ولا هي أراحت شعب الكثيرية فأعفتهم من مكوس التنقل بين الكيانين اللذين اقتسما الأرض والإنسان في حضرموت.

وعودة إلى البلاغ فإننا نلاحظ صمت صالح بعد صدوره عن إبداء أي ردة فعل تجاهه، مع أنه قدم نفسه كالمتعهد منذ البداية لمشروع الإصلاح ومؤتمريه في الداخل والمهجر، وتظاهر بمباركته لمخرجاتهما، وليس ذلك بعادته وهو المعتاد على مشاغبة عمه في ما هو دونك ذلك من شؤون الحكم والولاية، فلم يدافع عن المشروع ولا عن المؤتمرين ولا عن مندوبه الطيب، بل غاب فجأة عن المشهد فترك الهند وسافر إلى مصر للاستجمام !!

والمؤلف بدوره أشار إلى سببين لرفض السلطان عمر للمؤتمر هما "تعرضه لضغوط ممن له علاقة بالخلاف العلوي الإرشادي"، و"بطانة السوء ممن غلب مصلحته الشخصية على المصلحة العامة"، ولم يشر لأطراف أو شخوص بعينها، ولكني لا أستبعد أن يكون صالح هو من أوعز لعمه بالرفض بعد أن أطلعه على قرارات المؤتمر التي لم تأت على ما كان يراه وينتظره من المشروع بحسب تلميحاته في مختلف خطاباته، التي ربما لم يفقهها الآخرون أو لم يقرؤوها قراءة واعية، ومضمون البلاغ كان أقرب لنفس صالح فلا أستبعد أن يكون هو من كتبه، وحيث إنه قدم نفسه الراعي والمتعاطف مع المشروع فقد كان من المنطقي أن يسند مهمة إعلان البلاغ لعمه كنوع من تبادل الأدوار.

وكان الطيب الساسي هو كبش الفداء الذي ذبح على نصب الفشل الذريع لمشروع الإصلاح ومؤتمريه، ووصفه البلاغ العمري بالغريب وبالجهالة لأحوال حضرموت وهو أعرف الناس بعدم صحة ذلك لأنه جرب جهوده في الصلح مع الحموم، وربما يكون الساسي استلم ثمن قيامه بهذا الدور وتقبل الإهانة، عند تسليمه لبيان المؤتمر لصالح في الهند، وهناك طلب إليه العودة للمكلا والمكوث بها وعدم الاتجاه إلى سيئون حتى يأتيه قرار النفي فيتحرك إلى عدن، بينما سارع صالح بالسفر إلى مصر للتخفي منعًا لتعرضه لأي إجراءات، وتم ترحيل ابن عقيل عن المكلا على الأرجح تعبيرًا عن الانزعاج من مشايعة العلويين للجانب الكثيري منذ بداية رحلة الإصلاح، أي لسبب سياسي وليس لخلاف ديني كما فسر ذلك بعضهم.

الوثيقة رقم (٢) صورة من محضر الجلسة الأولى لمؤتمر الإصلاح الحضرمي الثاني بسنغافورة

يتبع لصورة محضر الجلسة الأولى لمؤتمر الإصلاح الحضرمي الثاني بسنغافورة ويظهر فيها توقيع السيد ابراهيم بن عمر السقاف رئيس المؤتمر والسيد أبوبكر بن طه السقاف سكرتير المؤتمر

إن ما حدث لم يكن في حقيقته فشلا للمؤتمر السنغافوري بحد ذاته، بل هو إفشال متعمد ومقصود لمشروع الإصلاح الحضرمي الذي دعا إليه المؤتمران في الشحر وسنغافورة، لحسابات سياسية تتعلق بالقعيطيين بالأساس، وطموحات أخرى كان يستشرفها الكثيريون من هذا المشروع، فتضارب مصلحتي الكيانين الحاكمين لحضرموت هو من أفشل المشروع.

أي أن الفشل كان سياسيًا محضًا، ولا علاقة له بالخلاف الإرشادي العلوي الذي أوحى به الحضور الأكبر للعلويين في مؤتمر سنغافورة، بحكم طبيعة المكان الذي يشكل التواجد العلوي فيه أكثر نسبة للفئات الأخرى من المهاجرين الحضارم، بعكس إندونيسيا (جاوة) التي ينتشر فيها شرائح مختلفة منهم، واختيار سنغافورة على الأرجح لم يكن بتصرف أو اجتهاد من الساسي بل بتوافق بين الأطراف التي بعثته من حضرموت، كما يشير لذلك بلاغ السلطان عمر، وهو اختيار جانبه التوفيق، وربما كان مدبرًا.

إن تطورات الوضع السياسي أكدت أن السلطان صالح الذي تولى الحكم بعد نحو ست أعوام من المؤتمر، هو المسئول الأول عن إفشال المشروع الذي لم يجر بما تشتهيه سفنه، فبعد توليه ورط حضرموت في معاهدة ضمن خلالها فصل خصمه الكثيري عنه تمامًا، وحيازة العرش في سلالته من ناحية أخرى، ثم لم يلبث أن تخلص من مناوئه في الأسرة علي بن صلاح، فصفت له السلطنة ولابنه حتى حين، وانشغل بإصلاحات على أهميتها المجتمعية إلا أنها اعتمدت على أياد أجنبية ونأت عن التأسيس الوطني لحضرموت كهوية ودولة، فأسس بذلك بنيان سلطنة أجداده على شفا جرف هار، فسقطت في ساعة من نهار.

نبارك مرة أخرى للباحث الصديق علي أنيس الكاف جهوده في الاستفادة المثلى مما لديه من وثائق، وإخراجها للناس عبر مؤلفاته التي يختار موضوعاتها بعناية تدل على جمعه بين الحس العلمي والشعور الوطني والإحساس بالهم العام، وبانتظار المزيد من عطاءاته.

جدل (الأنوثة والذكورة) وتكاملهما في سرد الأستاذ صالح سعيد باعامر

ما الحياة إلا ذكرٌ وأنثى أو أنثى وذكر. سيقول قائل: في البدء كان الذكر.

ذلك ما نؤمن به ونعتقده. فقد سبق (آدم) (حوّاء) في الوجود. فهي بعضه.

قال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها" النساء آية ١.

وبها اكتمل وجوده في إطارٍ شرعيٍّ. قال تعالى: "هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها" الأعراف آية ١٨٩. وقال تعالى: "خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منها زوجها" الزمر آية ٦.

(فحوّاءُ) لم تكن صديقةً ولا خليلةً ولا أنثى عابرةً في حياة (آدم) ولكنها وصفت في علاقتها به بصفتها الشرعيّة ولا غير وهو ما جرى ذكره في القرآن الكريم.

أ.د. عبد الله حسين البار

بيد أنّ مواضعات الحياة، وملابساتها الثقافية منحت (الأنثى) صوراً متعددةً متقلّبةً في حياة (الذكر). وصار لكل صورةٍ موقفٌ استدعته رؤىً فكريّة، وأخرى اجتماعية، وهو ما استوجب عنه حديثاً في أدب الأدباء، وكتابات المفكرين.

ولقد مضى زمنٌ بدت فيه (الأنثى) مغلوبةً مقهورةً يتسلّط عليها (الذكر) كما شاء، وشاء له الهوى. وأمّا هي فمهيضة منكسرة الجناح لا صول لها ولا طول.

وإن من المصلحين الاجتماعيين من أبناء المجتمعات العربية في عصرها الحديث مَن نَسَبَ ذلك الجور الظالم والظلم الجائر إلى الإسلام، ناسياً أن القرآن الكريم: "ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف".

سيقول قائلٌ مستدركاً: ولكن تتمّتها "وللرِّجال عليهنّ درجةٌ".

وذلك حقٌ. ولكن، أتنفي تلك التتمة ذلك التساوي بينهما في الحقوق (لهنّ) والواجبات (عليهنّ)؟ أحسبُ أن لا.

على أن الأخذ بمقولة التسلّط الذكوري والغلبة على الأنوثة نابعٌ من اتصال الذات بالآخر، وتفاعلها مع منتجات الفكر ومنطوقات الرأي في علاقة (الذكر بالأنثى) أو (الأنثى بالذكر) في أمم متعاصرة على الرغم من اختلاف الرؤى، وتباين العقائد، وفوارق التنشئة والتكوين التربوي.

من هنا اتخذت العلاقة بين الأنوثة والذكورة صوراً شتى، تنامت حتى غدت قضيةً لها دعاةً ينافحون عنها وينادون بها. وكتّابٌ يؤلّفون عنها الكتب، وينشئون من أجلها الأعمال الإبداعية. وكلها يصدر من منظور (الأنثى) في بحثها عن وجودها إزاء ما رسمه (الذكر) في إنتاجه الأدبيّ من صور لها. وكان (السرد) (كالشعر) مجالاً راقياً لجلاء مثل تلك الصور في علاقات الأنوثة بالذكورة في الحياة. ومن تلك الصور ما نجده في أعمال الأستاذ صالح سعيد باعامر قصةً ورواية.

والأستاذ باعامر من أولئك الكتّاب الذين انشغلوا بهذه المسألة الفكرية في كثير من أعمالهم القصصية والروائية، يستوي في هذا الانشغال أن يكون بوعي فلسفيٍّ مستقص متعمّق، أو بحسٍ أدبيٍّ ناتجٍ عن تجارب في الحياة مشفوع بقراءاتٍ في منتجات الثقافة والفكر. فعَلَقَ بأدبه منها صورٌ شتى متنوعة لا تخلو من محفّزات تستوجب تفكّراً وعرضاً للرأي.

وهو يستخدم ثيمة (الذكورة والأنوثة) في سردياته على نسقين، أحدهما نسقٌ اجتماعيٌ، وآخر منهما نسقٌ رمزيٌ. ولكلٍّ نماذجه من أدبه وشواهده. يستوي في ذلك أن يكون المُنتج السرديُّ قصصاً قصيرةً أو روايةً من رواياته.

وفي مقامنا هذا سنقف على قصّتين من مجموعته القصصية الأولى (حلم الأم يمنى)، وهما: (الهروب من الوحل) و(رقصٌ على ضوء القمر).

مثلما سنقف على ما اشتملت عليه روايته المطبوعة بأخرة والموسومة بـ(إنه البحر)؛ لنقرأ في هذه الأعمال ما قاله نصّاً، ونستبين ما قاله كيفيّةً.

واللافت في سردية الأستاذ باعامر عند معالجته مثل هذه (الثيمة) أن يجدل علاقةً متناقضةً بين أنثى وذكر، ثم يصاعد من ثناياها نوع من التكامل ينحلّ من بعد إلى تضادٍ وانعتاق، أو إلى تماثل وانتماء. وتلك خصيصة في الوعي بمصائر الشخصيات تفرّد بها مُنتجُه السرديّ.

ولكي لا يتيه القول في مجرّدٍ نعمد إلى تعيينه بشواهد من سرده. في قصة (الهروب من الوحل) يروي لنا (حسن) قصة خروجه من قريته بعد وفاة أبيه، وذهابه إلى واحةٍ في صحراء تفجّر فيها النفط فسال ثراءً فاحشاً غدا مطلبَ كلّ ذي حاجةٍ إلى مالٍ يسدّ به عوزه، فحثته أمه ليقصد تلك الديار أسوةً بأمثاله من أبناء القرية أترابٍ كانوا أو غير أتراب. فينصاع لأمرها إرضاءً لها، فيسوقه قدره إلى قصر ذي جاهٍ عريض، تنبئ عن ذلك الجاه أبّهة القصر ومحتوياته، ويكون عمله موكولاً إلى سيّدة القصر، وهي شابّة في مقتبل العمر، ولعلّها قريبةٌ من حسن في السن، واسمها باسمة.

لم يكن لحسن من عمل يؤديه سوى الإصغاء إلى ترهاتها في الأيام الثلاثة الأولى. لكنّها في ليلة بعد تلك الأيام عدت عليه في غرفته واغتصبت نقاءه الذي افتقدت شبيهه يوم رضيت بأن تُزَفّ قسراً إلى زوج لا يراها إلا كلوحةٍ من لوحات القصر الجميلة. فاستسلم حسنٌ صاغراً، لكنّه استيقظ على صوت أمه يحدّثه عن (الملائكة) وعن (العرش) فثار وجدانه على المهانة التي استساغها بادئ الفعل، فقرر الهرب من ذلك الوحل إلى فضاءٍ نسائمه نقيّة، وأزقّته جميلةٌ، ورياحه منعشة. ومن هنا انبثق عنوان القصة (الهروب من الوحل). والوحل كما في (المعجم الوسيط) هو الطين الرقيق ترتطم فيه الناس والدّواب، وجمعه أوحال ووحول.

بيد أن الإبداع انزاح به إلى معنى المستنقع والأوساخ التي تجرفها السيول من علٍ وتخلفها على سطح الأرض.

وهنا تتراءى مفارقةٌ في القول. (فالقصر) الذي أدهش حسناً – وهو الراوي، فقد رُويت القصة بضمير المتكلم – بسعته، وأضواء بهوه، وشدّة برودة مكيفه حتى ليكاد يتجمّد من البرودة، وجمال لوحاته وكثرتها حتى ليتساءل (هل يعبدون الفنّ إلى هذا الحدّ؟، أم أن زينة القصر تتطلب ذلك؟). والعبادة هنا تحيل إلى معنى التقدير العالي والإحساس السامي بروعة الفنّ وبهاء الإبداع فينزاح الدال عن معناه المعجميّ إلى دلالة متسعة، أقول هذا القصر الذي أدهش حسناً عند دخوله إلى (صالونه الفسيح) في مفتتح القصة غدا في ختامها غولاً يسعى هذا الفتى للهرب منه ومن أوحاله. وإنما يكون الهربُ والفرارُ من خوفٍ يقال: هرب منه دمُه، بمعنى اشتدّ خوفه. وهنا تتحوّل زينة القصر ونعيمه الظاهر إلى وَحل، ويتحوّل الوحلُ إلى مثير تستجيب له الشخصية بالذعر، فتقرّر الفرار إنقاذاً لنفسها من السقوط الخلقيّ الترديّ في الرذيلة والاستغلال الجنسيّ. وهو استغلالٌ يشي بقهر اجتماعيّ طاغٍ يشمل ذكراً وأنثى ألجأتهما الحاجة والعوز إلى ما لا يرغبان فيه. لكن استجابتيهما لهذا المثير مختلفتان. ففي القصة تقف (باسمة) وجهاً مضاداً لـ(حسن). ومن هنا تنشأ الجدلية

بين (الذكر والأنثى) على الرغم من التوافق في الرغبة والاشتهاء، وعلى الرغم من قسوة الظروف الاجتماعية التي قضت على (باسمة) بالرضوخ لزوج لا يعيرها اهتماماً ولا يزيد على أن يراها (كإحدى اللوحات الجميلة المعلقة في القصر). وهي الظروف عينها التي قضت على حسن أن يهجر أمه وقريته ويترك تعليمه، فبعد وفاة أبيه لم يعُد من عائل لأسرته غيره. وقريته مجدبةٌ لا تمنح المرء أملاً في غدٍ رغدٍ فقرّر الهجرة إلى بلادٍ لا قيمة للإنسان فيها. فما هو إلا سلعةٌ تعرض للبيع، أو قل الاستنجار لتحقيق رغبات أسياده ذكوراً كانوا أم إناثاً.

كلا البطلين أجبر على فعل ما لا يودّه ويرغب فيه، وهنا يكمن توافقهما. لكنّ (باسمة) رضخت لمصيرها واستسلمت لمظاهر الثراء مؤمّلة في إشباع رغباتها بما تحصّله من مال كثير يستحيل إلى نعمةٍ ظاهرةٍ كانت فيها من الفاكهين.

وأكسبها هذا الحال سلطةً تتحكّم بها فيمن حولها من نساءٍ سيطرت عليهنّ كما سيطر عليها زوجها الغائب عنها في ما لا نعلم من مكان. ورامت أن تستعبد حسناً بمالها، وتهيّأت لها بوادر ذلك حين اكتشفت لهفته على معرفة مقدار (المرتب) الذي سيتقاضاه، بقولها: (سأسوّي لك كلّ أمورك إذا نجحت).

ولم يكن الامتحان عسيراً حتى يرسب فيه، فما هو إلا الجلوس في حضرتها يصغي إلى ترهات حياتها تهيئة للامتحان الثاني، والمتمثل في اغتصابه جنسياً لإشباع رغباتها المتأججة.

وهنا يندغم حسن مستسلماً في البدء تحت وهج الشبق النابع من أعماقه وأعماقها، فلا تتركه إلا بعد أن نالت منه ما أرادت، واستراحت لما فعلت مبتهجةً ظناً منها أنّه غدا صيداً سهلاً لصيادةٍ غير ماهرة.

لكنّ صراعاً يحتدم في أعماق حسن بين ضمير رُبّي على قيم ساميةٍ مثلى وبين رغباتٍ مكبوتة تتدافع من عالم معتم مهجور. فرأى الاستسلام لذلك الحال تردياً وسقوطاً في وحل، وإن أغرته رغباته الشهوانية بالمضيّ في ذلك الدرب، والاستقاء من تلك البئر.

لكنّ صوت أمّه المنبثق من أعماقه يردّد: (ملائكة السماء لا ينامون، يرهفون السمع لطلبات العباد. بابُ العرش مفتوح لدعوات الأمّهات). يحثّه على التمرد على ذلك الحال المزري، وعلى الهروب منه، فرأى الإشراق بعد العتمة، واستردّ النقاء بعد التلوّث. فقرر الهرب، وكانت النجاة.

وهنا يفترق حسنٌ وباسمة. فهو ينماز عنها بأن رفض ما قبلت به، وأبى الاستسلام لما رضيت بقبوله.

وهو وإن اتخذ من تكوين الأنثى البيولوجية مدخلاً لاشتهاءٍ داخلي لم يتجاوز به حدّ الصمت فلم يجهر به وإن ردّدت السردية من دواله الواصفة ما يدل على ذلك الاشتهاء (جبينها البهي/ جسمها الممشوق/ روائحها العطرة/ فستانها الشفاف/ خصلات شعرها/ شفتاها الساخنتان/ صدرها الناهد).

والمفارقة هنا أن جسد باسمة الضاجّ كان سبباً في قهرها واضطهادها والسيطرة عليها رغبةً في امتلاكه بالمال الوفير والنعمة الزائدة الزائفة. وهو الجسد عينه الذي يستحيل إلى شَرَكٍ تصطاد به باسمة من تراه قابلاً للاستسلام له وراغباً في اشتهائه والظفر به لتحقق من خلاله ما ترومه من سيطرةٍ على الآخر وامتلاك وجوده، أما المال فيأتي لاحقاً. (ستكون تحت إمرتي). فإذا كان الزوج بماله قد امتلك جسد باسمة ونال منها مبتغاه وإن بعلاقةٍ شرعية، فباسمة بجسدها رامت امتلاك حسن قبل امتلاكه بمالها. (إذا نجحت في الامتحان سأسوّي أمورك)، و(سأنال منك كلّ ما أريده). وهنا مفارقةٌ ثالثةٌ هي استعصام حسن بموقفه الأخلاقيّ الذي يقيم له

الأديب
صالح باعامر

المجتمع اعتباراً في كل نواميسه رغم التهاب الجسدين، فهو يذكّرها بأنها متزوجة: (إنك متزوجة) فتصفعه بقولها: (لو عرفت حقيقتي ما قلت ذلك). فيدافع حسن عنها من حيث هي: (لا أظنّ أنه سيجد أجمل من باسمة). فتثني على نقائه وسذاجة تفكيره وغرارة تجربته في الحياة. فيستحيل حديثه معها إلى حديث عنها، وغزل بها: (إنك صغيرةٌ ولطيفةٌ وأيضاً جميلة). فيغدو ما تدعوه إليه أحبّ إلى نفسه من السجن الذي ارتضاه (يوسف) خياراً له من ملاحقة امرأة العزيز له.

بيد أن هذا الصراع المحتدم بين الشخصيتين تحسمه (الأنثى) الكامنة في أعماق (الذكر/ حسن)، فتغلبت بقيمها المثلى على هذا السقوط المفجع. وتلك الأنثى هي أمّه التي انبعث صوتها من داخله فتردّد أصداءً ملء وجدانه: (بارك الله فيك ياولدي.. إنك ما زلت صغيراً.. الأحرى بك أن تواصل دراستك لكن ماذا نفعل؟ لقد جاء دورك بعد وفاة أبيك.. الله معك). ومثله: (ملائكة السماء يرهفون السمع لطلبات، باب العرش مفتوح لدعوات الأمهات) أليس هذا برهان ربه لينجو مما تدعوه باسمة إليه، ويغدو الفرار من قصرها فراراً من وحل ومستنقع إلى فضاءٍ كلّه نور وإشراق؟ ألم يكن وقت فراره مع بزوغ ضوء الشمس؟ وهذه وظيفة تفسيرية رمزة للوصف يجيد باعامر أحكامها كما دلّل على ذلك كاتب مقدمة أعماله الكاملة في جزئها الأول، فلتنظر ثمّة. أما أنا فمعنيّ بالنظر في القصة الثانية من مجموعته الأولى وعنوانها (رقص على ضوء القمر) لألتمس جدلية الذكورة والأنوثة وتكاملهما فيها. في هذه القصة (أنثى هي الزين) و(ثلاثة ذكور) هم سويلم وسالم وأب الزين. تنشأ بين تلك الشخوص علاقتان متضادتان متناقضتان هما علاقتا (اتصال) و(انفصال).

لكن السردية تفتتح النصّ بوصف للأنثى على المستوى البيولوجيّ فتحدّد عمر الأنثى بأنه (في التاسعة عشرة من العمر). وتلقّط ملامح من حسنها لتوكيد المنحى (الواقعي) في القصة ليقينها من المستوى الرمزي المهيمن على أبعادها: (ذات وجه حالم، وعينين عسليتين جميلتين، ووجنتين ورديتين، وثغر باسم...).

وهي أوصاف لا وظيفة لها غير ما سلف ذكره. ومن هنا بدا التركيز على طبيعة العلاقات الرابطة بين الشخصيات ذا أهمية في العملية السردية.

تنقسم القصة إلى عدد من المواقف التي تجلو واحدة من تينك العلاقتين المتأرجحة وقائع القصة بينهما.

في الموقف الأول يتراءى (سويلم) مترصّداً قدوم (الزين) مُذ خرجت من منزلها متجهة نحو الحقل لجني الذرة من سنابلها ووضعه في سلتها فيحييها بغزل (يازين الزين) ليؤكد علاقة الاتصال بين (ذكر وأنثى) في إطار علاقة عشق. لكنه اتصال ملغوم بانفصال ينبئ عنه اندهاشها من سماع صوته، وذعرها من مرآه. ولم يقف عند ذلك الحدّ فأمرته بالذهاب عنها (قبل أن يراك أحد)، وهو ما يفضي إلى انعدام التوازن في الموقف بين الطرفين. فهما عاشقان ومخلصان في عشقهما، لكنّ شيئاً يريبه منها، هي على علم به، وهو لا يستطيع تبيّن سرّه.

قال السارد:

(نظرت إليه مضيقة عينيها.. همّت أن تفشي ما بداخلها لكنّها تراجعت).

لكن (سويلم) يأبى تصديق ما نطقت به (الزين) على الرغم من القلق الذي انتابه، مما مهّد لبدء الإحساس بالهزيمة، ويختلّ لديه التوازن. لكنه ظلّ مؤمّلاً مرآها في حلبة الرقص راجياً من ذلك الاستناد على شيء يعيد له توازنه بعد اختلاله، غير عالم أن الرقص هو السبب في الضغط عليها لقطع الاتصال به – ولذلك جاء صمتها ترديداً خفيّاً لما تهجس به مشاعرها: (أعذرك لأنك لا تعرف ما يدور). مما يصعد باختلال التوازن إلى حدّ الانهيار.

في الموقف الثاني تلجأ السردية إلى استخدام تقنية (الاسترجاع). فتستعيد (الزين) في طريق عودتها إلى منزلها وقائع آخر ليلة رقصت فيها في حلبة (سويلم) ورفاقه، ودخولها على أبيها في وقتٍ متأخر من الليل.

وهنا تنشأ علاقة بين (الأنثى/الابنة) و(الذكر/الأب) الذي هو قاهر بسلطته الأبوية الممنوحة له بالحقّ الإلهي والشرع الديني والعرف الاجتماعي، فيهيمن (الثقافي) بكل صورة على الموقف، وتنتج علاقة انفصال بينهما مشوبةً

باتصال هشّ. فهو على الرغم من السماح لها بالرقص في الحلبات، وعدم اعتراضه على خروجها في الليل المعتم المظلم يمثّل لها حالة من الذعر حين عودتها إلى المنزل في الليل البهيم وهو مستيقظ. ومن هنا هتفت خائفةً حين سمعت صوت (نارجيلته) وشمّت روائح (تمباكه) قائلةً: (يا إلهي! إن أبي ما زال ساهراً! ماذا حدث؟)، وهي تتوجس شراً قبل أن تُحيط بالخبر علماً.

بدأ الشيخ الحديث معها بالتذمّر: (أيقظني رقصكم)، والاحتجاج على رقصها في حلبة سويلم ورفاقه: (سمعتُ أنك تفضلين الرقص في حلبة سويلم)، ليكشف من بعد عن عدم ارتياحه لتلك الحلبة مستنكراً تفضيلها إيّاها، لكنه حصر علّة تفضيلها برغبتها في البقاء بجانبه، والضمير يعود على (سويلم) الذي سعت (الزين) إلى زحزحة ذكر علاقتها به إلى حين آخر، لكنه أجابها: (لقد عرفت كلّ شيء).

هنا تكشف السردية عن فجوةٍ في تسلسل وقائع الحدث، لكن الحوار بينهما يرأبها فندرك من خلاله أن ضغطاً ما وقع على كاهل الشيخ المتساهل مع ابنته ألزمه بتغيير وجهة نظرها من الرقص في الحلبتين بين قبول ورفض. فعمدت – أعني السردية – إلى جلاء الموقف (الرامز) في إطار من التكوين الاجتماعي الذي يجعل (الأنثى) منصاعةً دائماً لسطوة الأب، والأبَ خانعً لسطوة الأعراف الاجتماعية والانتماءات الطبقية: (إنهم لا يليقون بك، فأنت من طينة، وهم من أخرى)، هكذا قال الأب لابنته، وحين احتجّت عليه بأن ذلك كان في زمن مضى قال لها: (سيبقون كما هم. اتركي الأوهام.. إنك ما زلت صغيرة). والرقص ألهاك عن فهم أشياء عديدة).

كانت العلاقة تتسم بالاتصال بين الأب وابنته ما غفَلَ الأب عن سطوة تلك الانتماءات، فأباح لها ممارسة الرقص دون رقيب فانتصرت (الزين) لحريتها في اختيار الحلبة، وعشق من هنت إليه نفسها، بل ودافعت عن ذلك الاختيار أمام أبيها بشجاعة تصل حدّ الوقاحة حين ردّت على سؤال أبيها عن عدم رقصها في الحلبة الثانية بقولها: (إنهم لا يعجبونني).

وهنا لا يبدو الرقص موضوعَ انتقاد في ذاته تحت أيّ منظور أخلاقيّ، ولكنّ المنتقَد هو الاختيار. فهو المشكلة. اختيار الحلبة واصطفاء الراقص، ومن ثنايا ذلك ينشق الانتماء من قمقمه، انتماء الأب إلى الحلبة الثانية، ورفضه للحلبة الأولى وراقصيها. وانتماء الابنة إلى الحلقة الأولى، ورفضها للحلبة الثانية وراقصيها. فتتجسّد من ثنايا ذلك علاقة انفصال بين الشخصيتين.

بيد أن القهر الاجتماعي، وهيمنة علاقات المجتمع على المستوى الديني والعرفي من حيث الانصياع لأوامر الأب وتقديرها يغمر (الابنة) فيجبرها على الخضوع رغم ما جبلت عليه من تمرّد، فتخنع بعد شموخ، وتختار الاستسلام بعد كبرياء. فتهجر (سويلم) لترقص في حلة (سالم) ابن شيخ القرية. قال الأب: (أدرك أنك تحبينه. لكن سالم سينسيك كلّ شيء). فكان إجهاشها بالبكاء إعلاناً عن الاستسلام والرضى بما ارتضاه الأب.

في الموقف الثالث وهو الأخير تقرّر (الزين) الاستسلام لرغبات أبيها بعد أن رجاها أن لا تخذله: (لا أصدّق أن تربيتي ستذهب هباءً). فذهبت إلى الحلبة الثانية هاجرة حلبة (سويلم ورفاقه) على الرغم من اشتداد الرقص فيها، وتعالي أصوات المغنين بها، وضجيج أكفّ المصفقين من الحاضرين إليها وأقدامهم الضاربة على سطح الأرض ذكوراً وإناثاً. فيفتقدها (سويلم) ويشتدّ به القلق لغيابها وتأخرها عن القدوم إليهم فداخله شكّ دفعه للذهاب صوب الحلبة الثانية فانذهل من وجود (الزين) ترقص ثمّة، فاقتحم الحلبة وأخرج الزين منها، لكنّ أزلام ابن شيخ القرية دفعوه عنها ليظهر (سالم من بين الراقصين متزيّناً بأفخر الملابس.. ومتباهياً ببندقيته ووقف أمام سويلم بتحدٍّ قائلاً بصوتٍ آمر: ابتعد عنها). فيتعالى ضجيج اللجاج بينه وبين سويلم حول الزين وصلة كلٍّ منهما بها،

فادّعى سالم ما لم يدّعه سويلم من أنها (خطيبته). وهذا إطارٌ شرعيّ يخرس الألسنة. لكنّ (الزين) تأبى الاعتراف بتلك الصفة فتمرّدت عليها كونها تمّت دون علمها ولا موافقتها فـ(افترقت الزين الجميع وأمسكت بيده – أي سويلم – ودخل الاثنان يرقصان في الحلبة الأولى).

هنا تتراءى حلبة الرقص رمزاً لصراع بين يمين ويسار، خيانةٍ ووطنية، ذكورةٍ تتكامل بأنوثةٍ، وذكورة تتقاصر عنها الأنوثة. وتغدو المرأة رمزاً للثورة التي يعرفها الفقراء والمحتقرون اجتماعياً – انظر في دلالة التصغير في (سويلم) و(عليان) – ولا يدرك معناها شيوخ القرى ولا أبناؤهم ولا أنصارهم الراضخون لهم.

ويبدو تمرد الأنثى على سطوة الأعراف الاجتماعية والتشريع الديني والانتماء الطبقي سبباً في انتصار المعدمين المحتقرين ليأخذوا بنصيبهم الوفير من الحياة. ويتجاوز بذلك دور الأنثى هنا حدّ التفاعل الاجتماعي ليتخذ بُعداً رمزياً لا يخفى.

أما (الرقص) من حيث هو، فقد جرت به السردية في أعمال أخرى، فرأينا (زوربا) يرقص في رواية كازنتزاكي، ورأينا (الزين) رواية الطيب صالح يرقص في كلّ عرس، لكنهما لم يوغلا في رمز. لكن حنا مينا هو الذي أوغل في الرمز حين جعل من الرقص مهاداً لإيقاظ المجتمع النائم ليثور على وضعه المتردّي، ويكون تعلمّه وسيلة البطل في الانسلاخ من طبقته والانتماء إلى طبقة المعدمين في روايته (الشمس في يوم غائم). ومن أحشاء كل ذلك جاء رقص باعامر على ضوء القمر مضمّخاً بعبير بيئته المحلية من هنا كان امتيازه سرده في قصته القصيرة هذه.

ثم نأتي بعد هذا الطواف إلى روايته (إنه البحر)، وفي العنوان ما يستوجب استدعاء عوالم أنأى ما تكون (الأنثى) عنها. فقد خلقت عوالم البحر (الذكور) ذوي سماتٍ خاصة وتكوين موصوف بدوال وضعت لوصف أحوال أمثالهم. لكنك حين تمخر في عباب تلك الرواية (إنه البحر) تتكشف أن للأنثى حضوراً فيها، وله انتشاره في جنباتها كحضور الذكر فيها، وأن جدليّة تنشأ بين الذكورة والأنوثة فيها على مستوياتٍ شتى، منها ما يتوافق ويتراسل، ومنها ما يتخالف ويتضادّ.

والعلّة التي نراها سبباً في حضور (الأنوثة) في عالم تختص بها (الذكورة) في هذه الرواية تعود إلى أن مساحة الوقائع التي في البحر أضيق من مساحة الوقائع التي تدور في (البنادر والمراسي). فالأحداث في فصل (ما بعد الإبحار) تجري على شاطئ البحر، حتى الجزء الذي تدور وقائعه في عمق البحر إنما تستذكره (حسناء) وهي على الشاطئ مستحضرةً صوت (السحيم) وهو يروي لها ما حدث معهم. ومن هنا صحّ استخدام ضمير الغائب في سرد تلك الوقائع. ولشيءٍ من هذا عنيت (السردية) بأخبار حسناء ونزولها المتوالي إلى الشاطئ، وحضور (الزين) معها، لم ذهابهما إلى الموبرة وسعيهما إلى مشاهدة حفلة (ما قاله التجلوب)، والضجر من (عبث الانتظار). ولم ينفرد فصل من تلك الفصول بتصوير صراع التجارة مع أمواج البحر، ولا وصف حركتهم في أعاليه ما خلا ما جاء في الفصل الموسوم بـ(فوق غبب رؤوس عمان)، ووصف سير السفن متجهةً إلى شرق أفريقيا عن طريق. وحتى في هذه الإلمامة لم يُخل السردُ بياض الصفحات من سواد وصفه ما جرى في تلك البنادر والمراسي التي وصلوها.

هذا الاستغراق في وصف ما جرى في البر الساحليّ دون بحره قد عاد بجدوى على متن الرواية، إذ تمّ استحضار الأنوثة على صور شتى دون قصر الحكاية السردية كاملة على الذكورة كما نجد في أغلب قصور رواية (الشراع والعاصفة) أو سواهما من أمثالها من رواياتٍ كان البحر فيها موضوعاً لسردٍ طويل.

في الرواية تندغم أنوثةٌ وذكورةٌ إذاً. وتنوّعت العلاقات في ما بينهما. ففي حين كانت العلاقة بين (السحيم وحسناء) و(سويلم والزين) تجري في إطارها الشرعيّ بوصفهما زوجين متحابين تتراءى علاقة (السعد بالنوبة) وعلاقتها بشيرون شاذّةً على المستوى الجنسيّ، وعلى مستوى المزج بين الواقعيّ والخرافي، مما يفقدها فاعليتها الإنسانية، ويدخلها في شيء من الرمز.

وقريبةً من هذه العلاقة الشاذة بين (السعد وصاحبيها) علاقةُ (سالم المرزوع بقمر) التي قامت على الاتصال بغرض الممارسة الجنسيّة لهواً وعبثاً والتذاذاً لا نماءَ له.

هذا في إطار البيئة المحلية وشبيه به ما رأيناه في خارجها، في زنجبار مثلاً التي وصلتها (الفرج) آخر الرواية. فهناك ذكورة وأنوثة لها علاقات أخرى، فالأنوثة مطلبٌ حميمٌ للذكورة من (المتوّهين) وأشباههم، فإذا رضيت الأنثى بذكر اتخذت السبيل السليم لإتمام علاقتها الشرعية بمن تحبّ، فإن تأبّى أبوها عليها اتكأت على إرادتها وهربت مع حبيبها إلى حيث يتمّان ما بدآ. وفي هذا التمرّد خرقٌ لما رُبّي عليه أبناء البلدة على المستوى الديني وعلى مستوى العرف الاجتماعي. ومن هنا كان الحديث عن مثل تلك العلاقة – وإن جرت في إطارها الشرعي – مبعث اندهاش من (السحيم). وإن من أمثال تلك العلاقات ما لم يسلم من مأس كالذي حدث لأحمد الغرابي حين عشق جوهر أمجد، وكادت تنتهي بموته لولا قدرٌ أنجاه من هلاكٍ محتوم.

بقيت علاقةً شاذة غير سويّة بين ذكورة واعيةٍ بما تصنع وذكورة مختلّة تنصاع للقيام بدور (الأنثى) على المستوى الجنسي. ولقد بدأ الحديث عنها خفيفاً في أول الرواية لكنّه أوغل في الحس الغليظ بها حين روى السرد حكاية العلاقة بين (الصبي سليمان) و(الزنجباري هلال) التي انتهت بزفافهما بعد عقد قرانهما على يد قاضي الغرام. وتلك ذكورة شائهةٌ ناقصة استحقت مصيراً محتوماً هو (الموت) أو (الفضيحة) ازدراءً لسوء ما صنعت. ومن هنا جرت العلاقة السويّة بين الأنوثة والذكورة في إطارها الشرعيّ ما خلا ما جاء من حديث عن (الزين والنوبة وشيرون)، وعن (سالم المرزوع) وعلاقته بـ(قمر).

واللافت في رسم هذه الشخصيات وتشكيل المواقف أنها خضعت لمؤلّف الكلام بتعبير أوسبنسكي، فصارت تسير إلى حيث رسم لها، وعلى النحو الذي ارتضاه فجاءت صورها ملتصقة بهواه عن وعي منه مقصودٍ أو عن غير وعي مقصود. ولذلك ظهرت (قمر) فجأة، وعاشت في الحدث الروائي قليلاً ثم ذهبت إلى عالم مجهول لا علم للقارئ به لعدم اعتناء السردية بها. ومن قبلها كانت وظيفة شخصية (السعد) محدودة برصد ما قاله التجلوب ثم تلاشى أثرها، وكأنها بنت الليالي الثلاث المذكورة في ذلك الفصل. و(سالم المرزوع) عشيق (قمر) ظهر في أول فصل (في الجزيرة الخضراء) واختفى في آخره، فلم يقدّر مؤلف الكلام له أن يعيش طويلاً على الرغم من حيوية شخصيته وفاعليته على تفعيل دراما العملية السردية. أما (سويلم) فعلى الرغم من أهمية حضوره في الرواية إلا أنه لم يحظ إلا بالقليل مقارنة بالسحيم. ولا مراء في أن السحيم هو (الذكر) الأمثل في الرواية مثلما (حسناء) هي (الأنثى) الأولى فيها، لكنّ بينهما فرقاً ليس على مستوى التكوين البيولوجي فحسب بل على مستوى الفاعلية وحيوية الصفات. فهو قويٌ يدير دفة السفينة بصبر واستبصار حازم لا يدع للتراخي ذريعةً تفقده السيطرة على المواقف المختلفة كموقفه من أحد (العبرية) حين هاجم الذكرين العاشقين وعيّرهما بفعلتهما، ناسياً ما أحدق بهم من خطر لسوء ما فعلا، فسحبه إليه معنّفاً، ومنعه من تجاوز حدّه حتى لا يكون سبباً في تهييج الركاب ضدهما. وهو لم يهمل إنزال العقاب بذينك العاشقين لئلّا يتمادى في ارتكاب الفحشاء سواهما. ناهيك بحبّه للصمت واقتداره على ضبط نفسه عن الثرثرة فلا يفضي إلا بما رام الإفضاء به من الكلام. ومن هنا بدا متماسكاً قادراً على الفداء بروحه إنقاذاً للآخرين.

هذه الشخصية الذكورية الممتازة بتلك الخلال تتطلبها وقائع الرواية لاقتدارها على مواجهة أهوال البحر ومخاطره تقابلها شخصية الأنثى المتمثلة في حسناء التي لها نصيب من اسمها، فهي تدرك محاسن جسدها وتحافظ عليها، وتحاول عرضها كعادة الأنثى كما عند فرويد، لكنها عاشقة حتى الوجد بزوجها السحيم لا ترى في غيره بغيةً، كثيرة الاشتياق إليه، بل ليس لها

من فاعلية في الرواية سوى الحنين إلى ذكورته وتوقها إلى الالتصاق به والبقاء بين ذراعيه لتروي ظمأ عروقها من خمر فحولته التي عتقتها مغامراته في البحار، ولذلك فهي تتلذذ برواتح البحر لأنها تذكرها به.

وحسناء لا تغيب عن وجدانها هذه الأنوثة ولا تحاول تجاوزها إلى دور أشدّ فاعلية، فانحصر وعيها عليها وعلى انجذاب الآخرين لجمالها كالعابرين في الطريق والقاعدين على المقهى بل حتى تعابين البحر لم تسلم من فتنة حسناء فأصرّت على ملاحقتها كما قالت أم الزين ساخرة منها، ولا يضير الشخصية أن تكون تلك طبيعتها التي أثر السرد أن يحصرها فيها، ولكنها تغدو مسطحة غير قابلةٍ للتطور والتفاعل مع تقلبات الأحوال. فهي غير قابلة للتمرد ولا التذمر إلا من طول أمد غياب السحيم عنها، أو من عدم حرصه على إغلاق باب غرفتهما بعد عودته من رحلته الأخيرة متأثراً بما ملأ نفسه من حزن وأسى لفقد سالم المرزوع. وحتى هذا التذمر السلبي صرفته عن خاطرها حين أنبأها السحيم بما لا تعلم.

هل كان ينبغي أن تكون (حسناء) صورة مضارعةً للسحيم قوّةً واقتداراً حتى تتكامل معه؟ أحسب أن لا.

بل لعلّ التكامل بينهما لا ينبع من جدلية متناقضة رامزة بين ذكر وأنثى وإنما بين عالمين، عالم كلّه قوة ومخاطر وأهوال، وعالم كلّه رقةً ونعومة وهناء مقيم. ولذلك فإن ما يفتقده السحيم في إطار عالمه المفزع المخيف يجده في أحضان حسناء ودفء فراشها.

وما تفتقده حسناء من سندٍ قويٍ يعصمها، ويحقق لها حاجة الإشباع إلى الأمن في صور شتى لا تلقاه إلا حين يحضنها السحيم. ولذلك فحين ذهب إلى زنجبار، وأنبئت بمرور سفينته على جزيرة سقطرى اشتعل القلق في نفسها عليه، لا من خطر محدق به في البحر، ولكن من حسناء أخرى تجذبه إليها بسحر ربّاني أو شيطاني. في حين بدا السحيم غافلاً عن صور الأنوثة المترامية أمام عينيه وهو يحادث ابن عمه حديثاً لا يتجاوز ما تضمنه من تعليق حدّ الشفاه. ففكرة منشغل بحسناء وفكرها لا يشغله سواه. وهذا تناغم بين الشخصيتين به تتكامل أنوثة وذكورة في إطارها الفطري. ومن هنا غلب الثقافي المتداول حول علاقة الزوجين بعضهما ببعض عند تلك الحدود فلم تتجاوزها حسناء كما تجاوزتها السعد مثلاً على شذوذ مسلكها، فظلّت منسجمة مع استسلامها دائرةً في فلكه غير قادرة على تجاوزه.

هذه العلاقة بين (السحيم وحسناء) نُسخت في علاقات شخصيات الرواية ذكوراً وإناثاً. فسويلم والزين لا يبعدان عنها وإن افترقا في الحضور المحدود لشخصية سويلم عن المدى المتسع الذي حظيت به شخصية السحيم. وبين سالم المرزوع وقمر وبين السعد والنوبة والسعد وشيرون من صور متنوعة تنتج علاقة واحدة تكون فيها الأنثى جسداً فوّاراً يشبع رغباته ذكر قويّ البنية ذو أثر عميق في وجدان الأنثى. ويتراسل معه ما شذّ عن سواء العلاقة بين ذكر وذكر، فهو قريبٌ من قريب.

وتأويل هذا الصنيع في رواية (إنه البحر) متيسر. فقد اضطرب الرسم الروائي بين (حكاية بحار) و(المرفأ البعيد). ففي رغبة السرد في الحديث عن مخاطر الإبحار في غيب المحيطات وأعالي البحار ما يشغله عن المرفأ البعيد، وما يمثله من مراسٍ وبنادر، لكنّ ذلك لم يتم له، فانصرف عنه إلى جلاء أحوال البنادر والمراسي، فشغل عن الاستغراق في حكاية البحار وصراعه مع أمواجه، فجاءت الرواية خليطاً من هذا وذاك، فاختلط فيها كل متناقض ومتضادّ على هذا النحو الذي صنع شعريتها الخاصة.

وخلاصة القول في هذا المقام أن الأستاذ صالح باعامر قد بدأ قصصه القصيرة منتصراً للأنثى فخلقها مضارعة للذكر متحدية لقهره متأبية على محاولات تدجينها لثقافة مجتمع واعتقاد أمّة. لكنه في روايته هذه جعلها خانعة مستسلمة لا تزيد على كونها جسداً ينتظر، لا فاعلية له إلا انتظار قدوم الذكر انتظاراً لا يخلو من عبث. ومن هنا رسم أمامها عالماً لا تستطيع عليه صبراً ولا تقوى على احتمال أهواله فتتركه لذكورة مكتفية بالبقاء على الشواطئ والبنادر والمراسي.

البعد الغرائبي في شخصيات سردية الحَمُودي

نشرت مجلة الرافد كتابها الشهري المعتاد في ديسمبر (٢٠١٣) العدد ٠٦٠ من تأليف الدكتور عمر عبد العزيز والكتاب بحسب التصنيف الأدبي يعدّ من جنس السرديات . والسردية المعنية بالدرس اختارت لنفسها عنواناً هو (الحَمُودي) وهو اسم لأحد الشخصيات الرئيسة في النص. و(الحَمُودي) العنوان مكتوب برسم إملائي عريض يتلقفهُ القارئ ببصره مباشرة من أول نظرة في واجهة العتبة الأولى المحمولة على الغلاف.

د.عبده عبدالله بن بدر

إن العنوان الرئيس لون نفسه باللون الرمادي ربما لتهيئة القارئ نفسياً لاستقبال الشخصيات المحاطة بظلال الغرائبية والعجائبية فضلاً عن طبيعة اللون الرمادي نفسه الذي يحيل إلى الغموض والسردية, ولم تنس السردية نفسها ان تُدرج تحت هذا العنوان الرئيس عبارة شارحة تُجليه أتت على النحو الآتي ((قصة مهاجر على درب الحنين والأنين)) وهي عبارة اكتست باللون الأسود لتتناغم مع هارمونية اللون الرمادي لتعزيز عالم الغرائبية والأسرار والمكابدة والمعاناة , لرفع درجة التعايش مع هذا العالم الذي لا يخلو على غرائبيته من الدهشة والألق, والقبض على معان خاصة تنعدم في الواقع الحسي المباشر وتظهر على مستوى الرؤية والمعنى وتبدي ذلك في تفاعل الراوي مع الشخصيات. إن القارئ يجد نفسه بوساطة الإحالة إلى العنوان الشارح إزاء سردية تحكي عن الهجرة والترحال وما يرتبط بها من مشقة ومعاناة ولعل الدوال (الحنين والأنين) تزخ بهذه المعاني, وتعزيزاً لمعنى الهجرة والرحلة زيّن الغلاف نفسه بمكون بصري من أجل سد فراغات المعنى في الغلاف والمكون البصري عبارة عن صورة لطائر النورس , وهو طائر لا يخلو من الغرائبية في هيئته الهيكلية ومفرط في الرشاقة فمنقاره مفرط في الطول ويتقارب في طوله مع رجليه , ورقبته طويلة أيضاً , وكأن هذه الهيكلية التي هو عليها قد تحققت من جراء المكابدة والمعاناة في الهجرة والترحال , والنورس في الواقع يداوم على الهجرة والترحال وعلى الرغم أنه يحيا في البر إلا أن مصيره مرتبط بالبحر, فهو لا يبتعد عن البحر إلا ليقترب منه ولا خيار له في هذه العملية إلا أنه مجبور عليها, إذ يعتمد في قوته على البحر وهو يحمل دلالة البشارة لكل من يركب البحر.

إن مثل هذه الكيانات البصرية يلجأ إليها السارد بوعي من أجل خدمة النص ورفع درجة رمزيته الفنية وتساعد هذه الكيانات البصرية في الإشباع الجمالي عند القارئ. ولعل الدرس السيميائي قادر على قراءة هذه اللغة البصرية بطريقة حاذقه – ولا يقتصر الأمر على السارد في اللجوء إلى مثل هذه اللغة البصرية , بل أن دور النشر تستعين بها لتغوي القارئ وتروج لإنتاجها في عالم عرض الكتاب وتدفع القارئ من أجل الأقبال عليه , وليس من المبالغة إذا ما استحسن القارئ الاختيار الموفق للمكون البصري في السردية المعنية فهو اختيار واعٍ له علاقة وثيقة بالنص ولعله يوازي في معناه العنوان الرئيس (الحَمُودي) ويعبر عنه بطريقة خاصة يستهويها الحس البصري و(الحَمُودي) عبر البحر كانت له حياة لا تخلو من الشقاء, لكن البهجة والرضا لم ينعدم منها إنه نورس بشري.

إن القارئ وهو يتأمل في هجرة الشخصيات وترحالها لا يمكن أن يضع الجميع في مستوى موحد لمعنى الهجرة أو الرحلة (فالحَمُودي) حين هاجر كان مجبوراً على هذه الهجرة ولا إرادة له فيها , لكن شخصية الطيّار لم تكن مرغمة على الهجرة أو الترحال على طريقة (الحَمُودي) بل مشكلتها وجودية تتطلع إلى تجاوز الظاهر من الوجود لتنفذ إلى الباطن حيث الأسرار والحقائق الكبرى , ولذا كانت الرحلة هي رحلة المعنى للحياة واكتشاف الذات والشعور بنور الحقيقة الكبرى التي تؤول إليها حركة الأشياء والأحياء , ومعنى الرحلة بالمفهوم غير المباشر يمكن أن تدرج فيه جُل الشخصيات إذ ليس بالضرورة أن تكون الرحلة التنقل في المكان, بل يمكن أن يكون على مستوى الذات كما هو الحال في (دَمْدَم) أو السيدة الصموت أو جدة الراوي نفسها – وحتى شخصية (البحار الكشار) مارست مفهوم الرحلة لكن على مستوى المعرفة البشرية الملتصقة بالبحر ,في أثناء الترحال كانت تتنامى هذه المعرفة وتتقوى , وكل من هذه الشخصيات تقدم معنى للوجود على طريقتها الخاصة وعلى تباين هذا المعنى بين البساطة والعمق إلا أنه لا يخلو من الدهشة والألق والإحساس بالإشباع الوجداني .

إن الخصوصيات التي انفردت بها الشخصيات في هذه السردية أنتجت صوراً من الغرائبية والعجائبية لازمت هذه الشخصيات وعززت وجودها , ولم تكن هذه الغرائبية على صورة واحدة بل تعددت في طبيعتها ومرجعيتها , فمرة تمتح هذه الغرائبية من عالم الأسطورة والخرافة التي تتغذى على الوعي الشعبي كما هو الحال في شخصية (دَمْدَم) الحريص على العادة السنوية التي يظهر فيها يحمل بيرقاً ينفث دخاناً يُزعمَ أنه يقضي به على الثعابين والآفات في حارة العرب (بمقديشو),و(دَمْدَم) معنى قرآني يعني الهلاك والعذاب, ولكنه هنا اتخذ دلالة إيجابية فهو هلاك للأمراض والآفات التي تصيب القرية وأهلها وليس هلاكاً وعذاب لأهل القرية كما هو الشأن في قصة النبي صالح حين عقر قومه الناقة , ومرة أخرى تمتح هذه الغرائبية من حقل التصوف وتبدت هذه الغرائبية فيما فعله الطيّار الذي اتخذ من عمامته وسيلة نقل بحرية يشق بها أمواج البحر ويتحدى بها صاحب الباخرة الذي أبى أن يحمله على باخرته ولم يتردد الراوي في وصف ما فعله الطيار بالفعل نفسه الذي فعله الغزالي وليس الأمر مقصوراً على هذا الفعل الخارق العجيب بل أن الطيار ومن بعده الطيارون من أهل المعروف والتقوى , كانوا يتناوبون على قراءة القرآن ويختمونه في ليلة واحدة , وهم أنفسهم من تحمل عبء نشر

الإسلام في ربوع أفريقيا , ومرة ثالثة تجلت هذه الغرائبية في سلوك (سيدة الصمت) هذه الشخصية على الرغم من أن القارئ يمكن أن يحيل مرجعيتها إلى الأسطورة وهي المرجعية نفسها التي يمكن أن يسند إليها (دَمْدَمْ) إلا أن هذه الشخصية كانت محاطة بالغموض أكثر من (دَمْدَمْ) ولا يتجرأ أحد على النيل منها أو السخرية منها فضلاً عن تأكيد الراوي على أناقتها .إن هذه السيدة كانت تصمت فصلاً كاملاً لا تكلم فيه إنسيا , ثم تنطق بعد ذلك ويزعم أنها على صلة بعالم الجن وهي السيدة الوحيدة التي تفهم (دَمْدَمْ) وتُحسن التعامل معه , ومن المتابعة لشخصية (بلّو على قوووود) . وهي جدة الراوي نلمح هذه الغرائبية أيضاً فهي على أميتها القرائية والكتابية إلا أنها تجيد التسبيح والأوراد والأذكار بطريقة لافتة وبدون أخطاء وبحسب وصف الراوي أنها تؤدي هذه الأوراد ببيان شفاهي تكاد تراه بالبصر كما لو أنها من علماء (اللسانيات الكبار ٢٨) وكانت شعلة من النشاط إلى أن تجاوزت المئة من العمر وفوق هذا وذاك فهي تخاطب الأموات وتعتني بكل أفراد العشيرة , فضلاً عن قدرتها الاستشرافية فقد توقعت بالخطر الأمريكي القادم على الصومال قبل وقوعه بسنوات إذ أشارت إلى البحر وقالت ((من هنا سيأتيكم عدو مبين يفتح موت دائم وأنين)) ٣٠ . ويمكن إحالة مرجعية هذه الغرائبية إلى حقل التصوف وهو حقل الطيار نفسه إلا أن (بلّو على قوووود) لا ترحل من مكانها مثل الطيار فهي تستطيع وهي لم تغادر القرية أن تكتسب كل هذه القدرات والعطايا وهي عطايا وهبات إلهية ولا تتحقق إلا بتمكين إلهي بحسب منطوق الراوي. أما شخصية (البحار كشار) على معرفته بعلم الهيئة وعلم الفلك إلا أنه في علمه لا يخلو من غرائبية ومعرفة بأسرار البحر فكان يحدد سير الباخرة بوساطة طعم المياه

إن الغرائبية في سردية (الحَمُودي) حاضرة بقوة في جُلّ الشخصيات وإن تباينت في مستواها وحقلها الذي تمنح منه

التي يتذوقها , ويعرف بعد كم من المسافة يتغير لون البحر ودكنته وكيفية فرح الأسماك وغضبها وغيرها من الأسرار – أما شخصية (الحَمُودي) على صفاتها البشرية التي أجلاها الراوي ورصد بعض ملامح حياتها اليومية إلا أن هذه الحياة لم يحررها الراوي من الغرائبية وأن لم تكن هذه الغرائبية حاضرة بقوة كما هو الحال في الشخصيات التي سبق ذكرها .

إن غرائبية (الحَمُودي) نابعة من القدرات الذاتية القارة في هذه الشخصية وتتمتن هذه القدرات في أثناء هروبه من سطوة جند الإمام وقطعه للمسافة من تعز إلى عدن مشياً على الأقدام (وفجأة في ليلة الرعب تلك كان يرى كالبوم , ويسمع كالغزال , ويجول بعينيه الدائريتين كاليعسوب النهري , ويستدعي قواه الكامنة كالحصان في مضمار السباق , وينتصر على جراح رجليه بطاقة التجفيف الذاتي للدماء النازفة) ٤٨ . إن الراوي هنا استبدل صفات (الحَمُودي) البشرية بصفات حيوانية وهي صفات مطلوبة من أجل تجاوز الأوقات العصيبة التي يمر بها (الحَمُودي) إنها لحظات تقرر وجوده , أما الصفات الغرائبية الأخرى هي قدرته على المنام ومخاطبته لجده أثناء النوم على الرغم من أن جده (الطيار) رحل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب , وتواصله مع جده لا يحظى به كل البشر بل من كان له مقام (الحَمُودي) . وبفضل جده القريب من الحضرة الإلهية . وعلى كل هذا القدرات الذاتية عند (الحَمُودي) إلا أنه لا يخترق سنن الطبيعة كما يفعل الطيار , تبقى الشخصية الأخيرة وهي شخصية (زياد بري) رصدت من قبل الراوي وربما فرضها عليه المكان فهي شخصية سياسية تمتعت بقدرات ذاتية استطاعت أن تقرأ طالع الأيام للصومال وزعمت أن الاقتتال والصراع في الصومال لن يكف وسيستمر , وقد أسهم (بري) في إشعال فتيل هذه الحرب في ربوع (الصومال), حين فتح مخازن الأسلحة للقبائل , وعلى الرغم من تخليه عن السلطة بعد الإطاحة به إلا أنه لم يتخل عن ثلاثة أشياء وهي طائرة الرئاسة وختم الرئاسة وكرسي الرئاسة , وهذه غرائبية لا يمكن أن تصدر إلا من إنسان مريض بالسلطة ومهووس بها ومُدمن لقراءة كتاب أبن سيرين في تفسير الأحلام .

إن الغرائبية في سردية (الحَمُودي) حاضرة بقوة في جُلّ الشخصيات وإن تباينت في مستواها وحقلها التي تمتح منه , لكنها ظلت ملازمة للسردية إلى آخر صفحة فيها , والراوي اعتمد في بناء شخصياته على الإلحاح على هذا البعد الغرائبي حتى أصبحت بعض الشخصيات عبارة عن كيانات غرائبية شبه خالصة تقدمت فيها الصفات والأفعال الغرائبية على الصفات والأفعال الأخرى كما هو الحال في شخصية (دَمْدَمْ) و(سيدة الصمت) والطيّار. وتعزز هذا البعد الغرائبي بفضل الراوي الذي لا يكتفي بالرواية عن الآخرين عن نفسه ويبدي تعاطفاً مع شخوص السردية إلى درجة التماهي معها , ويسقط المسافة بينه وبينها , ويعدد مناقبها وفضائلها , ويلجأ إلى لغة تُعلّي من قدراتها وترفع من شأنها ومقامها فضلاً عن الشعور الذي يتنامى عند القارئ إزاء الراوي بشأن الماضي الذي ولى وغاب على مستوى الوجود الحسي الظاهري , لكن مازال حاضراً بقوة يتلألأ في وجدان الراوي ويشع بالبهجة والحنين إليه , ولذا تجد الراوي الذي يصف هذا الزمن الذي ولى (بزمن الصفا الأول) وأن الوجود فيه مشحون بالرومانسية وأن الدهشة لا تفارق الإنسان وأن العالم كله له مذاق خاص .

إن الراوي يمتدح هذا الزمن ويُشيد بالحياة فيه ويعلن عن فضيلتها وكيف أنها ساعدته على أن يتعايش مع الجميع ويرافقهم بسلام ومودة بغض النظر عن مللهم ونحلهم , منتصراً بذلك للنزعة الإنسانية القارة في كل إنسان سليم الطبع والعقل . واللافت أن الراوي لم يعارض هذه الغرائبية سوى مرة واحدة هي تلك المرة التي اعتقد فيها الناس في حارة العرب بمقديشو أن القنافذ منّة من السماء تتنزل للقضاء على الثعابين وأتت هذه المعارضة بلغة هادئة ومتفهمة لهذا الوعي الشعبي على لسان الراوي إذ يقول ((بعد سنين عرفت سر العشق لتلك القنافذ التي كانت قادرة على إخراج الثعابين من أوكارها والقضاء عليها, ذلك أن الثعبان يتعاطى مع القنفذ كفريسة سهلة , وحالما يلتف عليه لخنقه تنغرز أشواك القنافذ في جسده حتى إنه لا يستطيع الفكاك فينزف حتى الموت , ومن هنا جاء الاعتقاد الشعبي بأن القنافذ منة سماوية , لأنها تقوم بقتل الثعابين المنتشرة في أروقة الحارة)) ١٢

78
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

شعرية السرد في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء)

للقاص أحمد جعفر الحبشي

(مقاربة بنيوية)

القصة العربية القصيرة أرض بكر و فناء رحب بالنسبة للدراسات النقدية الحديثة ، فلم يول الدرس النقدي الحديث اهتماماً كبيراً بهذا النوع الأدبي ، و لم يستوف الكشف عن التقنيات الأسلوبية ، و الأسس الجمالية ، و السمات الفنية المميزة لذلك المنجز الإبداعي ، المفعم بتجارب إنسانية تعكس صورة الواقع و تشير إلى الأدوات الأسلوبية الخاصة بكتّاب القصة . و يعد المنهج الشكلي من أهم الدراسات النقدية الحديثة التي عُنيت بالنصوص الأدبية ، ذلك أنه كان لبنة أساسية لـــنهضة نقدية جادة [١] . فهو " المجال الامتيازي الذي أثبتت فيه النظريات البنيوية قيمتها و إمكاناتها " [٢] من خلال التطبيقات الأدبية التي أهّـــلته ليكون منافساً قوياً لغيره من المناهج النقدية ، بوصفه " تقنية بحث " [٣] تمتلك أدوات إجرائية تحليلية و تركيبية خاصة ، تُعنى بـالشعر و الحكاية الشعبية و القصة القصيرة والرواية ؛ بهدف تصنيف الظواهر البنائية الطاغية عليها ، لذا عُدّ علماً أدبياً مستقلاً بذاته [٤] ، لا مجرد آراء فلسفية عائمة لا تفضي إلى مسلمات علمية على صعيد المنجز النقدي [٥] .

نبيل سعيد مطبق

ستعنى هذه المقاربة لمجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) بشعرية السرد ، و في سبيل ذلك ستتناول مصطلح (التحفيز التأليفي (Compositionnelle) بوصفه إحدى الأدوات الإجرائية للمنهج الشكلي البنيوي ، وأحد أنواع التحفيز العام الذي طوره الشكليون الروس ،و قصدوا في تعريفه : أن كل حافز في القصة لا ينبغي أن يرد بشكل اعتباطي [٦] ، بل لابد من أن تكون له وظيفة أو علاقة بما يأتي في القصة. و قد ركز توماشفسكي في هذا المجال على مستويين [٧] ، أولهما : وصف الأشياء في مجالها البصري (المرئيات) ، و بخاصة المؤثثات (accessories)، فإذا ورد في بداية القصة بأن مسماراً في الجدار ، فعلى الكاتب أن يجعل له وظيفة ، كأن يشنق البطل نفسه به في النهاية [٨] ، و ثانيهما : هو وصف الطبيعة الذي قد يأتي منسجماً مع أحداث القصة ، كانسجام ضوء القمر مع مشهد رومانسي ، أو انسجام العاصفة مع مشهد الموت ، أو قد يرد غير منسجم مع مشاهد القصة ، فيطلق عليه حافز الطبيعة اللا مبالية ، كالاستماع إلى مقطع غنائي في الوقت الذي تموت فيه إحدى الشخصيات[٩] .

وكلا المستويين (الطبيعة / المرئيات) مرتبط بتقنية الوصف ، و هما دليلنا المعتمد في الكشف عن شعرية النصوص السردية في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) [١٠] للقاص (أحمد جعفر الحبشي) .

أ - الطبيعة المنسجمة :

ليس غريباً أن تسهم الطبيعة في بناء النص الأدبي و رسم الملامح النفسية للشخصية ، فالإنسان كائن مفطور على إحداث علاقة حميميّة مع مكونات الطبيعة ، سيما إذا كان يمارس عملية إبداعية بحة ، سواء أكانت تشكيلية أم لغوية أم غيرها من مجالات إبداع الذات الإنسانية الواعية ، فالمبدع يعشق بطبعه زرقة السماء ، و يطمئن لخضرة الأرض ، و يطرب لموسيقى المطر .

لكن السؤال المنهجي الذي يطرح نفسه هنا ، هو : كيف يتم توظيف عناصر الطبيعة داخل النص السردي ؟ و ما طبيعة العلاقة بين تلك العناصر و بين أحداث القصة و ثيماتها ؟

يكتسب هذا السؤال منهجيته من انتماء عالم الطبيعة في الفنون السردية إلى تقنية الوصف التي يمسك بزمامها الراوي ، و الراوي وحده ، فبصوت الراوي يستطيع المؤلف إبطاء السرد بوساطة الوصف الذي يعد أحد الوسائل الأسلوبية لتشكيل قاعدة المبنى الحكائي ، و لا بد أن يسفر هذا الإبطاء عن إغراء المتلقي بالنص السردي ، و إلا أصبح الوصف لحظة سقيمة ، تعتسف الزمن ، و تخل بالبناء المعماري للحكاية ، و هذا ما استطاع الكاتب تجسيده جيداً في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) .

ففي قصة "غداً سيولد الربيع" يأتي وصف الطبيعة في بداية النص منسجماً و مواكباً لحالة(الافتقار العاطفي) التي يعاني منها (البطل) ، فالبطل إنسان محبط اسودّت الدنيا في وجهه وغلّقت أبوابها ، يعاني من تقلبات الزمن الغادر ، و يشكو شيخوخةً مبكرةً على مفرق شبابه الزاهر ، و يمكن للمتلقي اكتشاف ذلك عبر صوت (الراوي / البطل) ،إذ يقول :

" كلّ شيء قد تبدّل واختلف ، حتى العام لم يعد له اثنا عشر شهراً ، قد غدا أكثر من ذلك بكثير لم أعد أرى شيئاً هدوءً يضيف للسواد رعباً مضاعفاً .. فاضت عيناي ، تقدمت بعقارب الساعة سريعاً إلى أن وصلت إلى نقطة الزمن الحاضر ، بعد أن شق أخاديد وجنتي خطان أسودان ، خارت قواي ، تساءلت ، أما لهذه المأسي من انحسار ونهاية ؟! وأين الوجه

الباسم للحياة التي لم أعرف عنها سوى العلقم أتجرعه مرغماً ؟! " .

و قد استبق الكاتب حالة الافتقار العاطفي هذه بفرشةٍ طبيعية من الكلمات الواصفة المتناغمة مع ذلك المشهد ، فنراه يحدثنا عن (الصباح و المساء ، و الشمس و القمر ، و النور و الظلام ، و البياض و السواد .... إلخ) ، ويتجلى ذلك بوساطة وصف مفعم بالطبيعة المنسجمة ، فيطالعنا صوت (الراوي / البطل) بالآتي :

"شرعت خيوط النور بالانسحاب خلسةً ومن هناك الشمس تختلس النظر من وراء أفق ينذر بليلةٍ سوداء ، لحظات و سيدلف الليل بجلبابه الأسود ليبدد ماتبقى من رفات النور .. القمر قد غرق في خضمّ سحبٍ مثقلةٍ بحبر أسودٍ سيسقط سهاماً فوق هذه الكرة التي لا تبرح جهداً أن تلد شجراً أخضر يلد ثماراً نأكل منها جميعاً ، ليبعثر قطرات الندى المستلقية على وريقات ذات ألوان ، وليجبر الأصدقاء على فضّ جمعهم" .

هكذا يستدعي الافتقار العاطفي عناصر الطبيعة المنسجمة في النص السابق ، وهو لحظة إنسانية مضطربة ، تسبب خللاً كبيراً و فراغاً نفسياً مؤلماً على مستوى شخصية الفرد ، يدفعها إلى القيام بمحاولة تبديد تلك الحالة بوسائل اتصالية متعددة ، قد تجد طريقها نحو النجاح ، و قد تبوء بالفشل .

و هذا ما يُلاحظ أيضاً في قصة "وسقطت وردة التوت" التي تعدّ فيها اعترافات البطلة النافذة الرئيسة التي تمارس الطبيعة المنسجمة عبرها وظيفتها في النص ، فيبدو حافز الطبيعة المنسجمة النقطة الأساسية التي تدور حولها أحداث القصة ، فهو يرسم لوحة جمالية يستجيب لها المتلقي فوراً ، غير أنه هنا حافز (قار) ، لا يغير من حالة اللا توازن التي تظل سائدة حتى النهاية ، فالقصة تتحدث عن الدكتورة (وردة) ، الفتاة العانس التي تعاني لحظة (افتقار عاطفي) تتيح للكاتب استدعاء عناصر الطبيعة لتلتحم مع تلك المأساة الإنسانية :

"هاهنا ترقد عانس .. وحدها .. والحلمُ قارس .. فوقها .. صفّت زهور .. ذبلت .. تحت شهادات المدارس .. وهنا .. ديوانُ شعر .. فوقه .. بعض مناديل .. شجاها " .

إذ تبدو عناصر الطبيعة المنسجمة حاضرةً منذ الكلمات الأولى ، فيدرك المتلقي ندى (الفجر) و يلمح تلاشي (الليل) ، كما يأتي :

" صوت تهشّم الزجاج يبدد هدوء ما قبيل الفجر ، تتزامن معه صرخاتٌ أنثويةٌ تنمّ عن ألم واستنجاد .. نفضتُ رداء الرهبة وأخذت أجوب بنظراتي أطراف المكان ، كان الهدوء يخيّم على الحي والشوارع يسكنها صمتٌ قاتل ، ولا وجود لأضواء تعاون خيوط الفجر في تمزيق جلباب الليل الأسود " .

إن تفعيل الطبيعة المنسجمة لحركة المتن الحكائي كاد أن يؤدي إلى تغيير كبير في مجريات الأحداث ، فقد جعل هذا الحافز البطلة قريبة من لحظة (اليأس) منها إلى لحظة (الأمل)، و غير بعيدة عن لحظة (الخطيئة) المضادة للحظة (الوفاء) ، كما جعلها شبه مستسلمة للحظة (الضعف) الناسفة لَلحظة (القوة) ، و أذكى لديها فكرة (الانتقام) المبددة

كلا المستويين (الطبيعة / المرئيات) مرتبط بتقنية الوصف ، و هما دليلنا المعتمد في الكشف عن شعرية النصوص السردية في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء)

لفكرة (التسامح) ،بيد أن توقف عقارب هذا الحافز عن الدوران في هذا الاتجاه أعاد الأمور إلى نصابها ، و جعل البطلة (الدكتورة / وردة) تكتفي بالتوقف عند لحظة من (اللاوعي) المفعم بالهذيان .

أما في قصة "انتحار قلم" يأتي إدراج الطبيعة منسجماً مع (الافتقار الاجتماعي) الذي يعاني منه (البطل) (صابر) ، فعلى الرغم من فوز روايته (دموع قرية) في المسابقة الأدبية (جوائز المليون) عن مجال الرواية إلا أنه تم نسبها إلى شخص آخر ادعى أنه كاتب الرواية ، بالتواطؤ _ ربما _ مع لجنة التحكيم ، لذا يستدعي هذا الافتقار الاجتماعي لدى البطل الطبيعة على نحو يعكس مدى الإحباط الذي يعاني منه (صابر) ، فنرى صورة (تجمهر السّحب) تقابل صورة (المسجلين في المسابقة) ، و صورة (الشمس) تقابل هيئة (صابر) ،أما (تقلبات الطقس) فأتت مقابلة لـ تقلبات (الزمن) المتمثلة في منح الجائزة و نسب الرواية إلى غير البطل (صابر) ، و في هذه المتقابلات يتجلى انسجام الطبيعة بشكل أولي ، كالآتي :

" بالرغم من تجمهر السّحب حول الشمس لحجب أشعتها .. والطقس الذي يبشر بصبح أقل عناءً .. إلا أن ثمّة حلماً غامضاً يشغل الذاكرة .. حاولت أن أقلبه .. وبقيت على ذلك حتى شممت رائحة الدخان ! " .

نستخلص مما سبق ، أن الكاتب استطاع أن يوظف عناصر الطبيعة المنسجمة توظيفاً موجزاً و موحياً ، عبّر عن مشاعر الشخصيات القصصية و رسم النهايات التي تنتظرها .

ب - المرئيات :

تشير التجارب السردية للشكليين الروس إلى أن أي شيء يدرج في النص الأدبي _ كالمسمار أو المفتاح أو المرآة ، مثلا _ لا بد له من وظيفة و دلالة ، تصنف ضمن عناصر التحفيز التأليفي ، و ركزوا في ذلك على وصف الأثاث ، و هذه فكرة واضحة ، بيد أنها تحصر دارسي النصوص في حيز ضيق هو حيز الأثاث الموجود في دوائر مغلقة (الغرفة ، السجن ، السينما) . و لكي نتجاوز هنا تلك المساحة المحدودة ، سنتبنى مفهوماً آخر ، أكثر شمولية و أرحب مساحة ، فندرس الأشياء في الفضاء النصي تحت مظلة (المرئيات) ؛ بغية استكناه إيحاءاتها المعنوية .

و إذا سلّمنا بأن إدراج أي شيء في السياق السردي (مسمار ، قلم ، منديل ، قبعة ، وردة حمراء) لا يرد بشكل اعتباطي ، فلا بُدّ من وجود غاية جمالية و هدف واضح لذلك الإدراج

، يسفر عن إيحاءات و إشارات معنوية معينة .

فإدراج العنصر المرئي (المرآة) مثلاً ، حافز لفظي يحيل على دلالة على (الغرور) ، فيما إدراج (المنديل) غالباً ما يأتي مرتبطاً بدلالة (الذكرى).

و أما إدراج (الوردة الحمراء) فيرتبط بدلالة (الحب) و هكذا دواليك .

و عند تطبيق هذا الإجراء على مجموعة (يشكل أرواحهم الماء) ، نجد النصوص حبلى بعدد كبير من المرئيات ، ففي قصة "صمت الوفاء" ، ثمة وصف لعدة مرئيات تبطئ السرد وتفعل فضاء الحوافز لدى المتلقي ، فالكاتب يدرج المرئيات بشكل يلفت الانتباه منذ الوهلة الأولى ، فنلحظ مرئيات تتعلق بالفضاء الخارجي ، مثل : (اللوحة الزرقاء / العمارة البيضاء / أعمدة الكهرباء) وأخرى تتعلق بالفضاء الداخلي ، مثل : (خشبة السرير / الوسادة / زجاجة الربو / الملعقة .. إلخ) و هذه المرئيات مجتمعة تشكل حوافز سردية قارّة في النص ، كالآتي :

" لوحةً زرقاء مكتوبٌ عليها شارع الوفاء ، الشوارع خالية ، ولا أضواء سوى أضواء أعمدة الكهرباء وثمة ضوء يأتي من بعيد ، الطابق الثالث من تلك العمارة البيضاء ،كعادتها لم تستطع النوم ، تنظر إلى بطنها وتبكي ، أسندت ظهرها بصعوبة على خشبة السرير ، استدارت نحو الوسادة وأخذت تسعل بشدة ، تنهّد زوجها وأغرق رأسه تحت وسادتين . أضاءت الضوء الخافت وأخرجت زجاجة الربو من الدرج الجانبي وتجرعت ملعقة ، ملعقتين ، ثلاثاً ، وما إن هدأت حتى عاودتها الحالة . أبعد الزوج الوسادتين متأففاً ، شبّك بين أصابع يديه خلف رأسه ، وبعينين محدقتين أخذ ينظر إلى سقف الحجرة ".

و إضافة إلى هذه الحوافز القارة المتناثرة في فضاء النص ، ثمة حافز مرئي محوري يهيمن على مجريات الأحداث ، يعدُ قطباً جاذباً لجميع الأشياء المتناثرة من حوله ، ألا و هو حافز (السيجارة) الذي جاء ليكسر توقعات المتلقي تجاه نهاية القصة ، لاتصاله بدلالات (المرأة / العشيقة / الضرّة) ، إذ كان المتلقي يتوقع أن ثمة عشيقة (امرأة) أخرى للزوج كما مهدت له مقدمة القصة ، بيد أنه تبين في النهاية أنها لم تكن سوى (السيجارة) التي استطاع الكاتب توظيفها كحافز ديناميكي له تأثير خاص على شخصية الزوج ، يصل إلى مستوى العلاقة بـ (العشيقة) ، و الغيرة من المرأة (الضرّة) .

"أقبل زوجها يدندن طرباً ، تظاهرت بأنها تقطع شيئاً من البصل .

- أين الشمع ؟

أشارت إلى أحد الأدراج ، أخذ كرتون الشمع وعاد إلى صديقته . حاولت الخروج لمشاركتهما الجلسة ولكنها في كل مرةٍ تُقبل عليهما تعاودها الحالة لتعود أدراجها .

كانت تختلس النظر إليهما وهي في المطبخ ، وهو يداعب صديقته بإصبعيه .. أشعل شمعةً وقلت المسافة بينهما ، إلى أن قرّبها من فمه ! صرخت الزوجة :

- ألهذا الحد !!

جرت نحوهما مسرعة ، و بيدٍ واحدة حملت الصديقة وانتزعتها من بين أحضانه ، واتجهت بها نحو النافذة ، أدلتها .. فسقطت نحو الشارع!!

عادت على مضض وجلست على إحدى الكنبات ، ساد السكون حتى ظهرت الدموع

على وجنة زوجها .. فثمة شيء قد دخل عينه ، أزاله وبدأ بالضحك ! أخرج علبة السجائر بأكملها وألقى بها من النافذة ، اقترب منها ، و أخذ يقرأ في عينيها .

- وداعا لها للأبد .. أعدكِ ..

ابتسمت ..

ابتسم ..

أخذ بيدها واتجها نحو النافذة ..

أغلقها .. وأغلق الستائر ! " .

و في قصة "غداً سيولد الربيع" تمثل (عقارب الساعة) حافزاً مرئياً ديناميكياً بعمل على تغير مجريات الأحداث ، و الانتقال بوضعيات القصة من طور (التوازن) المألوف إلى طور (اللاتوازن) غير المألوف ، فـ (الراوي/ البطل) شاب متذمّر و ناقم على وضعه الاجتماعي العام ؛ بسبب تعثر أحلامه و أمانيه و تحطمها على جدار الوظيفة العامة ، و عودته دائما بخفي حنين من عتبة أبواب المسئولين اللذين ملّ من استجدائهم.

" عادت تلك الذكريات بكل تفاصيلها ، مُرّة ، مؤلمة ، إلى أن أتت ذكريات طوافي اليومي بين أروقة ودهاليز المسئولين كي يتحقق حلمي ويرى ابتكاري النور ، من رسالةٍ إلى مثلها ، ومن مسئول لآخر ، ومع هذا فقد سرقوه ، سرقوه عُنوةً ولم يكتفوا بذلك بل نسبوه لآخر ، فاضت عيناي".

لذا لم يكن من البطل _ و هو يعيش حالة الإحباط هذه _ إلا أن يأخذ ساعة الحائط ، و يعمل على إعادة عقاربها إلى الوراء (الزمن الماضي) ، ما أدى إلى هزات عنيفة و اضطرابات مخيفة رافقت هذه العملية الصعبة ، توّجت في الأخير بالعودة فعلاً إلى الزمن الماضي .

" ظلت عقارب الساعة في كبريائها ، لم يتوقف الزمن ، حاولت أن استشعر أنه توقف ، أخرجت البطارية . لمَ لا يعود الزمن للوراء ؟ مددت إصبعي السبابة وعدت بعقارب الساعة عكس مسيرها دوراتٍ عديدة ، سريعة ، إلى أن وصلت إلى نقطة الزمن الصفر ، بسمةً ما أجملها ترتسم على شفتي جدتي وهي تخرج تلك القطعة التي ما لبثت تصرخ ، وقد تجمهرت الناس من حولها ..ولكن ما لبثت تلك الصرخات أن تتلاشى تحت وطأة الزغاريد وأهازيج الصبية .. أحكمت قبضتي حول قلبي ، وعدت بالزمن للوراء ، حاولت عقارب الساعة الإباء ، عدت بقوة ، سريعاً ، تألمت كثيراً ، صبرت ، استمررت ،خفت شدة قبضتي ، و تقاسيم عينيّ قد تمددت كثيراً ، فتحت عينيّ على مضض ، بعد أن أحسست حرقةً في إصبعي ، لم يعد ذلك السواد مسيطراً ، فقد شابه شيءٌ من نور ، و ظل إصبعي يدور

ويرسم دوائر في الهواء بعد أن اصطبغ بسائل أحمر ! صوت عقارب الساعة يهزّ أرجاء الغرفة ، تحررت من تلك الأقمشة التي كانت تثقل كاهلي وفزعت إلى الباب .. تعثرت ولم أستطع المشي فحبوت " .

و بالعودة إلى الزمن الماضي ، يدرك البطل مدى التغير الذي طرأ على ذاته و على الأشياء المحيطة بالمكان ، لقد عاد طفلاً صغيراً ، و تحولت بقية المرئيات من حوله (الباب / النافذة / الثلاجة / الساعة / الإبريق) إلى أجسام عملاقة ، فيقول :

" و لكن أين الباب ؟! اتجهت نحو النافذة لأستنجد ، ولكن أين النافذة ؟! صرخت ، و ما هذه الأصوات التي أصدرها ؟! اختبأت وراء الثلاجة ، كل شيء قد غدا أكبر مما كان عليه ! قرص الساعة ! الثلاجة ! الباب ! وإبريق الماء الزجاجي ! إبريق الماء ، دنوت منه ، توقفت أرقبه بدهشة ، أين ذاك الشعر الذي كان يكسو جسدي ؟! وأين تلك التجاعيد التي أخفت ملامح وجهي ؟! ، وَي !! لقد غدوت طفلاً صغيرا ! .

هبّت نسمةٌ باردة ، دفعتني إلى أحد أركان الغرفة ، شعرت بقشعريرة ، التحفت قطعة قماش لرجل عجوز ، وبابتسامةٍ بريئةٍ عكفت أرقب خيوط فجر جديدٍ ، من أصغر منافذ النافذة " .

بما سبق ، نكون أمام إدارج ذكي للمرئيات ، و توظيف جيد للخيال السردي المعني بالعالم العجائبي ، استطاع الكاتب به أن يشدّ انتباه القارئ ، و أن يغيّر من توقعاته تجاه النص السردي المنتظر لولادة (الربيع) ، أي (المستقبل).

في محيط النص الموسوم بـ "العانس" عدة مرئيات ، مثل : (الشقة / النافذة / الباب /الشارع الطاولة ...الخ) ، بيد أن الحافز المرئي الأبرز هو (الزجاج) ، إذ أنه مرتبط بالحالة الاجتماعية للبطلة (العانس) ، فثمة علاقة دلالية ما بين الحافز اللفظي (العانس) ، و الحافز المرئي (الزجاج) ، تمكن في معاني متوازية حال ذبول زهرة كل منهما كـ (الألم ، الضعف ، التهشّم ، التكسر ، الانهيار ...الخ) .

فالمرأة (العانس) ذات إنسانية تكسّر قلبها ، و تحطمت أحلامها ، و هزم كبرياؤها ، فهي في ذلك أشبه بالزجاج المهشم ، و هذه إشارة تحيل إلى وصف النساء بـ (القوارير) كما ورد في الحديث النبوي الشريف ، و هو وصف

نستنتج من النصوص السردية السابقة ، (صمت الوفاء ، غداً سيولد الربيع ، العانس) ، تنوع وظائف الحوافز المرئية في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء)

يوحي بمعاني (الرقة ، البساطة ، الانكسار ، الضعف) المهيمنة على الذات النسوية ، يقول الراوي :

" وعلى الوجه الآخر ..

((هاهنا ترقد عانس .. وحدها .. والحلمُ قارس .. فوقها .. صفّت زهور .. ذبلت .. تحت شهادات المدارس .. وهنا .. ديوانُ شعر .. فوقه .. بعض مناديل .. شجاها .. حرّ ما كانت تلامس .. وعلى الرفّ ملابس .. طولها شبرٌ ونصف الشبر .. كانت قد شرتها .. لتناغي بخيال الأم طفلاً .. وتناديه بفارس .. كل شيءٍ فوق هذا الرف أغراض لفارس .. دميةٌ .. لِهايةٌ .. صوفٌ على شكل قلانس .. بينها رضاعةٌ .. نامت .. تغطت .. بخيوط قد تدلت .. من عرى شرشف فارس .. ألف آهٍ أمّ فارس .. كم دعوت الله .. كم ذا .. وتوسلت .. وذا الدّمع على نقش مصلاك يائس .. إيه يا أما بلا طفل .. ويا روحاً على أعتاب إطراقة يائس .. تحبسين الدمع بين الناس إصراراً .. وما لله مع يا عانس حابس .. نمت والدمع بأجفانك .. آهٍ .. من ترى يفهم دمعاً نام في مقلةِ عانس ؟ يحرق القلب .. تذوب الروح .. تُكوى شفّة البسمة إذ يهمس هامس .. تلك عانس !)) . سقطت الورقة من يدي بعد أن هزّني صوت عقارب الساعة وهي تعلن عن السابعة .. ولينتهي معها العد التنازلي .. تذكرت الامتحان وخرجت مسرعة " .

نستنتج من النصوص السردية السابقة : (صمت الوفاء ، غداً سيولد الربيع ، العانس) ، تنوع وظائف الحوافز المرئية في مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) ما بين (الديناميكية الفعلية) التي عبر عنها حافز (عقارب الساعة) ، أو (كسر توقعات المتلقي) التي جسدها حافز (السيجارة) ، أو (توليد الدلالة الانطباعية) كما في حافز (الزجاج) الذي أتى مرتبطاً بدلالات (الذبول /الألم /النهاية) .

أخيراً ..

نختم بالقول ، إن هذه المقاربة النقدية المبتسرة حاولت الاقتراب _ قدر الامكان _ من فضاءات و عوالم مجموعة (يشكّل أرواحهم الماء) للقاص الشاب / أحمد جعفر الحبشي ، وهي منجزات نصية أنيقة ، مفعمة بلوحات تشكيلية زاهية الروح و الألوان .

المراجع :

[١] - ينظر : النقد الأدبي في القرن العشرين ، جان إيف تاديه ، ترجمة / قاسم المقداد ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط- أولى ١٩٩٣م ص : ٢١

[٢]- النص الروائي (تقنيات و نماذج) ، بير نار فاليط ، ترجمة رشيد بنجدو ، منشورات Nathun.paris ،د. ط ١٩٩٢م ص : ٨٣

[٣] - لم يهتم الشكليون الروس بإنتاج نظام منهجي بقدر ما اهتموا بإيجاد منهج مستقل تشكله معطيات الدراسات الأدبية ، ينظر : المصدر السابق نفسه ، و آليات المنهج الشكلي في نقد الرواية العربية المعاصرة " التحفيز نموذجاً تطبيقياً " ، مراد مبروك ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط أولى ٢٠٠٢م ص : ١١

[٤] - هناك مقولة معروفة لـ إيخنباوم عن نظرية المنهج الشكلي مفادها أن ما يميز هذه النظرية هو تلك الرغبة في إبداع علم أدبي مستقل انطلاقا من الصفات الذاتية للأدوات الأدبية . ينظر : مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ، مجموعة من الكتاب ، ترجمة رضوان ظاظا ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٢٢١) ، ط أولى ١٩٩٧م ص : ١٧١

[٥]- ينظر : المصدر السابق نفسه ص : ١٧١ ، و قضية البنيوية ، عبد السلام المسدي ، دار أمية ، د. ط ، د.ت ص : ١٣٣- ١٣٥ .

[٦] - ينظر : نظرية المنهج الشكلي نظرية المنهج الشكلي ، ترجمة إبراهيم الخطيب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، الشركة المغربية للناشرين ،ط أولى ١٩٨٩م ص : ١٩٣ ، و بنية السرد في القصص الصوفي ، ناهضة ستار ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٣م ، موقع اتحاد الكتّاب العرب http:// www.awu –dam.org ص : ٢٢

[٧] - ينظر : آليات المنهج الشكلي ص : ٥١

[٨] - ينظر : المصدر نفسه ص : ١٩٤

[٩] - ينظر : نفسه ص : ١٩٥

[١٠] - يشكّل أرواحهم الماء ،مجموعة قصصية ، أحمد جعفر الحبشي ، دار حضرموت للدراسات و النشر ط أولى ٢٠١٠م

شيخ المدونين

الروائي حسين حسن السقاف

(١)

أبناء جيلي يعرفون شيخ المدونين بلا شك فهو الأكثر استخداماً للورق والمداد، كان يدون كل يومياته أحياناً وهو يمشي ويدون حتى وهو في فراش مرضه، كنت أتردد عليه كثيراً عند ما كان يرقد في مستشفى مدينة المكلا الواقعة على ساحل بحر العرب، كان يروي لي حكايات متناهية التفاصيل والدقة؛ حصلت له مع أبي وجدي؛ وكان في وصفه أكثر دقةً وإلماماً بالتفاصيل من شريط سينمائي، رغم قدم تلك الأحداث، كان يرويها لي بصوته المبحوح الجهوري الذي يشبه أصوات مغنيي الراب، كان كلانا يشعر بارتياح بقرب الآخر في هذه المدينة؛ التي نشعر فيها أنا وهو بشيء من الغربة لبعدنا عن الديار، لذلك كنت كثيراً ما أجلس إلى جانبه وهو مريض. وقد ولعت بعملية تدوينه ليومياته رغم صعوبة فك شفرة كتابته، لذلك ليس بمقدور أي أحد قراءة مدوناته غير أنه كان لديّ إصرار لفك رموز كتاباته . ولتحقيق ذلك طلبت منه أن يكتب لي في كراسة خاصة أحضرتها لينسخ عليها بعض يومياته واحتفظت بها على سبيل التدرب للتعرف على طريقته في التدوين، لذلك فقد أصبح ميسراً لي قراءة ما يكتبه.

في ليلة الخميس المقمرة بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩٧٩ ذهبت مع بعض الأصدقاء في رحلة بحرية إلى منطقة بروم ذات الشواطئ اللازوردية الساحرة الواقعة غرب مدينة المكلا، وعند ما عدت في صباح الباكر ليوم السبت في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ لم أجد شيخ المدونين في سريره، ولم أجد أحداً من مرافقيه الذين أتوا معه من مدينته (تريم) ذهبت إلى أرشيف القسم الجراحي ليتبين لي بأنه قد توفي؛ وعرفت أنه قد تم دفنه في مقبرة يعقوب شرق المستشفى نفسه تأسفت على فقده وتأسفت أيضاً حينما لم أتمكن من حضور مراسيم الوفاة، لعل آخر ما دونه شيخ المدونين هو ما حواه كراسي، كان قد وعدني بزيارة لمنزلنا، وذكر لي بأنه دون كل ما حكاه عن والدي في مذكراته الموجودة في مدينته تريم . كما تبين لي من خلال صحبته أنه عند ما يعد أحداً بزيارة لا يكون ذلك مجرد كلام، بقدر ما يدون ذلك في برنامج تحركاته، ولذلك فقد أسفت أيضاً على ضياع موعد زيارته لمنزلنا .

كان لي صديق يسكن في مدينة شبام تميز بالإبداع في كتابة الخطوط بكافة أنواعها، كثيراً ما تستبد به شهوة الكتابة وكانت تشطح به خيالاته ليروي قصصاً تميز فيها بتقنية الإيهام بواقعية الوهم، حتى إننا نصدقها . ذكرت له في جلسة جمعتنا إعجابي بشيخ المدونين وأطلعته على الكراسة التي دون عليها آخر ساعات عمره قبل أن يداهمه الموت، وشاركني ذلك الإعجاب، حتى إنه قال لي بمرارة:

آه لا يستحق الموت.

ولعلي قد نسيت تلك الكراسة بمنزله.

بعد أكثر من عقدين من الزمن تم نقل عملي إلى إدارة الوثائق بحضرموت، وأول ما خطر ببالي هو نقل وثائق شيخ المدونين إلى مركز الوثائق وقد كان لنا ذلك.

(٢)

بعد مضي سنوات وتحديداً بعد عودتي من خارج البلد أُخبرت من قبل مدير مكتبي بأن شخصاً في عقده السابع قد أحضر كراسة مخطوطة لتسليمها لي، لم يذكر مدير المكتب من هو ذلك الشخص، غير أنني بمجرد فتح هذه الكراس عرفت من أول نظرة إلى خطها أنه خط شيخ المدونين، قفزت حيرتي إلى أعلى مداها، عند ما وجدت ان أحداث هذه المدونة تُبين أنها قد كُتبت بعد خروجه من المستشفى، أي بعد وفاته، استبدت بي الحيرة عند ما قرأت فيها بأنه تزوج من امرأة جميلة من جزيرة سقطرى وأنها ليست من بنات حواء، وأنه قد أنجب منها ولدين، وأنه متمتع بصحة وسعادة وافرتين بعد أن سقته زوجته من لماها أكسير الخلود، وأن هذه الزوجة قد منعته من العودة إلى عالمه الأول إلا في حدود ضيقة.!! سألت مدير المكتب عن ذلك المُسن الذي أحضر هذه الكراسة عن شكله، عن ملبسه، عن طريقة كلامه . قال لي:

بأنه في عقده السابع تقريباً متمتعاً بحيوية لا تتفق مع سنه، ولا يعتمد على عكاز نظيف الملبس أنيق المنظر تتوسط جبهته زيبية من أثر السجود، خط الزمن على جبينه العريض تجاعيد خفيفة كأسطر نوتة موسيقية، أجش الصوت، بهذا الوصف قفزت صورة وصوت شيخ المدونين إلى مخيلتي وتذكرت صوته المميز . أما طبيعة الخط الذي كتبت به هذه المدونة فلا يمكن لأحد تقليده . استبد بي القلق، حاولت أن أجمع شتات أمري. في صباح اليوم التالي استقليت سيارتي و ذهبت إلى مدينة تريم، قصدت منزل شيخ المدونين استقبلني ابنه . عرفته بنفسي فتذكرني، سألته عن مراسم دفن والده وعتبتُ عليهم بأنهم لم يخبروني بدفنه، حاولت أن أكون لطيفاً معهم وأن لا أخبرهم بأمر المدونة الحديثة حتى لا يتهموني بالجنون، أو يخرجوني من منزلهم إلى سيارة الإسعاف، طلبت من ابنه أن يخبرني بمن حضر معه الدفن وطلبت منه تحديد موقع القبر في (مقبرة ولي الله يعقوب) في مدينة المكلا، فرد على أسئلتي، رغم غرابتها، ولعله يشفع لي تلك الغرابة في استفساراتي هو أننا لم نلتق على الإطلاق منذ أن افترقنا في المستشفى قبل وفاة الشيخ. طلب مني ابن الشيخ أن أتناول طعام الغداء معه فاعتذرت له لرغبتي في مقابلة شخص آخر ذكرت له اسمه، كان هذا قد عرفته في المستشفى في مرض شيخ المدونين، قال لي إنه بصحة جيدة، وأردف بأنه سيدعوه للغداء إن وافقت على ضيافته، فرحبت بذلك. حرصت أن يكون حديثنا حول شيخ المدونين واستعراض تفاصيل ساعات حياته الأخيرة وكنت مبالغاً في إظهار أسفي على عدم حضوري، وعلمت منهم أنه قد تم دفنه قبيل المغرب في يوم الجمعة بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩ وسألتهما - هل هناك من يستطيع تقليد خط شيخ المدونين ؟ - لا يمكن ذلك فأنت تعرف تلك الطريقة الصعبة حتى في قراءة خطه فما بالك في محاكاته.

بعد أن غادرت أسرة شيخ المدونين لُمت نفسي، كان عليَّ أن أضعهم في الصورة من تلك المدونة الحديثة، أقل شيء لأتحرر من بعض ما يستولي علي من الحيرة والقلق ولكني لا أدري لماذا لم أفعل، فقلت لنفسي:

المسألة لا تعدو عن أنها مسألة وثائق بتواريخ غير منطقية ، ربما تكون هناك جنائية ما.

سيطرت علي الظنون و(الربماءات) حتى كاد رأسي ينفجر. فكرت بأن أخبر جهات التحري

للبحث عن سر المدونة وعن الشخص الذي جاء بها ولكنني لم أفعل. سافرت إلى مدينة المكلا، ذهبت إلى القبر الذي وصفه لي ابنه، وجدته كما وصفه، وقد كتب على شاهدة القبر المصنوعة من الحجارة الوردية الخرساء اسم شيخ المدونين الرباعي وتاريخ وفاته ٢٠ صفر ١٤٠٠ هجرية حاولت إجراء معادلة لتحويل الهجري إلى الميلادي فكان هذا التاريخ مطابقاً ليوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩، وهو يوم خروجه من المستشفى. حاولت أتناسى أمر هذه المدونة بعد أن ذهبت كل جهودي في معرفة كنهها أدراج الرياح، ما عساي أن أصنع ؟

(٣)

قررت أن أحج بيت الله العتيق، عل الله ينسيها، فكان لي ذلك، وبينما كنت أطوف بالبيت مع الطائفين، لمحت شخصاً يحمل صورة شيخ المدونين، صورة تمثل مزيجاً من تلك الصورة التي وصفها لي الموظف في مكتبي والصورة التي ما زالت مرسومة في ذاكرتي لآخر لقاء جمعني به في المستشفى، كان هذا يصلي عند مقام إبراهيم وكان بجانبه سيدة طافحة النور والبهاء، و يافعين هما أكثر شبهاً به وبتلك السيدة، بذلت قصارى جهدي للذهاب إليه غير أن تيار الطائفين يدفعني إلى الأمام بقوة بعكس عقارب الساعة، في دورتي الثانية حرصت أن أكون بعيداً من مركز الكعبة المشرفة لأكون في أطراف التيار البشري حتى أكون على مقربة من مقام إبراهيم، فكان لي ذلك غير أنني لم أجد ذلك الشخص ولم أجد من اعتقدت بأنهما مرافقاه أو ابناه، شخصت بنظر في غالبية تلك الوجوه المتضرعة و المتضمخة بدموعها، حاولت تناسي ذلك، عمدت إلى مواصلة طوافي لأكمل مناسكي التي أتيت من أجلها، دعوت الله بأن ألاقي ذلك الشخص الذي اعتقدت بأنه شيخ المدونين غير أنني عند ما كنت أتضلع من ماء زمزم كانت نظراتي تتفلت من محاجريها لتطيش في الوجوه الخاشعة، أصبحت هذه العادة تتملكني طوال بقية مناسك الحج ورافقتني هذه في كل تحركاتي في مكة والمدينة ولم أتحرر منها إلا عند ما خرجت من الطائرة التي أقلتني من الحجاز إلى بلادي.

بعد مرور سنتين على ذلك أخبرتني أسرتي بأن شخصاً كبيراً في السن عليه هالة من الوقار والجلال قد سأل عني في المنزل وكان برفقته شابان، سألتهم عن صوته وعن بقية الصفات التي ذكرها لي الموظف في مكتبي فقالوا لي: بأنه لم يخرج من السيارة الجميلة التي كانت تقله.

- ألم يخبركم باسمه؟.

- لم يخبرنا باسمه.

ولكن الشاب قال: بأنهم سيعاودون الزيارة.

- ألم يمنحكم رقم هاتفه.

- ألم يخبركم من أي جهة هو؟.

تذكرت الزيارة التي وعدنيها شيخ المدونين لوالدي ولكن السنين قد أخذت والدي وأخذته أيضاً. وتذكرت بأن شيخ المدونين لا يخلف مواعيده ولكن الأجل يعطل كل المواعيد وكل الطموحات والآمال، ولكن هل يكون هو شيخ المدونين الذي جاء لزيارتي بصحبة ابنيه، هل هما ذلك اليافعان اللذان شاهدتهما برفقة الشيخ وهو يركع عند مقام إبراهيم، أم إنها الهواجس التي تستولي علي وكلما حاولت نسيانها بردمها ببعض السنين والأيام التي رسمت خطوطها البيضاء على مفرقي أجد ما يعيدها إلى واجهة همي ومهامي واهتماماتي، ما الذي جرى لي، ما سر اهتمامي البالغ بهذا الشخص وبقصته الغريبة، أحاول أن أقنع نفسي بأن ذلك وهم لم يهتم به غيري، لماذا أدفع ثمن ذلك لوحدي، لماذا لم يكن لأولاده وأحفاده مجرد المشاركة في ذلك الهم.

زرت مدينة تريم، قصدت للمرة الثانية منزل ابن شيخ المدونين، علّه يخبرني بما يبدد حيرتي بشأن زيارة ذلك الشخص الغريب لمنزلي ولكنه لم يُحدث لي منه ذكراً. غريب أمر ذلك الشيخ الذي زار منزلي في غيابي لو كان هو شيخ المدونين لكان أولى به أن يزور أولاده وحفدته، من أكون بالنسبة له ليخصني بزيارة ينتقل بها من عالمه الغريب الذي لا يعرفه أحدٌ إلى عالمي، هل يخفي الشيخ سراً عن الناس؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يسعى إلى زيارتي ومن أكون بالنسبة له، ومن يكون هو أيضاً بالنسبة لي لأتعذب بكل تلك الحيرة والقلق والتعلق بأرواح ذهبت إلى بارئها وأجساد جيفت بعد أن هجرتها أرواحها .. ولكن ما سر هذه المدونة التي أعرف أنا قبل غيري بأنها لشيخ المدونين وأنها قد كتبت بعد وفاته وأن الأحداث التي بها قد حدثت أيضاً بعد وفاته.

(٤)

ذهبت لزيارة صديق قديم في مدينة شبام اسمه جمعان كان خطاطاً يجيد كل الخطوط ببراعة، عرضت عليه المدونتين : الجديدة والقديمة لشيخ المدونين وسألته:

- هل هي بخط شخص واحد ؟.

نظر فيهما مليا ثم قال وهو ينقل عينيه بين المدونتين وبيني بشيء من المكر صمت ملياً ثم أردف : وهل ترى غير ذلك؟

- ولكن لماذا تسألني ذلك؟

- فقط لنعتمدها في مركزنا ضمن وثائق شيخ المدونين.

حاولت تناسي شيخ المدونين ومحرراته رغم أنه كل ما قرع جرس منزلي كنت أتوقع أنه هو الطارق الذي جاء ليوفي بوعده بزيارتي غير أنني كنت أشك أحياناً في أن كل ذلك ما هو إلا أحد قصص ومقالب الصديق جمعان وأنه هو الذي كتب المدونة الأخيرة مستغلاً براعته في تقليد الخطوط وصناعة القصص والمقالب التي اشتهر بها أهل مدينته.

في يوم من الأيام وتحديداً بعد الظهيرة كنت رائق المزاج بسبب تحرري من كوابيس المدونة والتدوين وشيخ المدونين مما أهلني لعقد اجتماع أسري ثنائي مغلق، كان في منتهى النجاح، حينها رن هاتفي النقال، لم تكن هناك إشارة أو اسم الذي طلبني رغم أن هاتفي مزود ببرنامج كاشف الرقم كان المتصل واثقاً من رقم هاتفي إذ إنه لم يسألني عن اسمي بقدر ما ابتدرني :

- كيف السيد حسين؟.

قلت: وأنا أزدرد ريقي وأحاول كبت أنفاسي المتلاحقة:

- بخير ولله الحمد !!

سرعان ما ميزت صاحب الصوت رغم مضي ثلاثة عقود على سماعي له.

كيف لا وهو صاحب الصوت المشروخ المبحوح، ربما تخونني عينيّ، ربما تخونني الذاكرة، غير أن أذني لا تخطئ أبداً، فأنا إنسان سماعي بحسب تصنيف علماء اللغة البرمجية العصبية، لذلك فإنني أثق كثيراً في أذني.

أجل إنه شيخ المدونين إذاً فقد أضيفت إلى عمره ثلاثة عقود بسبب تذوقه اكسير الخلود من زوجته التي لا تنتمي إلى بنات حواء ذوات الجمال المحدود والعمر الافتراضي المحدد بسنوات إهلاك معينة.

إذاً فهذا الصوت يعيدني إلى الدوامة التي كدتُ أنساها وأسلو من قلقها وهمها الذي أرّقني وعذبني، كثيراً.

دخلت مكتبي المتصل بغرفة نومي أغلقت الباب من دوني لأستجمع قدراتي لأستوعب كل ما يقوله محدثي ،رغم كل ذلك إلا أنني بشيء من النفاق قلت لمحدثي :

- من المتحدث؟

- لا أظنك إلا تعرفني.

وأردف : فقط للاذ كرك.

لقد افترقنا في ليلة الجمعة بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩ حينما ذهبت إلى بروم في رحلتك البحرية.لا شك بأنك تتذكرني .

- أنت شيخ المدونين إذن.

- أنتم من أسماني بذلك.

- من أين تتصل ؟

- من تحت منزلك!

(٥)

هرولت في الدرج ولم تكن بي إلا ملابسي الداخلية واتزرت بمنشفة الغسل وفتحت البوابة وأطليت برأسي مستطلعاً لرؤية ضيفي ومعذبي في الآن نفسه. لقد كان شيخ المدونين يترجل من سيارة فاخرة وأغلق باب السيارة وبقي بها شابان لم أتبين ملامحهما . لقد عرفته أنه فعلاً شيخ المدونين بلحمه وشحمه ودمه وقضه وقضيضه ما إن وصل إليّ حتى عانقني عناقاً أكثر حرارة من عناق (تشي جيفارا) كادت عظامي أن تنخلع وتسمع اصطكاكها . كان بشوشاً ويحمل وجهه ابتسامة ثابتة ووقورة كسحابة الشتاء .

- مرحباً ..هلا أدخلت مرافقيك معك ؟

- لا داعي. سنتحدث أولاً على انفراد. ربما تكون لنا لقاءات كثيرة في المستقبل.

شيخي الجليل أنت لم تغب عني مطلقاً .

- أعرف أنني غبت عنك فقط لأيام قلائل ..

لقد أزعجتك كثيراً.

كنت أنا وهو نصعد الدرج إلى غرفة الاستقبال التي وجدتها مفتوحة وقد تم تشغيل المكيف. و ما إن جلسنا حتى قال :

- لقد أبليت بلاء حسناً، لذلك فإنني أعتذر إليك لكل ما سببته لك من متاعب.

سكت قليلاً ليقرأ تعبير وجهي ثم أردف :

- كان امتحاناً صعباً أهلكَ لأن أعرض عليك صفقة الخلود التي لا تتيسر لأحد .

- لست من أصحاب الصفق. ولم أعهدك كذلك.

- أجل ولكنها صفقة أخرى تختلف عن التجارة وصفقاتها وحساباتها..

ساورتني بعض الشكوك فيما طرأ على الشيخ لذلك قلت له :

- هل زرت أهلك في تريم؟.

- الأموات تُزار ولا تَزور.

- ولكنك حي ترزق.

- تلك حياة أخرى.

- إنها ليست حياة آدمية كما ترى.

- أريدك أن تحكي لي حكايتك من بدايتها.

- بل سأحكيها من آخر ما انتهت إليه مدونتي الأخيرة.

(٦)

مرت لحظة سكون كنت أخالها ساعات حتى خرقها بصوته المبحوح :

- ولكنني يجب أن أختصر حديثي. أنت بلا شك بفطنتك ومعاناتك تعرف الكثير ولكنني سأحجم عن أي حديث آخر، سأكتفي بعرض الصفقة التي حدثتك عنها. لقد تم اختيارك لأن تُمنح عمراً آخر تعيشه بعيداً عن الأمراض والأسقام والأوصاب، عمراً بعيدا عن عالم الأحقاد والنفاق والجريمة والدماء والإرهاب عُمراً ليس له نهاية .

- هل تقصد بأن تأخذني إلى عالمك بعيداً عن عالمي، بعيداً عن أسرتي، بعيداً عن كل ما أحببته في هذه البسيطة؟ .

- تستطيع أن تستوفي أجلك في هذه الدنيا كما كتبه الله لك، ليبدأ سريان الصفقة من حال دفنك.

سكت قليلاً وكنت وقتها أخال نفسي في حضرة عزرائيل وهو يساومني، غير أنه قطع علي حبل أفكاري حين أردف :

- أنت في كل الأحوال سيد الخيارات وصاحبها وتستطيع أن تحدد سريان العمل بموجبها في أي وقت شئت . - معذرة كلام غريب عليّ يحتاج مني بعض الوقت لاستيعابه.

قاطعني قائلاً:

- أنا كما ترى لفرط محبتي لأولادي الآدميين اخترت أن يبدأ سريان الصفقة معي بعد وفاتي .. وتستطيع أن تختار لنفسك ذلك. أيضاً تستطيع أن تختار لنفسك الفئة العمرية التي تناسبك ليتم تسكينك فيها، شباب وكهولة، وشيخوخة، وأنا اخترت لنفسي الكهولة كونني قد ألفتها .

- كنت في حيرة من أمري وكنت أفكر في زوجتي التي أحببتها كثيراً وقد أدرك حيرتي لذلك قال:

- العرض هذا يخصك لوحدك فقط، لا يشمل زوجتك سكت برهة ثم أضاف:

لا تشغل نفسك بالتفكير. فلديك الكثير من الوقت لتفكر. فإذا ما أردتني لأمر يتعلق بهذا الخيار - ولا غيره- ستجدني بجانبك .وإن لم تحتاج إليّ سأحضر قبيل وفاتك بعد أن تستوفي أجلك كاملاً غير منقوص.

- هل أستعين بك لأمر آخر؟.

- جماعتي هم خلقٌ من خلق الله لذلك ليس بمقدور أحد تغيير مشيئته وهم فقط ماضون في طريقها. وهم جزء من أدوات تحقيقها.

- عندما أكون معكم هل تنتهي علاقتي بعالمي هذا؟.

- تستطيع أن تحج وتستطيع أن تصنع المعروف لمستحقيه. لكن ليس بمقدورك مخالطة الناس في حياتهم إلا ما قضت به الضرورة. بالتأكيد ستكون لك زوجة لا يمكنك تصور جمالها وسيكون لك منها أولاد وستكون بينكم مودة ورحمة..

سكت هُنيهة ثم أردف: وهو يستعد للنهوض :أستودعك الله. انتهى!.

لزمني شمسه

ألف روح وروح

صالح سعيد باعامر

وتناغم التوق متدخلاً مع الشوق لتتوازن الوجدانات والدواخل مع العوز الروحي ..

أحسست اللحظة أن مكالمة ملكة لي ستنتج ثمارها. لم لا وهي إذا اقتنعت بشيء تقنع به من لا يقتنع .

انفض لقاؤنا البارحة على الاتفاق أن تخبر أمها بما اتفقنا عليه وهو الخطو نحو عقد قراننا والتعجيل به. فالموجة السياسية تتجه نحو التصاعد، سيما وأن كلمتنا قد أدت دورها وصحيفتنا أوصلت المزاج الشعبي إلى الذروة وبذلك تصدرت المشهد السياسي إلى جانب موبايلي الذي لم أجد غيره يمدني بما أبتغيه ومالا أبتغيه.

صار زمننا أنا وملكة زمناً واحداً، صرنا رتقاً لم يفتتق رغم محاولات من يؤرجحنا لم نتثن فلقد واجهنا تشابالا البحر وتشابالا البر اللتين تقاطعتا وتعانقتا فأثبتنا أننا القادمون والباقون .

لقد هزمنا الإعصارين اللذين أبعدانا عن بعضنا بعضاً . فلقد صارت ملكة نازحة في صحراء الربع الخالي وبقيت أنا وسط اللهيب في المدينة، أخال اللحظة أن ابتعادنا كتباعد أبينا آدم وأمنا حواء عن بعضهما . إنهم يظنون أن زمننا سيزول وشمسنا لن تشرق لأنهم لا يدركون أننا بألف روح و روح .

85
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

تركة عاشِقَي الحياة!

عبدالله عوض بكير

فيما مضى من الزمن القديم أتذكر ذاك اليوم الذي حدثني جدي عنه عندما قمنا بزيارته في القرية .

كعادته فرح بشوش، الابتسامة تعلو محياه، والبشر والسرور يكتسيه كحلة جديدة تتجدد صباح مساء.

سلمتُ عليه بعد أن قبّلتُ يُمناه منحياً تقديراً واحتراماً لذلك الأنموذج الرائع في حياتنا، فقد اعتدنا نهاية كل أسبوع أن نطرق بابه ونأنس بلقياه ونستلهم منه العبرة والعظة والتوجيه الحسن.

هذه الزيارة لم تكن كعادتها من الزيارات، فقد وقع نظري - هذه المرة - على لوحة جديدة معلقة على إحدى جدران غرفته .

لفتت انتباهي الصورة بادرت جدي متسائلا :

- جداه لم أرَ هذه الصورة من قبل معلقة هنا ؟

رد علي بعد أن أهداني ابتسامة خفيفة :

- نعم يا بُنيّ وجدتُها في بعض أغراضي القديمة التي في الصندوق.

قلتُ : جدي كأن الصورة تريد أن تقول شيئا ما في جعبتها؟!!.

مرة أخرى جدي مبتسما :

نعم ... نعم ... نعم ...

تعال يا بُنيّ اقترب مني لأخبرك سر هذه الصورة.

تنهيدة خفيفة صدرت منه، لفت انتباهي من خلالها!.

إنه الرجل المريض؟!

تعجبتُ منه: جدي وماذا حل به هذا الرجل المريض؟! ...

قال : عبد المحسن، هذا هو اسمه كان من خيرة رجال القرية يقطن في بيته هو وزوجته فاطمة، لم يشأ الله أن يرزقهما الذرية، عاشا وحيدين. إلا أن أغلب أبناء القرية وشبابها كانوا يمرون عليهما ويلقون بالتحية لهم والسلام، الكل مستأنس بهما ومسرور بوجودهما.

أترى يا بُنيّ تلك النافذة الخشبية من الطراز القديم وذاك السراج الذي على يمينها؟.. كان شبان الحي دوما يأتون إلى تحتها وينادونه :

أيها الجد المحسن وأيتها الجدة الطيبة أنتما هنا ...؟!

فيطل أحدهما قائلا :

نعم تفضل ماذا تريد ؟...

هل لي أن آخذ أحدى الدرجات الهوائية لأجلب أغراضا لأهلي من السوق؟!.

لا ضير خذ أيا منها.

يمتطي الشاب الدراجة:

أأجلب لكما شيئا من السوق؟!.

لا لا شكرا لك، وكن حذرا في الطريق ...

مشهد آخر متكرر عند الغروب حينما يبدأ الظلام ويرسل أجنحته يمر عليهما أحدهم:

الجد المحسن والجدة فاطمة قد آن وقت دخول الغروب هلا أنرتما الشارع بتلك المصابيح الجميلة، فقد حل المساء؟!!!

أترى يا بني ذاك الباب السفلي؟ .

نعم جدي ...

هذا ليس بمدخل الدار بل هو مجلس للجد عبدالمحسن، دائماً عندما يحل المساء يجتمع صبيان القرية وربما أحياناً شبابها ليستمعوا لشيء من حكايات الأزمان الغابرة وأحداث وبطولات وأمجاد أشاوس قريتهما إبان الهجوم الذي يتعرضون له من اللصوص وقطاع الطرق...

توقف جدي برهة عن الكلام ثم أشار إلى صامتاً أجلب لي الصورة ؟.

قمت مسرعاً وأتيت بها له.

فأخذ يتأملها والصمت قد تملكه ونزلت دمعة على برواز الصورة!.

جدي ماذا بك ؟!

أحسست أن ثمة شيئاً ما ...

همس إلي والألم يعصر فؤاده :

مات عبد المحسن وماتت فاطمة في يوم واحد.

مندهشا مما سمعته :

ماذا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! ؟؟

نعم يا بني، أصابتهما حمى شديدة في ليلة من الليالي دون أن يشعر بهما أحد من أهالي القرية إلا بعد طلوع أشعة الشمس لأن المصابيح لم يطفأ نورها.

استغرب أهل القرية ولكنهما ظنوا أن الجد والجدة في القرية الأخرى كعادتهم لزيارة أصدقائهم وسيرجعون عند المساء ككل مرة.

مر اليوم الثاني ولم تطفأ الأنوار، حينها شعر بعض رجال الحي أن هناك أمراً ما مريب ...

فتحوا باب الدار وتسللوا فأصابتهم الدهشة والذهول فقد رأوا الجد عبد المحسن والجدة فاطمة كلاً ممسكاً بيد الآخر وقد فارقا الحياة ...

لم تنم القرية تلك الليلة ولم يهنأ الأطفال ولم ترتسم الابتسامة على وجه أي أحد من شباب الحي وخيم الحزن والصمت في موكب جنائزي مهيب لم تشهد القرية مثله من ذي قبل.

رحل العجوزان وتركا لأهالي القرية تركة، هي بيت من الطراز القديم ودراجتين هوائيتين لشباب الحي يقضون بهما مشاوير حياتهم، ومصابيح تضيء للمارة في المساء، ومجلس لصبية وأطفال القرية يرتشفون منها أسارير الماضي وحكايات الزمن التليد.

مات العجوزان وخلفا تلك التركة ولم يرثهما أحد سوى الوريث الأول لهما، وهي قرية بأكملها شباب وشيب وصبية وحي بأكمله ...

احتضن جدي تلك الصورة وسالت على خده دموع أخرى، بعد أن أرسل لي نظرة بريئة قائلاً :

تلك هي القصة ! وهذه تركة! تركة عاشقي الحياة .

رواية ليل (١)

في انتظار مجيء القلق

صالح سعيد بحرق

كنت في تلك الليلة وحدي على الشرفة انتظر انهمارات المساء ،وبيقين مشوب بالتوتر كنت أدخل رأسي إلى الشارع لاصطدم ببعض الأفكار التي أفضي بها إلى عوالم التأويل المتاخم للروح.

كان الحي من الأسفل يبدو دروباً متلاصقة تحنو بعضها على بعض يتخللها إحساس من الانبهار للوهلة الأولى يعقبه تدفق بالحنين في مسارات المساء الدافئ المتسلل إلى روحي وأنا مطل على الشرفة في هذه الليلة منتظراً انهمار القلق لأبدأ في الدخول منذ اللحظة في تفاصيل جديدة وتشعبات تمنحني اتكاءات يائسة على مشارف القلق .

ليس من شك أن كل الأشياء تقود نفسها لتخلق رغبة متصارعة داخلي أو لتضعني على تلال الوعد النامي مع انثيالات هذا المساء المتلاحقة ورأسي ما يزال خارج الغرفة متدليا إلى وسط الشارع وفكرت في خلعه وإبقائه على الشرفة ليتصرف مع المارين كما يشاء.

عندما تتخلى الأشياء عني يكون في مقدوري صياغتها من جديد ،قد أقع على أشياء غير منسجمة قلقة تتحفز للوثوب وتبحث عن ارتواء يتطلبها الصوت المأزوم المتقطع داخلي ،ولكن السكون والانزواء يهبني دائماً لحظات حاسمة في كبح جماح هذه الارتدادات المنهمرة بالقلق ،فألوذ بصمت فطري يتشعب في مداخل الروح.

بدأت في هذه الساعة الآن تتحرك نحوي الفجاءات، تسكن أعلى طبقة في تفكيري، لماذا لا أنزل إلى الشارع وأركب وجهي وأشتري الجريدة، ولكني تذكرت أن حذائي مقطوع وأصابني نوع من الامتعاض ولكم نظرت إلى أحذية المارة فوجدتها تشير إلى بعض صفاتهم تماماً . لكني لم أكن لأجزم أن أقول هذا التخمين لأحد البتة.

وعاد رأسي إلى العمل وندت عني التفاتة إلى الخلف فأبصرت حقيبتي التي رميتها في ركن الغرفة بعد انتهاء فترة عملي ..علي أن أبحث داخلها عن بعض الأوراق والرسومات التي كنت مولعاً بها وهي مجموعة رؤوس بشرية انفصلت عن أجسادها ..وعاودت النظر إلى الشارع ثانية وقد استشرفت كياني فكرة البحث عن عمل وتذكرت ليلى التي تركتها لأني لم استطع توفير حاجياتها وودت أن أبكي لكنني سعلت بشدة حتى أحسست أن رأسي يهبط إلى الشارع ويتسكع في الطرقات.

واشتدت حلكة الليل. فالتقطت رأسي من النافذة شيئاً فشيئاً ومشيت به إلى الداخل وأضيئت الغرفة على لمبة هزيلة بالكاد أرى منها أمتعتي وكتبي، وتشاكلت الأفكار في نفسي ومرت بشكل سريعاً اللحظات التي هربت منها واستعصى علي نسيانها وتحت اللحاف حاولت أن أنام أو أسلو فلم أفلح إلا في المزيد من الانهيار والقلق.

وبدأ الليل يلفني..يزحف ببطء ليكتم أنفاسي، يجذبني تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال وعلى ألم ممض أتجرع كؤوس الصبر ولا أستطيع أن أحمل رأسي إلى النافذة يسيطر عليَّ حنين مباغت بالبكاء والصراخ مجدداً حتى ينهض ما في داخلي من بؤس ويولي الأدبار ولكن هيهات،تكومت على نفسي بصعوبة وانجرفت إلى محاكاة اليقين المتبقي داخلي لكنه لا يحملني إلا على مزيد من القلق .

كان الضوء خافتاً جداً. لا يسمح برؤية الليل الممتد داخلي ،وقد ظل يفترش في داخلي يغزو شرايين القلب وأماكن أخرى طمرتها الأيام حيث راحت تناجي نفسها وتقودني إلى حواش مؤلمة عصية عن النسيان وكان وجه ليلى يفد متزامناً مع اضطراباتي.

كل الأسماء القديمة لمكونات ذاتي المهزومة بدأت هي الأخرى تستعد لتلقي بأجنحتها في خضم الليل وتتدافع مع أمواجه التي تهدر الآن بصوت مزدحم بأمنيات الأمس، وخرافات الانتظار من أجل إتقان الهروب إلى شواطئ السلوان.

الليل ينشر أجنحته العنكبوتية في كل مكان من جسدي يعلو إلى القلب يفتح ممرات اليقين يعبث بها يتسلق ذاكرة النجوى يتمدد بوحشية في نواح مجهولة لم تستوعب أقدامه المرتجفة بعد خوفي وقلقي، أود أن أنهض أن أضع رأسي على طرف النافذة..حاولت أن ألملم أشيائي التي انسربت إلى حياض موحشة فلم أفلح، أسندت ظهري إلى السرير، اتكأت على مجلد ضخم للحرب والسلام، تسلل إلى قلبي العالم الموحش الذي خطه تولستوي، هربت من شخوصه وقذفت بهم من النافذة وانحنيت لأضع رأسي على زاوية بعيدة، وكانت الرطوبة في الداخل تزداد، وأنا أشعر بحاجة إلى ابتعاث القلق إلى صحارى مجهولة ليتوالد هناك، أبحث عن معالم الطريق هناك بعيداً، ثمة امرأة تعبر الشارع بصعوبة من كثرة المركبات تتعثر تكاد تسقط أبصر ساقيها البرونزيين..أتبعها بنظراتي حتى يأتي باص مسرع فيلتهما فاه ليبقى الشارع فارغاً يقذف بين حين وآخر بالرعب.

وكالعادة هناك في ركن قصي كنت أعقد للأمل مكاناً جلست أتأمل الطريق بعد أن أعدت جميع أعضائي إلي، وبدأت حلكة الليل من جديد تلفني وتجتاح كل أنفاسي وتتسلل إلى مفاصل ذكرياتي فتكبح ما تبقى بها من نضارة الأيام، وتوقد حدسي وأنا جالس، أعبر جسور القلق وأفكر بشيء من اليأس عن مصير توقعاتي وكيف سأقبل على التصديق بكل ألوان هذا الانهزام الذي يمنحه لي الليل.

كان الأفق يضيء بعتمة السكون ينشر فجيعة مخفية وسط الأشياء المحيطة بي يتلصص من منافذ سرية على تحركاتي يشرب من كؤوس انتظاري ويسكب الهلع في كل مكان،فلا أستطيع النهوض مجندلاً بين صخور القلق تنفتح لي باستمرار كوى الحزن وتتعامد في داخلي أروقته السوداء فلا أبصر اتجاه الطريق، فيأخذني الليل إلى صحاريه أقتات على الصبوات المتبقية في القلب.

وشعرت بالجفاف،وغصة عميقة في حلقي وجنوح على التثاؤب والخروج من دوائر الوقت، إلى التعلق بمناطق موبوءة بالنسيان والقلق. وشاخت كل أسئلتي عن الأشياء التي تمر أمامي وهزأت بي الظنون..

كانت معالم المدينة تذهب في سبات عميق لا تشي بالحركة إلا على فترات متقطعة يعقبها صراخ حاد في مكان ما ووشوشات بالقرب من أشجار الزينة الضامرة وتمر بالشارع آليات كبيرة مغطاة ووجوه معتمة في الظلام، ويمر من الخلف رجال غرباء لا لون لهم.

وهبت على جسدي المنهوك نسائم باردة، وتلاحقت الذكريات لتطمس معالم السرور التي يهبها المكان المقفر في صحراء التيه والغربة والقلق النابت في صخور العمر، وتراشقت نبال الهموم لتغدق على فكري بألوان الغم وتجبرني على الارتماء في أحضان لحظات لا أعرفها، وأيقنت بأن الليل باق وأنجمه قد شدت بأوصالي وتراخت عليها أستاره الحمقى لتجتذبني في أي حين.

وأصخت السمع إلى نداء خفي يتصاعد من أصقاع روحي الندية بالآمال في ليل مطبق من جميع الاتجاهات وغدوت أحاور شخوصاً كانت تسلبني بهجتي وتستفيق كل دقيقة لتقيم مهرجانها الصاخب داخلي مفسحة للظلام بأن يتسلل رويداً رويداً حتى يشيخ على أجفاني فاقع في شرك اللا نسيان.

وأشعر أن أعضائي تتمدد في أرجاء فسيحة من الأحزان والتكهنات ،وأنتظر مجيء القلق.

لا ينطفئ شرارة النسيان،فيصعقني تارة وتارة يرمي بي في أتون الانتظار. وأفتح صفحة اليأس في مداخل الأسى لأقف على دمعات ودعت بها نهر الأشواق، وتماوجت سفائن الحنين داخلي وأنا على الرصيف لا أبرحه في ليلة باردة تغمرني بمزيد من الأشواك.

وتساءلت كيف أعود إلى غرفتي كيف أكبح جماح هذا التوتر والانهيار ..كيف أزيح الليل عن كاهلي كيف أغدو نهاراً جميلاً بلا أستار ظلام ولا قلق ولا حزن ولا خوف.

وودت أن أشعل عود ثقاب. أو أن أطرد إلى حين فقط زخات الأسى المتعامدة،وتمالكت على نفسي حتى استويت واقفاً فإذا النوافذ مشرعة يهطل منها الليل الباسم هناك خلف الستائر المخملية البنفسجية والأصوات الرقيقة الهامسة التي تنبعث في هدأت الليل.

وراحت الهمسات تتسلل إليَّ في رفقة السكون وتتلاشى من خلدي علامات القلق إلا قليلاً فأشرع في المشي وأدنو من نفسي وأتعانق مع الأشياء والحنين.

وبالكاد وصلت إلى أقرب نقطة من المنزل..الحنين بالبقاء في العراء لانتظار مزيد من القلق هو ما يسيطر علي ويدفع بي إلى ملامسة أشياء صغيرة عالقة بالقلب، ولا أدري كيف تذكرتها تحت سياط البرد والخوف والقلق. وعلى الفور رحت أفتح نوافذ القلب المغلقة.. لتستشرفني اللحظات الجميلة التي عشتها، تحاول أن تفترس هم الليل فلا يجديها ذلك نفعاً بيد أنها تظل تراوغ في القلب وتتناسل تحت ميلاد الانطفاءات السابقة لتحيا من جديد في هزائم الذات.

وهاهو درج سلم المنزل يبين لي، وهذه الأحجار السوداء قد صنعت توقعاتي وطالما اختلطت بأمنياتي وخوفي وقلقي وكل حجرة ابتدأ عندها مشواري أو انطفأ، أعرف كيف ندمت هنا وكيف بكيت هناك.

وتراءت لي محطات اليأس كلها وتراءت لي تشققات العمر والرغبات ودنوت من الرصيف لالتقط صحيفة ممزقة، لكن الريح سبقتني، فأخذتها بعيداً، وفكرت كم من أحلامنا تذهب مع الريح لننتظر القلق.

أمضي *

أ. د. عبدالعزيز سعيد الصيغ

أمضي، فيملأني من بعدها عجبُ ... أكنتُ فيها وكانت فيَّ تضطربُ؟
أكنتُ احملُ في جنبي عبءَ هوى؟ ... ولم تنله أراجيفٌ ولا عَتَبُ
و ظلَّ يكبُرُ في عينيَّ متشحاً ... إزاءَ من ذهبوا في العشق واغتربوا
نزلتُ فوقَ ثراها نبتَ رابيةٍ ... تشدو، وعصفُ رياح حولها سَكِبُ
صحبتها زمناً عزّت مكانتُهُ، ... وسوف تبقى معي في النفس تصطحبُ
تقلبّت بيَ أحوالُ الهوى وبها، ... ولم تزل بي إليها الروحُ تنقلبُ
ظلت تراودني في كلِّ آونةٍ، ... ولم تزل في دمي تسعى وتصطخب
لها توقدُ عشاقٍ، و دفءُ هوىً ... لا ينقضي، وحنينٌ ليس ينسحب

على رباها التقى فرسانُ مملكةٍ، ... لهم نزولٌ، وإن جدّ الوغى ركبوا
صحبت فيها أجلاءً أساتذةً، ... إليهم الروحُ من قبل الخطى تثب
على محياهم سمتُ الوقار، ... وفي أخلاقهم شرفاتُ الضوء تلتهب
يبقى لهم في ضمير النفس منزلةٌ ... بهيةٌ، ووجودٌ باذخٌ صَخِبُ

حقائبي بهم ملأى، وذاكرتي ... منهم إذا جفّت الآبارُ تحتلب
ملأت من حبهم أحمالَ راحلتي ... ففي عناقيدها من شوقهم عِنَبُ
حلُّوا مكاناً لهه في النفس منزلةً ... بعيدةً، تُرتقى إن جلّت الرُتَبُ
وربما اضطربت في لحظة صورٌ ... وخاب ما كان عندي ليس يضطرب

سبعٌ مضت، وكأني ماشعرت بها ... ولا حوتها أعاصيرٌ ولا نَصَبُ
أمضي، وأسئلة تمضي تلاحقني، ... وعشرة ملؤها الأوراقُ والكتبُ
وذكرياتُ أحاديثٍ وأمكنةٍ ... في الروح تمتد أغصاناً وتنتصب
أمضي، وفرحةُ غيم أستسرُ بها ... تمضي معي وسماءٌ ليس تحتجب
وأن أرى بعد تركي مارغبت به ... ما كانت النفسُ دوماً فيه ترتغب
وخفف الوطءَ عنّي أن أغادرها ... قبلي عزيزون عنها فجأةً ذهبوا
أنست في قربهم ثم انطوت صحفٌ ... بيضٌ، نسيمُ شذاها ظلّ ينسربُ
ما جاء ذكرُ بدور من فم عطر ... إلا وجال لهم في خاطري طلبُ

إلى ربى وطني تمضي الخطى خبباً ... يحثها أمل كالصبح مرتقب
مواطن العز، أنداء الغمام على ... تخومها وذرى هاماتها ذهبُ
ما مر بي ساعةً أصفى وأجمل من ... مرأى رباها، ففيها الوقت ينتخبُ
ولا تجلّى جمالٌ في عذوبته ... إلا وكان لها من حظه سببُ
هي الجنانُ التي تُشفى النفوسُ بها ... وغيرُها من مجاني حسنها شُعَبُ
أمضي إليها، فتشدو النفس في فرح ... ويملأ الروحَ حسٌّ منعشٌ عَذِبُ

* قيلت في فندق بر الجصة مايو ٢٠١٣م
في حفل التوديع السنوي
الذي تقيمه عمادة كلية الآداب
جامعة السلطان قابوس
سلطنة عمان للأساتذة

89
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

مقاطع ملوّنة*

يحكي يصرّح أنا القاضي أنا الجلّاد
يحكم علي أو عليك و ينفّذ الأحكام

* * *

يغتال كلّ أغنيات الوصل و الأمجاد
و يذبحُ النورَ .. و الأعياد .. والأحلامْ!!

* * *

أصعبُ تحاورْ مع إنسان يتصوّر
جميع ما يرتأيهْ و ما يقولهْ صَحْ

* * *

من كلّ وجهة نظرْ لا تعجبهْ يسخر
يجرحْ شعور الجميع و ربّما .. يذبح !!

***

إنما يَمتازْ
يا قومْ
الرجالْ
بالتحدّي للمتاعبْ
و الصعابْ
ما تهز الريح
هامات الجبال !!
ما تهابْ القافلهْ
نَبْح الكلاب !!

* * *

أبو الشهيد :
في حَزَمْ جامدْ
في جَلَدْ
هـتَـفْ
زَأرْ
زَي الأسدْ
ما فيش أغلى من الولـدْ
إلا الـبلـدْ
.....

.....
.....
إلا الـبـلـدْ !!

***

البعضْ ينظرْ لشخصكْ
من خلال اسمكْ
أو من خلال الوطنْ
و اللونْ
و الأديانْ
حافظْ على العدلْ
و الإنصافْ في حُكمكْ
انظرْ
تأمّلْ
لإنسانية الإنسانْ

* * *

الحقل يحضن شذا النرجسْ
و عطر الفُلْ !!
و الشوك في الحقل
لا يطغى على خيره !!
و كوكب الأرض واسعْ
يتّسعْ للكُلْ !!
و كلّ إنسانْ حُرْ
مالم
يضُرّ غيره !!

* * *

قالوا تفخسسْ - زمان أول -
لكي تسلم !!
هذا المثل للمذلّهْ
ينتمي و الهون !!
عِش دائماً، حُرّ عالي الرأس و مكرّم
لا تنحني يا أخي

صالح سالم عمير

* من ديوان جديد تحت الطبع
عنوانه (كبريات)

90
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

ليل الشبواني

سالم عبدالله بن سلمان

(إهداء إلى / محمد علي باحميد
* ذكرى ليلة شبوانية *)

كانَ ليلاً مدهشاً
وأهازيجاً
ورقصاً
وانشراحاً . . وقصيد
. . . . . .
وجموعاً تملأ الساحةَ
في ليلِ الكرى
ببها في زهوها
مرقصة "العدّة" والأنغام
وشبواني النشيد .
. . . . . .
كلما ألحفهم في غيّهِ
هاجسُ الشعرِ
شاعرُ الحارةِ
بصدى لحنٍ من الزمنِ البعيد
"وين الخلفْ ياسعادْ
كانت مدينةُ كرمْ
ذي في تواريخ عادْ" *
. . . . . .
وتظل مرقصة العدةِ
في الليلِ البهيم
تتعالى . . تتعالى . .
في انسيالاتِ الرنين
عندها في لحظةٍ خاطفةٍ
يشتي في نرحةِ الرحمةِ
والحرِ الشديد
مراقص مُبتهجَ
وآخرُ متأبط إيقاعهُ
فيشعلانِ الحفل إيقاعاً
وترديداً فريد
. . . . . .
ويظلانِ . . يطوفانِ . .
يطوفان
على الساحةِ
ويفترقانِ ويلتقيانِ
ثانيةً
وكل منهما يحنو على صاحبهِ
ويحثهُ في خفّةٍ . .
بمزيدٍ . . ومزيدٍ . . ومزيد
. . . . . .
وأنا وصاحبي الذي . .
كأن من حولي يتمتم هامساً
إنه الإبداع في أوج الغناءْ .
طارفٌ حيناً وأحياناً تليد
. . . . . .
ليلةُ البلدةِ ما أجملها
في مكلانا . . وفي حيّ
الشهيد .

* من أهازيج الشبواني

91
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

حنين واغتراب

محمد سالم بن داود

عاشقُ الليل مُحبٌ وطنَهْ
نازفُ القلب، وفيه سكنَهْ
يحملُ الهمَّ، ويأسو جرحَهْ
بدموع منهُ ضاهت مُزْنَهْ
وطنٌ مابين أضلاع ثوى
بحرهُ هاجَ ،وتاهتْ سُفُنَهْ
تعصفُ الأهواءُ في أرجائهِ
حَربُهُ منهُ وفيه فتنَهْ
كلما جنَّ الظلامُ ليلةً
غزتِ الأسقامُ شوقاً بدنَهْ
وتهاوى الروحُ في آثارها
أوهنتهُ والهوى قد وَهنَهْ
مهجةٌ تذوي حنيناً،وأسىً
مثلما فارقَ زهرٌ غُصنَهْ
ينثرُ الشّعرَ،ويهدي لحنَهُ
كحمام ناحَ فوقَ فَنَنَهْ
كم نأى والبُعدُ سيفٌ قاتلٌ
قدَرٌ -قسراً- بمنفىً سجَنَهْ
وطني إنّي غريبٌ حائرٌ
وكوى قلبَ الغريبِ شجَنَهْ
صارَ كالمجنون يهذي قائلاً:
عاشقُ الليل مُحبٌ وطنَهْ
نازفُ القلب، وفيه سكنَهْ

الهند: ٣ يونيو ٢٠١٥م

صحو من ملامحه المطر

أبو بكر محمود باجابر

إذ تطل . .
يمد سيقانه قمر فوق ساقية الحلم ،
ينفض عن كتفيه الأغاني،
يراقصني - في فمي - مطراً عد كالأماني .
إذ تطل . .
يهدهد عتمته الليل بالعطر،
يرتعش الشعر بالحدس،
ينفش أنفاسها في المعاني . .
المدى سافر،
والتواني شراع على مقلة الفجر، تمخرني
والندى يستحث خطاياه،
يعتق الهمس في كل سنبلة من دم الكون
ليس حنجرة الماء حتى تطل . .
تموت الجهات وتحتو على مركب الموت أمكنة . .
لا مكان سوى ما تطل عليه
فتمثل الأرض حين تلامسها بالسماء
وينتفش الشوق ذاكرة في فؤاد الحواء . .
هي الـ(قيل لي في حراء)
وكل الذي قيل بعد
الخطى - إذ تطل - موانٍ
الزمان تهاني
المكان خمائل . .
ومرود تعانق أخرى
نهود تطنطق آيلة للصعود
تباهل بالسرد شعراً . .
وصمت يفتش عن صمته . .
ومروى تخلق في مرحم من ظنون . .
إذ تطل
أطل على شفة الجنون
خطاي تراودني عن مكاني
على أطل ولست أراني !
فأين أنا ؟ حيث لا أنتهي
سدمرة المنتهى بدها . .
إذ تطل أناهز حلمي، على مطي اشتهاري . .
أصافح بي غيمة الحظ قبل أواني

ليل ينادم
قلبك المضنى فلا
تترك هديل الوجد
يقتله الْحَلَكْ

* * *

برق توارى
في تجاعيد المدى
هل ثمّ ريح
سوف تُرْجِعُ ما هَلَكْ

* * *

ماض بلا معنى
يكرر نفسه
ويعود ثانية
ليعلك ما علك

* * *

لا هاجس المعنى
أتاك مغردا
لا الشوق في مسراك
هادن أولك

* * *

لا الدرب أنجز وعده
حين امتطى
شوق الليالي
أو دنا كي يوصلك

* * *

حتى حنينك
لم يجد مأوى له
فنأى وصار سلوكه
فيما سلَكْ

* * *

والفجر وعد
في قناديل الدجى
والوعد أثقل
في الليالي كاهلك

* * *

وغصون قلبك
لم يقبلها الندى
ونخيل صحوك
لم يعانقها الفَلَكْ

* * *

قل لي بربك
كيف ترجو وصلها
والتيه في ليل النوى
قد ضللك؟

ريبورتاج

عبدالله سالم باكرمان

لقاء عاجل مع موت عابر

سامي أنيس الكثيري

لستُ أعرفُ كيفَ سأمضي إلى الموتِ
أسألهُ أن يُطيلَ الرحيلَ
فما زالَ في الوقتِ متسعٌ للحياةْ
ليتني سأقابلهُ في الطريق على شارع ليلكيّ طفولي
أو دكةٍ مُهملةْ ،
أو زقاقٍ على مفرق العُمر تسكنهُ الذكرياتْ
لستُ أدري متى سيجيءُ ؟ ،
وماذا سيشربُ ؟
أيُّ نبيذٍ يُحبُّ؟ ،
وكم ساعةٍ سوف ينفقها بيننا ؟
أيُّ حرفٍ سيفتحُ قلباً صموتاً ؟ ،
وكيفَ نُبادلهُ البسماتْ؟
وكيفَ ؟ ، وكيفَ نُروّضُ هذا العجول المزاجي ؟
كيفَ نؤهلهُ للكلامْ؟
لا أجيدُ اختيار الورودِ التي ستُزيّنُ
طاولةَ الليل
لا أملكُ الخبرةَ الكافيةْ
كيفَ نبدأ طقسَ التوحدِ ؟
هل تتهجأنا الأبجديةُ ؟
أيَّةُ تعويذةٍ سوف تنثرُنا لم تزلْ تتلعثمُ بيني وبيني؟
تُرى من سينفخُ ؟ من سيُتمتمُ؟
من سيُرتلُنا آيةً من كتابِ الغرامْ ؟
أنتَ تشبهني من زوايا ثلاثْ
أنتَ مثلي خجولْ ،
ومثلي عنيدْ ،
ومثلي كسولٌ تُطاردك الأمنياتْ
لستَ وحدكَ تختارُ لونكَ بين الحضور ،
وبينَ الغيابِ ،
وبينَ الغمامْ
وجهُكَ الداكنُ الحقدِ يُربكني
كيفَ أشرحُ خوفَ الحروفِ ،
وذعرَ اليمامْ ؟

93
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

المكلا وباشريف .. سحر المكان وعبقرية الإنسان

الشاعر الرقيق (١١ عاماً على الرحيل)

صالح عبدالرحمن المفلحي

بوعمر..
عاشق التراث الشعبي

شاعر (ثورة الحرمان)
عبدالله عبدالكريم الملاحي
(١٩ عاماً على الرحيل)

عميد الدان الحضرمي
حداد بن حسن الكاف

(برمة) رائد المسرح الحضرمي الارتجالي

عمر مرزوق حسنون
تاريخ من الإبداع والفنون

المكلا وباشريف .. سحر المكان وعبقرية الإنسان

المكلا سيدة المدائن وفاتنة التاريخ .. من الجبل أخذت صلابته ومن البحر عنفوانه. المكلا حكاية عشق لا تنتهي .. منذ انطلاق سفينة النهضة في الحكم القعيطي في منصف ثلاثينيات القرن العشرين في عهد راعيها السلطان صالح بن غالب القعيطي تناثرت على رقعها صفحات العشق تباعاً .. فهناك سورها العظيم وسدفها المهيبة وهناك ميناؤها القديم (الفرضة) الذي ربطها بموانئ العالم قاطبة، وظل شاهداً على الهجرات الحضرمية في مشارق الأرض ومغاربها.

ملامح مدينة الحلم

وهناك العبقرية الزراعية التي تؤكدها شواهد ما تبقى من عتمها المحاذي للجبل بدءا من آبار البقرين العذبة وصولاً لجابية حطبينة بحي السلام.

في سنوات حكم السلطان صالح بن غالب تعددت أوجه ومشارب النهضة فكانت الحركة الرياضية والمسرحية والفنية النشطة ورافقها البداية المبكرة للعروض السينمائية في باحة قصر السلطان وما صاحبها من رحلات ترفيهية إلى قصوره بمنطقتي غوة والباغ بغيل باوزير.

المكلا القديمة تدهشك وهي تغلق سدتها على نفسها عندما يحل المساء لتغدو منزلاً كبيراً يحتضن أهلها جميعهم .. وتزداد دهشتك وأنت تبصر فجراً الناس وهم يهرعون للبحث عن حوائجهم أمام تلك السدة العتيقة .. فتتملى عيناك بمشاهد الخضروات الطازجة والبرسيم أو القضب الندي .. تضج الحياة وتتفاعل الحركة مجيئاً وذهاباً.. في سويعات العصاري ينتشر الكبار والفتيان لممارسة لعبة كرة القدم في الملاعب الترابية الممتدة على جانبي العيقة من ديس المكلا حتى شاطئ مقهى (مضيّس) ومدرسة الجماهير.

عبقريات الزمن الجميل

يستمتع عشاق اللعبة بعبقريات الزمن الرياضي الجميل من لاعبي كوكب الصباح والشباب والاتحاد وشباب الجنوب والشعب، وتبلغ المتعة ذروتها عصر كل يوم جمعة على ملعب النخيل (الجسر الصيني حالياً) عندما يحتضن الملعب رجال المدينة وفتيانها وتمارس النسوة عشقهن الأبدي في ترويحات العصر ببحر المشراف.

وينزع الكبار والفتيان إلى ممارسة هواية السباحة في سيف حميد والقالدة وورسما بشرج باسالم.

المكلا سيدة المدائن وفاتنة التاريخ ومفتاح جنوب الجزيرة العربية تظل مدينة تعشق الحياة وتؤنسن الغرباء.

المكلا من أجمل أيامها ما تشهده عصريات رمضان والعيد من كل عام وطقوس الطفولة وعادات الكبار .. وتحتفي بألعابها الشعبية: الشبوائي والعدة التي يتخللها المساجلات الشعرية لكبار مبدعيها كالشاعرين سعيد فرج باحريز وناجي بن علي الحاج. وعندما يحل المساء تدب الحياة في أوصال مقاهيها ونواديها الرياضية والثقافية والاجتماعية لتبدأ رحلة جدل في الشؤون العامة على صوت خرير براريد الشاي وتعليقات مرجعيات الحويف، رحلة تبدأ ولا تنتهي .. يقطعها وقد اوغل المساء المكلاوي دندنات المخادر ومسامر الفن والطرب الحضرمي الأصيل على أصوات العمالقة محمد جمعة خان وعبدالله حاج بن طرش ويسلم دحي ومحمد سالم بن شامخ وعوض علي بن هامل والفنان الشاب عبدالرب إدريس والعبقرية الشعبية الفنانة عائشة نصير.

شخصيات خالدة في حياة المكلا

لم تكتمل ملامح الصورة بعد فهناك الشخصيات الخالدة في حياة المدينة كالشيوخ الأجلاء عبدالله الناخبي وعبدالله بكير وعبدالله محفوظ الحداد والعباقرة سعيد وأحمد عوض باوزير ومحمد عبدالقادر بامطرف ومحمد عبدالقادر بافقيه والشعراء الكبار عبدالرحمن باعمر وصالح المفلحي وحسين شيخان وغيرهم.

المكلا، إن ظل الجبل يشعرها بثباتها وشموخها وعنفوانها وخلودها، فالبحر آثر أن يبحر بها إلى أصقاع المعمورة ناثرا عبق الحضارة ووسطية الإسلام وسماحته.

هكذا تبدو المكلا في عمقها الحضاري والتاريخي، جبل وبحر وإنسان، ثلاثية حياة، وديمومة عطاء، لتغدو مدينة المدائن في وهجها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مدينةً قادرةً على نثر أريجها الرائق، وعطرها الفواح، على محيطها الجغرافي والكون قاطبة.

لم تزل المكلا ملهمة لعاشقها .. فلكل عاشق ألف حكاية وحكاية ..

الرائد باشريف وعشق المكلا

الرائد محمد سالم باشريف من عشاق سيدة المدائن وفاتنة التاريخ لم يكل أو يمل من عشقها صبياً وشاباً ورجلاً وكهلاً .. كانت صرخة ميلاده مع السنوات الأولى من جعلها عاصمة السلطنة القعيطية، في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، تدرج في مقاعد الدرس بمدارسها.

في مقتبل عمره انشغل كثيراً بتعلم اللغة الانجليزية عبر مراسلته لهيئة الإذاعة البريطانية واستطاع أن يتقنها - تحدثاً وكتابة - ويلم بقواعدها وطرق تدريسها.

باشريف والتوفل الحضرمي

في العام ١٩٥٥م نفّذ فكرته العبقرية بافتتاح مدرسته لتعلم اللغة الانجليزية في إحدى غرف منزلهم بحي الشهيد خالد مسجلا بذلك علامة الحصرية للتوفل الحضرمي لاجتياز اختبار اللغة الانجليزية لمنتسبي غرفته الصغيرة التاريخية.

غرفة الدرس الأولى ١٩٥٥م

باشريف والريادة

هذه المدرسة التي أعطته الريادة للتعليم الأهلي والخاص، ونجحت فكرته العبقرية في استقطاب عشرات الآلاف من التلاميذ والطلاب والكوادر الإدارية التي وجدت فرصتها سانحة لتعلم اللغة الانجليزية بوصفها فرصة سخيّة ستتيح لهم امكانات تدفع بهم إلى واجهة المجتمع والمنافسة الشريفة على مجالات الحياة كافة.

ظل يطور من مخرجات مدرسته ويتحمل من أجل تطويرها العناء والتعب والشقاء والبذل الكبير، بلغ به الاهتمام أن يحرص على طباعة أحدث المقررات المدرسية للغة الانجليزية على نفقته الخاصة ويتردد على أهم العواصم العربية والأوربية للاستفادة من آخر برامجها العلمية لتعلم هذه اللغة المهمة.

رائد وتلاميذ

من تلامذته الذين اجتازوا سنوات الدراسة الأستاذ محمد محفوظ باحشوان أول وزير مالية بعد الاستقلال والدكتور سالم عمر بكير رئيس جامعة عدن في ثمانينيات القرن الماضي والأساتذة الكبار عمر عبدالرحمن باسنبل وعلي الغريب والدكتور عبدالله عمير وغيرهم.

لم ينحصر نشاط الرائد الفذ محمد سالم باشريف في مجال تعليم اللغة الانجليزية وحسب بل كان من رواد المجتمع المكلاوي في مجالات عدة..

باشريف والرياضة

إذ عشق الرياضة ومارس لعبة كرة القدم مع نادي الشباب ليتقلد رئاسته بعد ذلك، وفي عهده تعددت زيارات كبار عبقريات الكرة في الجنوب ومنهم الكابتن علي محسن مريسي وعبده خوباني.

باشريف والفن الأصيل

وفي فنون الطرب الأصيل كان مجيداً في العزف على آلتي العود والكمان وله يعود الفضل في تعليم الدكتور عبدالرب ادريس أبجديات العزف على العود وإهدائه عوده الخاص لينطلق بعدها الفنان الكبير في عالم الغناء والطرب المحلي والعربي.

الفنان العازف محمد سالم باشريف رافق عبقري الأغنية الحضرمية محمد جمعة خان عازفاً على آلة الكمان في كثير من الحفلات والسهرات الفرائحية.

ومن عشقه للغناء والطرب كان من المؤسسين للندوة الموسيقية الحضرمية في مطلع العام ١٩٦١م.

باشريف ورسالته التاريخية

ظل وفيا راندنا الكبير محمد سالم باشريف لرسالته التي أفنى عمره من أجلها، ولم يجد فرصة إلا واستغلها للاستمرار في أداء هذه الرسالة السامية، حتى فاضت روحه إلى بارئها في مساء يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان الموافق ١٣ يونيو ٢٠١٦م، فشيعته الجموع الغفيرة إلى مثواه الأخير بمقبرة الشيخ يعقوب، عصر يوم الثلاثاء في لحظة وفاء لمدينة المكلا قاطبة لابنها الفاضل محمد سالم باشريف.

رحم الله شيخنا الفاضل محمد سالم باشريف الرجل الذي عشق مدينته، فكان عشقه محفزاً للعطاء والبذل والنبوغ والتفوق في مجالات حياتيه وابداعية متعددة ومتنوعة.

باشريف الأول من اليسار مع بعض أصدقائه

96
العدد (١)
يوليو
سبتمبر
٢٠١٦م

الشاعر الرقيق (١١ عاماً على الرحيل)

صالح عبدالرحمن المفلحي

- ولد عام ١٩٣٣م في المكلا.
- تلقى تعليمه الأولي في حصن الشيبه بالمكلا.
- ثم انتقل إلى المعهد الديني.
- عمل بجيش النظام عام ١٩٤٨م كاتباً.
- عمل موظفاً للبنك الأهلي التجاري في السعودية عام ١٩٥٢م ،
- وعمل كذلك ضابط الوحدات بالمدرسة الحربية عام ١٩٥٦م.
- وفي ١٩٦٩ عمل بمستشفى باشراحيل بالمكلا.
- عمل في الصحة المدرسية مدير شئوون الموظفين.
- وعمل سكرتيراً في الطب الوقائي.
- عضو في اتحاد الأدباء والكتاب.
- صدر له في ١٩٧٠م ديوان بعنوان "خواطر في أنغام".
- له ديوان معد للطبع.
- تميزت أغانيه بالعذوبة ورقة المشاعر.
- تعددت أشعاره بين العاطفي والوطني والرمزي والاجتماعي والإنساني.
- غنى له الفنانون الكبار: محمد جمعة خان، أبوبكر سالم بلفقيه، كرامة مرسال عبدالرب إدريس، عبدالرحمن الحداد، سعيد عبدالمعين، محفوظ بن بريك، بدوي زبير ، خالد الملا، محمد سعد عبدالله، مفتاح سبيت كندارة، أسماء المنور، وعدد آخر من الفنانين العرب.
- توفى بمدينة المكلا يوم السبت ١١ يونيو ٢٠٠٥م.

بوعمر..
عاشق التراث الشعبي

سعيد عمر فرحان (بوعمر) كما يحب أن يناديه أصدقاؤه ومحبوه، دائما، فنان ذو عجينة طينية حضرمية خالصة، ونسيج مغزول بحب التراث الشعبي، ولوحات الأجداد التعبيرية الراقصة، عشق هذه الفنون الموحية الراقصة منذ زمن بعيد، وسعى إلى توثيقها وغربلتها وتنقيتها، فكانت جولاته المتعددة مع غيره من المهتمين بالتراث الشعبي في شموليته الثقافية المتنوعة، ولكنه آثر العيش بين روابي هذه الرقصات الأصيلة التراثية، فعرف راقصا بارعاً، ومؤدياً غنائياً بديعاً، ومعلماً لفنون الإيقاع والحركات التعبيرية، ولم يكتف بذلك، بل زاد اقتراباً وعمقاً من هذا الموروث الثري الحضرمي الباذخ، فطرقه باحثاً ومدققاً مجيدا في أصول وتواريخ ومعاني هذه اللوحات الحضرمية الراقصة، وتوج اهتماماته بتشكيل أول فرقة شعبية للرقص في حضرموت في منتصف ثمانينات القرن الماضي، طافت أصقاع المعمورة، شرقاً وغرباً، فأصبحت واجهة ثقافية وفنية وحضارية للوطن عامة وحضرموت خاصة، بلغ حد شهرتها تقديم دعوات خاصة لها من كثير من الدول العربية والخليجية والأوربية، في أعيادها الوطنية والقومية.

رحل إلى دار البقاء في ٢٧ يونيو ٢٠١١م.

(برمة) رائد المسرح الحضرمي الارتجالي

نجح الفنان الكوميدي الشعبي الراحل مبارك سالم باحمبص الشهير بلقب (برمة) منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي أن يضع لنفسه في قلوب وعشاق المسرح الاجتماعي الساخر مكانة كبيرة، حتى عد بحق الفنان الأول دون منازع، وأصبحت الكثير من الأعمال التي يشترك فيها وزميلاه (البكري، وبلكورة) تتخذ من لقب الشهرة عنوانا للعديد من الأعمال، كما وسمت أعمال الفنان العربي دريد لحام بلقبه (غوار الطوشة) أو الأفلام التي أخذت من شهرة الفنان المصري إسماعيل ياسين مجموعة متنوعة مثل: (إسماعيل ياسين في الجيش، في البحرية، في الحربية) وغير ذلك ، لقد ظل هذا المبدع الموهوب

التلقائي الواثق الأداء والطاغي الحضور المسرحي زمناً طويلاً وفرقته الذين كانوا يرسمون البسمة الحقيقية على الشفاه، ويتعرضون بالنقد الهادف للعديد من الظواهر والسلوكيات الاجتماعية غير الحميدة، من خلال مسرحهم التلقائي (الارتجالي) دون الحاجة إلى نص مكتوب.

أهم أعماله المسرحية:

من أهم أعمال الراحل (برمة) : (كبش العيد، عقيمة، خير العلاج، فضلٌ من الله، الملهوف، بدوي في المدينة، عام دراسي جديد)، ثم الأعمال التي يسبقها لقبه دائما مثل: (برمة في مهب الريح، برمة الحطاب النصاب، برمة رحلة إلى المليون، برمة في مهام صعبة، برمة في نيودلهي، برمة في قسم المرور، برمة يبحث عن حل) وغيرها كثير من الأعمال التي تحتاج إلى بحث وتقص.

الرحيل النبيل:

في الحادي عشر من يونيو من العام ٢٠٠٦م رحل صانع الضحك والبسمات، وليتنا يوماً صنعنا بسمة واحدة على شفتيه.

شاعر (ثورة الحرمان)

عبدالله عبدالكريم الملاحي

(١٩ عاماً على الرحيل)

• من مواليد عام ١٩٣٠م بمدينة الشحر.

• تلقى تعليمه بمدرسة مكارم الأخلاق بالشحر، ثم المدرسة المتوسطة بغيل باوزير.

• عمل بعد تخرجه عام ١٩٤٨-١٩٤٩م - معلما بمدارس الدولة القعيطية في ذلك الوقت، ثم مديرا لمدارسها.

• تولى عدداً من المناصب الإدارية بعد الاستقلال، فكان سكرتيراً لمحافظة حضرموت، ثم سكرتيراً لمحافظة المهرة، فمحافظاً لمحافظة لحج، فسكرتيراً لمجلس رئاسة الجمهورية بعدن، ثم سكرتير أول بسفارة بلادنا بالمملكة العربية السعودية، وأخيراً نائباً لمدير مركز الأبحاث الثقافية والمتاحف والآثار - بعدن .

• كان عضوا في اللجنة التحضيرية لاتحاد الأدباء والكتاب .

• كان أحد أعضاء سكرتارية الاتحاد بعد انعقاد مؤتمره الأول عام ١٩٧٤م.

• مثل الجمهورية في عدد من المنتديات والملتقيات الأدبية في البلاد العربية الشقيقة ودول أوربية .

• شاعر ، وصفه النقاد بالمبدع .

• له ديوانا شعر : الأول بعنوان (ثورة الحرمان)، والثاني بعنوان: (الإبحار إلى مدن الحب والسلام) .

• توفي في ٢٦ يونيو عام١٩٩٧م بعد مرض عضال أقعده سنوات على فراش المرض.

عميد الدان الحضرمي

حداد بن حسن الكاف

من مواليد عام ١٩٠٧ في مدينة تريم التاريخية في عائلة جمعت بين العلم والمال والأدب والفن.

• سماه والده (عمر) ولقبه (حداد) فغلب اللقب على الاسم.

• ألحقه والده بداية بـ (علمة) (معلامة) سعيد بالسحيل، وقرأ القرآن على يد الشيخ عمر بن سعيد باغريب وابنيه سعيد وسالم.

• التحق حداد الكاف بعد ذلك للدراسة برباط تريم، فقرأ الفقه والنحو وغيرهما من العلوم على يد شيخه العلامة عبدالله بن عمر الشاطري والشيخ العلامة أبي بكر بن محمد بن أحمد السري وتعلم الخط والإملاء على يد الشيخ العلامة محمد بن عوض بافضل.

• كان حداد يجيد العزف على آلتي العود والكمنجة.

من روائعه الغنائية :

(رددة ردة بردة مغناك يا با سعيدة) و (يا رب سالك تخلي سرنا مكتوم) و (قال الفتى ربت لي تمناه) و (لا تلومون من قلبه في العشق مقطوب) و (عسى خير يأتي من ثمود) و(نسنس على الصوت يا عاشور) و (حيا ليالي جميلة) و (ذا فصل نظمه في السمر وأحكام) و (ياليلة النور نسنس لا تحاذر) و(يالهوى عشقك بقانون) و (قال بن هاشم العشقة ملقت مباني) و (بسألك ياعاشور عن حال البلد) وغيرهن الكثير.

صدر له ديوان شعر في جزئه الأول.

انتقل حداد بن حسن الكاف إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد ٦ ربيع أول ١٣٨٩هـ الموافق ٢ يونيو، ١٩٦٩ عن عمر ناهز الثانية والستين عاما أثناء زيارة قام بها إلى منطقة الهجرين بدوعن مع كوكبة من العلماء والدعاة إلى الله، ودفن رحمه الله في مقبرة (زنبل) بمدينة تريم.

عمر مرزوق حسنون تاريخ من الإبداع والفنون

يحتاج المتابع لحركة الحياة الفنية والثقافية والإبداعية في حضرموت إلى وقفات متعددة وتأملات كثيرة عندما يقارب رحلة الفنون والإبداع في حضرموت عامة والمكلا خاصة منذ مطلع أربعينيات القرن الماضي وحتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. إذ ستبرز أمامه الكثير من القامات الفنية والإبداعية السامقة التي أثرت الحياة والمشهد الحضاري والثقافي والإبداعي، وظلت تشكل النموذج الحقيقي للمبدع الفنان الذي لا يتردد من تكريس ثقافة الوعي ووعي الثقافة في مجتمعه منشغلاً عن مطامع الدنيا ومصالحها الضيقة والزائفة.

حسنون عنوانٌ للزمن الإبداعي الجميل

ليس سهلاً الإمساك – اليوم – وقد غادرنا الراحل المبدع عمر مرزوق حسنون إلى دار البقاء – يرحمه الله – ليس سهلاً الإمساك بتاريخ وتراث هذا الرجل الذي كان عنواناً أصيلاً ومبدعاً للزمن الجميل، وشكل مع غيره من أعلام ومبدعي خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضي ملامح الحياة الثقافية والفنية والمسرحية والغنائية والتشكيلية والإذاعية والفلكلورية لحضرموت، فكان حسنون (أبا الفنون) إذ تفرد عن كثير من أقرانه بملكاته الإبداعية في فنون التشكيل وهندسة الديكور والخط وتصميم المجسمات للمعالم الأثرية والتاريخية والإخراج المسرحي، كل هذه الملكات رفدها بتاريخ مجيد وعطاء متعدد في الخارطة التربوية والتعليمية لمدارس الإعدادية والثانوية ليختمه بالتعليم الجامعي، يوم تتلمذنا في منتصف ثمانينيات القرن الماضي علي يديه معلماً لمادة الوسائل التعليمية الممتعة التي تمكّن خريج كلية التربية العليا بالمكلا بجامعة عدن من القبض على أدواته المساعدة لمهنته السامية التدريس، وهي السنوات التي اقتربت، كثيراً، منه بمعية أخي وزميلي الطالب حينئذ الدكتور اليوم طه حسين الحضرمي، فترددنا عليه مراراً وتكراراً بـ(اريم) اتحاد نقابات العمال بالمكلا، عندما كان يقوم بإخراج أعماله المسرحية لفرقة بارادم للمسرح، ولكن لرائدنا المبدع عمر مرزوق حسنون أكثر من محطة إبداعية في مشوار حياته الزاخر بالألق في فنون الإبداع بحضرموت.

الشيخ حسنون في اتحاد الأدباء، مع الدكتور باعيسى

حسنون رائد وفنان في مدارس زمان:

لم تشهد مدارس حضرموت الابتدائية زمن الدولة القعيطية في مطلع الخمسينيات من القرن الفارط معلماً كان شعلة نشاط وجذوة حيوية في تفعيل الأنشطة اللاصفية مثل التربوي القدير الفنان الشامل: عمر مرزوق حسنون، فلقد وهب نفسه منذ وقت مبكر لاكتشاف المواهب الطلابية وتدريبها وصقلها، فنياً وإبداعياً، في مجالات الفنون المسرحية والخط والرسم وفن هندسة الديكور وتصميم الوسائل التعليمية، إذ كان شيخنا التربوي عاشقاً كبيراً لفنون الإبداع، وراغباً دائماً في نثر أريجها على بساط المدارس التي تقلد إدارتها، أو كان عضواً فاعلاً في هيئتها التدريسية، ولأنه من ذلك الزمن الجميل الذي راهن على الرقي الحضاري وريادة النبوغ التعليمي والسمو التربوي فقد عمد إلى تعميق عشق الفنون في قلوب تلامذته وطلابه وكان بحق الرائد الذي يشكل الذوات الصغيرة ويصقلها في تلك الفنون لتصبح علامات فارقة في تاريخ هذه الفنون في حضرموت.

الشيخ حسنون مع الممثل المسرحي محمد باسالم (البلمي)

حسنون والطفل الحضرمي:

عندما بدأت مصلحة المعارف (وزارة التربية والتعليم) في الدولة القعيطية منتصف ستينيات القرن العشرين التفكير في (حضرمة) المنهج السوداني الذي اعتمدت عليه في نهضتها التعليمية مع مطلع الأربعينيات، اتجهت إلى كتاب المطالعة للصف الأول ووضعت له مسمى كتاب: (الطفل الحضرمي) للدرجة الأولى بالمدارس الابتدائية، فكان شيخنا الفنان عمر مرزوق حسنون ضمن الفريق التأليف للكتاب مترجماً مفرداته بالصورة والأشكال المعبرة، والكتاب الآخر كان كتاب التاريخ للصف الرابع ابتدائي الذي أطلق عليه: (تاريخ حضرموت في شخصيات) وصدر في ٦ نوفمبر ١٩٥٧م، وألفه الأستاذ سعيد عوض باوزير ووضع دروس المراجعة والاختبار والإرشادات الخاصة بطريقة التدريس للكتاب الأستاذ التربوي الرائد عبدالقادر محمد باحشوان ورسم خطوطه الأستاذ عمر مرزوق ، ليتسع دوره في رسم الأشكال الهندسية والصور واللوحات التعبيرية ليشمل الإصدار التربوي صحيفة (الرسالة التربوية) التي صدر العدد الأول منها في العام ١٩٦٢م، وكذلك جميع الإصدارات السنوية (كتاب الإحصاء التربوي) التي يصدرها قسم الإحصاء والنشر بمصلحة المعارف بالمكلا، ولم تزل هذه الأعمال شاهدة على موهبته وعبقريته المبكرة في الخط والرسم والتشكيل.

المؤلف المسرحي
سالم عبداللاه الحبشي

السباحة في بحار المسرح:

على الرغم من تعدد مواهبه الإبداعية وقدراته الفنية، إلا أنه آثر السباحة في بحور المسرح المدرسي وتعميمه وجعله المحك الحقيقي لنجاح هذه الإدارة المدرسية أو تلك، وواصل رحلته الإبداعية ليرسخ قواعده وأنشطته في مدارس مدينة المكلا خاصة، وظل نشطاً في خلق قاعدة مسرحية تليق بتاريخ حضرموت الحضاري وريادتها في الكثير من الفنون والآداب.

ثنائية حسنون الحبشي:

لقد وجد المبدع عمر مرزوق حسنون في التربوي القدير والمؤلف المسرحي سالم عبداللاه الحبشي خير معين في مشوار عطائه الفني المسرحي، فظهرت الأعمال المسرحية الرائعة مع عمالقة فرقة بارادم للمسرح: (التحدي، الناس أجناس، ريف بلادي، الناقوس) وجلها أعمال عالجت مشكلات اجتماعية وأسهمت في تأصيل التجربة المسرحية في حضرموت.

حسنون مخرجٌ لروائع عربية:

لم يكتفِ المخرج المسرحي ومهندس الديكور للأعمال المسرحية بخوض تجارب مسرحية ذات صبغة محلية، وإنما اتسعت تجربته إلى إخراج الأعمال الروائية والمسرحية العربية ليخلص إلى (حضرمتها) وإسقاطها على الواقع المعيش وجعلها جزءاً مهماً في ذاكرة تاريخ المسرح في حضرموت الذي كانت بدايته مع مطلع العام ١٩٤٠م، ومن هذه الأعمال العربية المميزة التي أخرجها مبدعنا حسنون: الشهداء تأليف الكاتب العربي سعيد عقل التي أخرجها مبدعنا في العام ١٩٦٤م ومثلها فريق التمثيل بنادي الأحرار الرياضي بالمكلا ومسرحيات: هاملت يستيقظ متأخرا تأليف الكاتب السوري ممدوح عدوان، وقائع الدقائق الأخيرة تأليف الكاتب الفلسطيني أحمد عمر شاهين، ومسرحية (أصابع بلا بصمات) تأليف الكاتب الفلسطيني محيي الدين الدمياطي.

حسنون أصابع نحتت الوطن رمزاً:

اشتغل الفنان التشكيلي (النحات) عمر مرزوق حسنون- مبكراً- بتصميم المجسمات للمعالم التاريخية والتراثية لحضرموت عامة، فكان

" الشهداء "
تأليف: سعيد عقيل
اخراج: عمر حسنون
" نادي الاحرار "
1964 م

الشيخ حسنون بمكتبة ثانوية
ابن شهاب بالمكلا مع الفردي

مبدعاً وهو يشكل بأنامله تلك المعالم والأمكنة والمواقع التي تحتضنها حضرموت خاصة والوطن عامة، ليصبح الفنان التشكيلي الوحيد الذي كلفه الرئيس الأسبق سالم ربيع علي (سالمين) منتصف سبعينيات القرن الماضي بتصميم نماذج هندسية تشكيلية معبرة عن حضارة وتاريخ الوطن زمنئذ، لتعتمدها القيادة السياسية والملحقيات الثقافية في جميع سفارات بلادنا كهدايا رمزية للدول والشخصيات السياسية والثقافية والعلمية التي تقوم بزيارات رسمية وغير رسمية لبلادنا، وهو التكليف الذي أنجزه بكل اقتدار ونبوغ، وأرسل بهذه النماذج بعد تصميمها إلى دولة اليابان لتنتج بشكل راق فتغدو عنواناً دلالياً رمزياً للوطن.

حسنون والعشق القديم المتجدد:

ظل المبدع حسنون يحمل هموم المسرح في حضرموت، بعد انتكاسته مع غيره من الروافد الفنية الإبداعية الأخرى منذ منتصف تسعينيات القرن الفائت وحتى اللحظة، إلا أنه يهرع مسرعاً

الشيخ حسنون في كواليس مسرحية (أبو الفضول)
بصحبة المخرج باصالح والممثلين باسالم ومحمد سعيد دحي
ومهندس الإضاءة والصوتيات عبدالله الهندي

إلى أي محاولة لعمل مسرحي يظهر بين الفينة والأخرى، وتغمره السعادة وهو يرى بادرة تعيد إليه الثقة بأن مسرح حضرموت وتاريخه لن يموت، ولقد رأيته أكثر سعادة وحفاوة وهو يقف على المحاولات الأولى للمسرحي الشاب المخرج المعلم أحمد بن مرضاح الذي نجح في السنتين الماضيتين وهو فريقه التمثيلي من طلاب ثانوية (ابن شهاب) بالمكلا في حصد الجائزة الأولى في المسابقة السنوية للأعمال المسرحية التي ينظمها مكتب التربية والتعليم بالمحافظة، وكان أستاذنا المخرج حسنون سعيداً وهو يشاهد الطلاب في غرفة التمثيل يقدمون بروفات العمل المسرحي، فيسارع في تقديم الملاحظات الإخراجية والفنية والأدائية للمخرج الشاب (ابن مرضاح) وطلابه، حينها كنت معه، فشاغلته بهذه المحاولات وذكرته بتاريخه المسرحي وأعلام زمنه الجميل، فقال برقة متناهية:

يا عزيزي صالح ثق في الآتي طالما هناك من لم يستسلم أو ينكسر، فهؤلاء الطلاب – اليوم – أعطوني الأمل في أن القادم سيكون أجمل.

الرحيل النبيل:

بعد مشوار حياة حافل بالعطاء الكبير والتواضع الجم والرقي الإنساني، رحل أستاذنا الشيخ الفاضل عمر مرزوق حسنون في مغرب يوم الاثنين النصف من شهر رمضان الكريم، الموافق ٢٠ من يونيو ٢٠١٦م ليصلى على روحه الطاهرة بمسجد الصديق بغوة ويدفن جثمانه في مقبرة امبيخة بعد صلاة تراويح ذلك المساء الرمضاني، فيكتظ المسجد بأعداد كبيرة من محبيه ورفاق دربه الإنساني والتربوي والمسرحي والإبداعي في لحظة وداع نبيلة لرجل كان النبل ديدنه الوحيد، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه وكل محبيه الصبر والسلوان إنا لله وإنا إليه راجعون.

مشهد من مسرحية (ريف بلادي)
تأليف الأستاذ سالم الحبشي
إخراج عمر مرزوق حسنون

عبدالقادر سعيد بصعر

الحركة المسرحية في أي مجتمع كانت تستمد دماءها الجديدة والواعدة ومواهبها في مراحل التكوين الأولى من المدرسة باعتبارها الموقع الملائم لتفريخ وصقل هذه المواهب وهي تتلمس الخطوات الأولى نحو الآفاق الفسيحة ، فكلما أعطي اهتمام بالمسرح المدرسي وأضحى فعالاً ونشطاً تمكنا من اكتشاف مواهب تنطلق بعد صقل موهبتها في المدرسة إلى المساهمة بثقة وجدارة في الفرق المسرحية ، والعكس من ذلك ، عندما يخيم الركود على هذا النوع من النشاط يؤدي بالضرورة إلى وأد وإجهاض مواهب مسرحية لم ترَ النور بعد .

المسرح ومواد التكوين الأولى

وفي محافظة حضرموت قبل سنوات عديدة خلت تجربة جديرة بالإشادة ، وتتمثل هذه التجربة في أن ينظم بصورة سنوية مهرجان المسرح المدرسي ، الذي يتم التركيز للاشتراك فيه على المدارس الثانوية بصورة رئيسة وبعض مدارس التعليم الأساسي الذي تولى هذا النوع من النشاط الاهتمام المطلوب ، فمثل هذا النوع من النشاط ينظم بصورة سنوية ويشرف عليه مكتب وزارة التربية والتعليم بالمحافظة ، ويدب في المدارس المشاركة في هذا المهرجان حالة من النشاط للتهيؤ والاستعداد لهذا المهرجان الذي يدشن في السابع والعشرين من مارس الذي يصادف اليوم العالمي للمسرح ، وبعد تقديم الأعمال المسرحية المحددة للمشاركة ، تنظم مراسيم احتفالية تكريمية تختتم بها هذه الفعالية الثقافية الباذخة ويتم منح الشهادات التقديرية والحوافز المادية والعينية لأحسن عرض مسرحي متكامل وكذا أفضل مخرج مسرحي ، وكذا أفضل ثلاثة ممثلين في كل العروض المسرحية ، وتضطلع بالمهمة تلك لجنة تحكيم يتم اختيارهم بعناية ودقة ومن ذوي الاهتمامات المسرحية .

وقد أفرزت تجربة إقامة هذه المهرجانات إيجابيات عديدة وجمة ، منها إعطاء هذا النوع من النشاط الأولوية بعد أن انزوى إلى الظل ، إضافة إلى مساهمته في إبراز مواهب في الكتابة للمسرح ، وكذا في الإخراج المسرحي لذوي الميول في هذا الجانب من المدرسين ، إضافة إلى اتساع قاعدة ممارسي هذا الفن النبيل ، الذي يطلق عليه (أبو الفنون) وكذا محبيه ومتذوقيه ، وفوق هذا وذاك رفد الحركة المسرحية والفرق المسرحية بعدد من المواهب المسرحية التي أصبحت تشارك بدور ملموس في الأعمال المسرحية لهذه الفرق التي أوجه الدعوة للجهات المسؤولة والمعنية بالأمر لإحياء هذه التجربة التي انقرضت منذ سنوات ونحن يحدونا تفاؤل أن دعوتنا ستلقى استجابة .

ومازلنا بصدد التحدث عن هذه التجربة ، أضحى من الأهمية بمكان أن تجد لها صداها في جامعاتنا كافة وخاصة بعد أن يتم التغلب على الظروف الاستثنائية التي يمر بها الوطن ويعم الأمن والاستقرار والدولة المدنية دولة المؤسسات والنظام والقانون ، أما عندما تسود الفوضى والاضطرابات والقلاقل فإن الأمر جد صعب . ولكن لابأس أن نحلم ونغرق في التفاؤل ونتطلع في الأعوام القليلة القادمة أن تبدأ التجربة الأولى لمهرجان المسرح الجامعي وأن تتظافر جهود وزارة التعليم العالي ووزارة الثقافة من أجل إنجاح هذه التظاهرة المسرحية ، يتحقق من خلالها ربط المجتمع بأنشطة الجامعة ، ولا ضير أن تمت الاستعانة بعدد من الكوادر المسرحية التي تلقت تأهيلاً علمياً وأكاديمياً في هذا المجال للإشراف والمشاركة في إخراج عدد من هذه الأعمال المسرحية .

نأمل أن يتبوأ المسرح الجامعي في بلادنا مكانته اللائقة به بوصف الجامعة مركز الإشعاع العلمي والثقافي في مجتمعنا ليرفد هذا المسرح بعطائه المستمر حركتنا المسرحية وكما يقولون : مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة ، فهل نبدأها .

لا نعرف بالتحديد متى قدمت أول مسرحية من قبل طلاب مدرسة مكارم الأخلاق بالشحر بعد تأسيسها. مرجع ذلك إلى عدم وجود أي وثيقة تدل على ذلك. وإن أعمالاً مسرحية قدمت خلال تلك الفترة بعد التأسيس .. والمرجع الوحيد الذي وجد في نشاط المدرسة المسرحي هو الذي بتاريخ العام الدراسي ٥٢ – ٥٣ م ومن المؤكد أن هذا النشاط لم يكن الأول ..

مدرسة مكارم الأخلاق ونشاطها المسرحي

أ. محمد عوض باصالح

لقد قدمت في العام الدراسي ٥٢ – ٥٣ م مسرحية العاصفة الكبيرة وهي من إخراج الفنان والأستاذ محمد علي مخارش .. وتمثيل الطلاب عبدالله حسين بن بريك سعيد يسلم بخضر. عبود باغزال محمود بن تمام. كما قدم الطلاب في العام الدراسي ٥٣ – ٥٤ مسرحية العباسة أخت الرشيد تأليف جرجي زيدان إخراج الأستاذ محمد علي مخارش تمثيل الطالب عبدالقادر الصبان أحمد محمد بريك ناجي بن بريك عمر بازرقان سعيد بايض..

والشيء الذي أود أن أقوله إنني حفرت ذلك العرض المسرحي بمسرح الباغ في ذلك العام الدراسي ٥٣ – ٥٤ م وكنت في الصف الثاني ابتدائي إن لم تخن الذاكرة، وعندما أتذكر الآن ذلك العمل الجميل الذي أخرجه الأستاذ محمد علي مخارش في ذلك الوقت المبكر وقدمه الطلاب وأتقنوا التمثيل وتعمق شخصيات العمل المسرحي وهم في سنيهم الأولى أعمارهم لا تتعدى الثانية عشر أو تزيد قليلاً .. أتذكر الطالب أحمد محمد بن بريك في دور هارون الرشيد وتقمصه لشخصية هارون الرشيد وعبدالقادر الصبان في دور جعفر البرمكي .. وكيف حاول الدفاع عنه وإبعاد التهمة التي اتهم بها من جراء خيانته لهارون الرشيد وناجي بن بريك ففي دور العباسة أخت الرشيد وسبب المشكلة التي أدت بالبرامكة إلى التهلكة وهنا لا ننسى الصوت الجميل الذي امتلكه الطالب محمد عبدالله باصالح وهو يشرح بأغنية في مجلس سمر في حضرة هارون الرشيد: " ليت هنداً انجزتنا ما تعد ". وشفت أنفسنا مما تجد كان الطالب محمد عبدالله باصالح يتمتع بصوت رخيم لازال صداه يتردد في أذني منذ تلك اللحظة وقبل خمسة وستين عاماً أو يزيد .. فهنا لا أنسى دور الطالب عمر عبدالرحمن بازرقان وسعيد محمد بايض السنوات أتقنا دوريهما في المسرحية وأصبحا فيما بعد ممثلين في نادي شباب الجنوب في السنين من القرن الماضي عند ما قدم مسرحيات عديدة ..

نعود إلى المسرحيات التي قدمتها مدرسة مكارم الأخلاق في تلك الفترة ومنها فتى العرب في العام الدراسي ٥٤ – ٥٥م والتي أخرجها محمد علي مخارش وإسلام عمر وأخرجها الفنان صالح سالم لرضي تمثيل الطالب محمد عبدالله باشراحيل، محمد البيض، سالم فرج غرامة .. وقدمت في عام ٥٦ -٥٧ م في العام الدراسي ٥٧ – ٥٨ قدم طلاب المدرسة مسرحية الأشعث بن قيس

طلاب مدرسة مكارم الأخلاق (زمان)

الكندي تأليف سعيد عوض باوزير إخراج الأستاذ صالح سالم لرضي .. تمثيل عمر سالم برعيه سالم يسلم اليزيدي سالم طاهر لرضي تتحدث عن حروب الردة وكيف عادت حضرموت إلى حجزة الإسلام بعد محاولة البعض نت الحضارة الارتداد عن الدين .. وفي العام الدراسي ٥٧ – ٥٨ أيضاً قدمنا مسرحية عابد الذهب أخرجها الأستاذ محمد علي جواس تمثيل الطلاب محمد عبدالله باشراحيل , عبدالقادر باشراحيل , أحمد صالح باشراحيل .. وفي العام الدراسي ٥٩ – ٦٠ إعادة لإسلام عمر من إخراج الأستاذ عبدالرحمن الملاحي ..

في العام الدراسي .. ٥٨ – ٥٩ م قدمت المدرسة مسرحية القناعة كنز لا يفنى إخراج الأستاذ عبدالرحمن الملاحي .. وفي العام الدراسي ٥٩ – ٦٠ م إعادة لمسرحية إسلام عمر وأخرجها الأستاذ عبدالرحمن الملاحي ..

الشاعر الكبير المحضار والمؤلف المسرحي الملاحي
قدّمت لهما أعمال مسرحية ضمن النشاط المسرحي للمدرسة

في العام الدراسي ٦٠ – ٦١ م قدمت المدرسة مسرحية القائد همام.. فهي من الأدب العالمي عن القصة المشهورة الجريمة والعقاب واشترك فيها طلاب المدرسة الشرقية: (مكارم الأخلاق) والمدرسة الغربية أخرجها الاستاد عبدالرحمن الملاحي تمثيل الطالب محمد بن سلم، علي خميس حمدان، محفوظ بن بريك، محمد سقاف الهدار، محمد باشراحيل ..

ثم تأتي سنين عجاف بالنسبة للنشاط المسرحي بالمدرسة ثم تعيد الادارات المسرحية فيما بعد هذا النشاط في عام ٧٤ - ٧٥م بمسرحية من تأليف الأستاذ محمد عوض باصالح وإخراج عمر سالم برعية نداء الأرض (سعدون) تمثيل الأساتذة فرج سعيد الصبان، محمد طاهر عوض، الطالب محمد سعيد لرضي، سعيد بن عبيد اللاه، خميس سالم الحداد، محمد حسن سعد، ويتحدث النص المسرحي عن الصراع الطبقي بين الملاك للأراضي الزراعية والفلاحين ..

وتتوالى الأعمال المسرحية بعد ذلك حيث قدمت مسرحية من الحياة تأليف الأستاذ أحمد عبدالله بامدحج إخراج الأستاذ صلاح باقطيان في العام الدراسي ٧٥ – ٧٦ م ومسرحية فلسطين ٧٦ – ٧٧م لعمر باذيب ورحلة الروح لأحمد بامدحج في العام الدراسي ٧٧ – ٧٨ م وقدّمت في العام الدراسي ٧٩ – ٨٠ مسرحية كوميدية للأستاذ سالم غالب القعيطي، وسالم بانعيمون وفي العام الدراسي ٨٤ – ٨٥ قدم الطلاب مسرحية المنادي تأليف الملاحي إخراج محمد عبدالقادر باشراحيل، في العام الدراسي ٨٥ – ٨٦ يقدم الطلاب مسرحية العدالة لعبدالله الهادي إخراج محمد عبدالقادر باشراحيل.

ثم تتوالى العروض المسرحية المدرسية في مكارم الأخلاق ففي العادم الدراسي ٨٦ – ٨٧ تقدم المدرسة مسرحية بدوية في البندر لعبود السلمة وإخراج محمد نصيب وفي العام الدراسي ٨٧ - ٨٨ مسرحية فلسطين لسهيل عرفة إخراج محمد عبدالقادر باشراحيل ومسرحية معجزة الغار اخراج برك عمير ٩١ – ٩٢م وفي العام الدراسي ٩١- ٩٢ قُدّمت مسمار جحا لعلي أحمد باكثير إخراج محمد عبدالقادر باشراحيل .. والشهيد في العام الدراسي ٩٦-٩٧... وفي العام الدراسي٩٦-٩٧ وبمناسبة احتفال المدرسة بذكرى تأسيسها الثمانين تقدم لوحة فنية غنائية رائعة تأليف حسين المحضار- محمد عوض باصالح إخراج محمد عوض باصالح عمر سالم برعية عبدالله بن حراش حسن مقدم علي سعيد محمد باعامر .. كما قدمت المدرسة من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٤ مسرحيات أربع من تأليف وإخراج الأستاذ محمد عوض باصالح .. هذا بعض من النشاط المسرحي لمدرسة مكارم الأخلاق بالشحر وقد لا يشبع رغبة القارئ العزيز ولكنه شيء خير من لا شيء كما يقولون...

ثم توقف نشاط المسرح بالمدرسة بعد عام ٢٠٠٤ عندما ارتأى مكتب التربية بالشحر أن يكون النشاط المدرسي تشارك فيه جميع المدارس حيث قدمت الكثير من الأعمال المسرحية.

في ذكرى وفاته الـ (29)

الشاعر عبدالله أبو بكر التوي

يُعدّ الشاعر عبدالله أبوبكر التوي من رواد شعراء الغناء، عاش بعيداً عن الأضواء، وهو من مواليد مدينة شبام عام ١٩٣٠م تربى وترعرع بين أحضان والده أبي بكر محمد التوي الشخصية الاجتماعية، ورجل الخير والإحسان، درس في مدرسة النجاح بشبام وهي المدرسة التي أسسها والده عام ١٩٢٢م وأشرف وأنفق عليها، وعلى يد مديرها محفوظ المصلي وأساتذتها وخاصة السيد شيخ بن عبدالله الحبشي الذي اعتنى به وشجعه على نظم الشعر، فبدأ بنظمه وهو في سن الرابعة عشر من عمره.

أ. عوض عمر حسّان

نبغ التوي خلال دراسته وظهرت ميوله الأدبية في سن مبكرة، وكان نشاطه ملحوظاً، إذ أنشأ نادي (اليقظة) وهو نادٍ أدبي أصدر مجلة اليقظة، وهي نشرة علمية أدبية شهرية تكتب باليد وتوزع على الشخصيات العلمية والأدبية والمهتمة. وكان شاعرنا هو المدير المسؤول عنها. وقد نشر فيها باكورة قصائده الشعرية. وبعد تخرجه في المدرسة أنشأ مع زملائه نادي الشباب الأدبي وتولى رئاسته وكان لهذا النادي نشاط علمي وثقافي واجتماعي كبير.

وفي عام ١٩٤٩ هاجر الشاعر عبدالله التوي إلى سنغافورا ليرعى تجارة والده هناك، ولكن لم يرق له المهجر فعاد إلى أرض الوطن عام ١٩٥١م ليسهم في الحياة الاجتماعية والأدبية بمدينة شبام وخلال تواجده في سنغافورا نجد أنه تأثر بالحياة الأدبية هناك وأختلط بالأوساط العلمية والثقافية وتفاعل معها مما أسهم في صقل موهبته الشعرية.

وبعد عودته من سنغافورا إلى شبام تزوج فيها، وبدأ نشاطه الأدبي والاجتماعي وشارك في إنشاء نادي التعاون بشبام عام ١٩٥٣م وكان أول سكرتير عام لهذا النادي، ولهذا النادي نشاط ثقافي واجتماعي ثم سياسي فيما بعد.

انتقل التوي عام ١٩٥٥م إلى عدن حيث مارس نشاطه التجاري وكان على اتصال بالحركات الأدبية والفنية وتعرف على العديد من الشخصيات الأدبية والفنية أمثال لطفي جعفر أمان والصحفي أحمد شريف الرفاعي والشاعر عبدالله هادي سبيت وغيرهم كما تعرف على بعض الفنانين كالأستاذ يحيى مكي، وأبي بكر سالم بلفقيه وغيرهم وقد ربطته بهم علاقة صداقة حميمة.

في الفترة من عام ١٩٥٨-١٩٦٧م عمل شاعرنا في الشؤون المحاسبية كموظف في منطقة جعار والضالع ،ولم يتخل عن ميوله الأدبية والفنية هناك فأنشأ مجلة (التقدم) في الضالع، وترأس تحريرها، وكذا مجلة (يافع) في جعار ونشر فيها العديد من قصائده وبعض القصص القصيرة التي كان يكتبها، إضافة إلى نشره العديد من القصائد والقصص في بعض المجلات التي كانت تصدر في عدن آنذاك.

اشتغل من عام ١٩٦٨م وحتى وفاته مديراً للدوائر المالية والإدارية بسكرتارية المكتب التنفيذي بمحافظة أبين، تلقى في عامي ١٩٨١-١٩٧٣ م دورتين تدريبيتين في شؤون الحكم المحلي في سوريا وألمانيا الديمقراطية، ويحمل شاعرنا التوي شهادة عليا في المحاسبة، خلال هذه الفترة أسهم في تكوين ندوة يافع الموسيقية وفي تطوير الحركة الأدبية والفنية في محافظة أبين، وفي نشر الوعي بين صفوف المواطنين هناك.

الشاعر عبدالله أبو بكر التوي نموذج متواضع من شعراء الغناء الرفيع المستوى ذو رونق وبهاء ينبع من سلاسة لفظه ورقة معانيه، وربما يُعدُ من رواد الشعر الغنائي إلى جانب لطفي أمان في تلك الفترة.

وباستعراض نماذج من قصائده نجد أن قصائد التوي أتت خالية من الصيغ البديعية، وفخامة الألفاظ وضخامة المطلع وتلك القيود التي تكبل شعراؤنا فيها ردحاً من الزمن فاستطاع أن يتخلص من التقليد.

فها هي قصيدة ليلة :

ليلة شعت لنا بالنور إذ هلّ بهاها
قمرٌ في الروض تختالُ رويداً في خطاها
وتهادى الغصنُ نشواناً يحيي إذ رآها
وأغاريد البلابل ...
فوق أشجار الخمائل ..
عزفت لحن لقاء طال مداه

* * *

ولزمنا الصمت إلا بعض همس خافت
من شفاهٍ منها طول عذاب فانت
وعيون تتلاقى في عتابٍ صامتٍ
أترى هذه حقيقة ؟!
أم خيالات رقيقة ؟!
لا تسلني إنه سر الحياة

* * *

ومضت في قبلةٍ بعد عذابٍ شفتانا
فانتشت من خمرها روحان أحيت بلقانا
لم نخل ليلتها في الكون مخلوقاً سوانا
ليلةٌ مرت سعيدة ..
في ملذات عديدة ..
وارتوت بعد ظمأ منا الشفاه

* * *

الملحّن مكّي

الفنان بلفقيه

ومضى الليل فانسانا اللقاء قرب الفراق
فإذا الفجر يصحينا بأنسام رقاق
فمضت مسرعة من غير وعد للتلاقي
فاطو يا قلبي عذابي
واحتمل طول اغترابي
عبثاً ان رُمت أن تسلو هواه

هذه القصيدة لحنها الفنان أبو بكر سالم بلفقيه وغنتها المطربة نازك بصوتها العذب الشجي. كما ترنم بها بلفقيه أيضاً.

إن شاعرنا أبو وهيب يترجم في قصائده رقة وعذوبة وآمال المحبين بلغة سلسة جميلة، ذات وقع موسيقي شجي، يبث ما يعاني ويقاسي ويأمل حلاً للتلاقي وفي قصيدة سمراء:

أنت يا سمراء يا مصدر إلهامي وفني
أنت يا بلسم آلامي وأشجاني وحزني
أنت يا من أنت لي في الكون غايات التمني
ها هو الليل طوانا
وغفى الكل سوانا
فانشدي لحن لقانا
مع موسيقى العباب الزاخر
* * *
بعد هجران وصد آه كم يحلو التلاقي
فتجودي يا حياتي بلثم وعناق
هذه ليلتنا أولى ليالات الوفاق
فدعينا نتساقى
قد سقا الجو ورقا
وانسي هجراً وفراقا
بين أحضان البلاج الساحر
* * *
انظري البدر تجلى ساطعاً فينا ضياه
عاكساً في البحر أملاك لجين في سناه
وغفا الكون فلا يسمع نجوانا سواه
فاسمعي خفق فؤادي
عازفاً لحن ودادي
في خضوع وانقياد
لكي ما عاش فؤاد الشاعر

هذه قصيده لحنها الأستاذ يحيى مكي وغناها الفنان محمد صالح همشري كما غنى له قصيدة هل تذكرين أو قصة غرام.

هناك في الكوخ بين النخيل
وقد رق نفح النسيم العليل
وغنى الهزار بلحن جميل
على الدوح يمرح بين الخميل
هناك التقينا لأول مرة
وقد كان منا ابتسام ونظرة
فمولد حبي .. أما تذكرين

إن أثر الحياة السعيدة والتي عاشها شاعرنا في كنف أسرة ميسورة الحال ظاهر وجلي، فهو يعبر عن وجدانه وحبه، عن ألم هواجسه، فهو شاعر رقيق تصل معانيه إلى قلبك في حلاوة وسهولة وعذوبة، وأقتطف من إحدى قصائده هذه الأبيات:

تحية الحبيب:

إليك حبيبتي أهدي على البعد تحياتي
لقد ألهمني حبك أشعاري وأبياتي
فأودعت أناشيد الهوى أحلى مناجاتي
لقد فجرت في قلبي ينبوعاً من مسرات
متاعي أنت في الدنيا وأفراحي ولذاتي

وشدا الفنان أبو بكر بلفقيه بقصيدة (ليلة العمر):

هدهدي الروح وغني طربا
وارقصي ثم انذني أن أشربا
واخلعي عنك وقاراً وحيا
فلقد نامت عيون الرقبا
وأسلمي ثغرك لي في قبلة
علها تعلني دماً ملتهبا

وقد سمعت هذه الأغنية بصوت الفنان بدوي زبير، كما غنى لشاعرنا الفنان عبد الرحمن الحداد أغنية:(مني سلام مرسل) وعلوي صالح الكاف: (سؤال) وأبو بكر بلفقيه عدة أغان (حنانيك) و (موعد) وغيرها.

لقد طرق أبو وهيب الشعر الشعبي (الحميني) وصال فيه وجال وترجم آلام حبه في قصائده الحميني هو خاصة قبل أن يغادر شبام إلى عدن وزامل كبار الشعراء والدان كالشاعر أحمد عبود با وزير، عائض بالوعل، محمد بن ناصر القعيطي وغيرهم.

وقد غنى له الفنان محمد جمعه خان قصيدة:

ذا خرج فصل طال البعد والشوق ثائر
والمعنّى يبيت للثريا مسامر
لا تذكر قسم لا يطيق الدف ع النون
يا رعى الله ليالي الأنس في وسط سيؤن
يا عذيب اللمى حي الليالي الغوابر
حي وقت مضى في ظل لقياك زاهر
ما نقلن هكذا من بعد ذا الود تلقون
يا رعى الله ليالي الأنس في وسط سيئون

حي ذاك الزمن لي مر في أنس وفر
في صفا في نقا ما بيننا الكاس دائر
حي ذاك الزمن لي مر في بسط وفنون
يا رعى الله ليالي الأنس في وسط سيؤن

كما غنى له الفنان محمد جمعه خان أيضاً:(على الجور با نصبر)

ذا خرج فصل والثاني على الجور با نصبر
ع صروف القدر قد فاز كل من مسى صابر
ما تقع بالخير غير المقدر
استلم يا لمعنى ما قضته المقادير
صوب بالقلب من بعده وبالشان يتجبر
غير لا قد سمح بالوصل باقول هو جابر
صاحبي هو بالبعد قسر
ما تذكر صفا الماضي بذيك المقاصير
ما لقيت البصر ياشيخ شف عقلي تحير
سير داوي بلا ديره أنا والنبي حائر
يوم وصله تعسر ما تيسر
اعملوا لي بصيره خاف نسقط ونا سير
لي هجرنا على لقياه أنا دوب باتحسر
ما تقنعت من عشقته والقلب له حاسر
بانتظر للقا لمان أحشر
واللقاء في جنان الخلد سعف المحاشير

وهذه القصيدة هي أول قصيدة دان تغنى بالآلات الموسيقية إذ صادفت زيارة الفنان محمد جمعه خان إلى شبام خلال فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر وفي ظل الاحتفاء به، أقيمت سهرة دان في شبام وأعجب بالكلمات واللحن محمد جمعه وأخذ العود ودندن بها ثم عاد إلى المكلا وغناها مع فرقته وسجلها في الإسطوانات وإذاعة عدن.

كما ترنم بأغاني الشاعر عبدالله التوي، عدد من الفنانين، ولقد كان أبو وهيب أديباً، شاعراً، وقاصاً وإنساناً أحب بلاده وفضلها على المهجر.

توفي وله خمسة أولاد، ٣ أبناء وبنتان، وقد صارع المرض طويلاً دون أن يحظ برعاية أو عناية من الدولة، وفي يوم الخميس الموافق ٤ / يونيو / ١٩٨٧ م فارق الحياة في شقته في عدن. رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه الجنة.

توقيع قلم

أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي

ملحوظة:
هذه حكاية خيالية مستمدة (بتصرف) من الثقافة الشفاهية الشعبية الحضرمية، فمن وجد في شخصه تشابه مع بعض شخوصها فهذا شأن يخص شخصه الكريم، ولا يخص الحكاية الخيالية وشخوصها.

النهقة

تسارعت بهم الخطى، إلى نقطة التقى. لا أدري كم عددهم ؛ فهناك احتمال أنهم سبعة ثامنهم حمارهم أو تسعة عاشرهم حمارهم، فغرابة الحكاية جعلتني أغفل عن تحديد عددهم، ومعرفة أصنافهم، ولكن من خلال حكاية (أحدهم) عرفت أنهم متقاربون في الفصيلة والقامة.

ومضى يحكي..... لم يكترث بما ينتابني -أحيانا - من غفلة وشرود :

في ساحة كبيرة من المخاطر والغموض، ولدت حاجتنا ومصلحتنا في النهوض. وبعد شدة وصبر ضحك لنا القدر، ووجدنا أنفسنا في مكان أمين بعيد عن الأنظار. كانت المراعي وفيرة، وآبار الماء متدفقة غزيرة. عززت سنين الشدة والفرج صداقتنا وتطورت هذه الصداقة إلى قريب من مرحلة الأخوة بمعانيها الأصيلة الصادقة، وانطلقنا نحو المراعي المفتوحة والجبال المنصوبة. لم يكن هناك ما يدعو للخوف. كان تماسكنا يغمر قلوبنا بالطمأنينة، وشبابنا يملأ عالمنا، وحتى حمارنا لم يستطع تعكير صفاء مخدعنا.

لكن دوام الحال من المحال ..... فقد تمايلت أبصار البعض منا، حتى ظهر منا من أراد وحده أن يرسم خطواتنا، ثم بدأنا نشعر باحتكاك أجسامنا، وفي الظلام تفرغ بعضنا لعض بعضنا، وبهذا اضطرب أمننا.

وهكذا شاخت قلوبنا وكانت شباباً، وصار ما نبنيه بأيدينا تهدمه أرجلنا. وفرح الحمار، و ظن الوقت حان لينهق نهقته ، ولكن ما تبقى من صوت العقل ألجمه.

ومضت السنون، فقدنا بعض هيبتنا ولكن لم يجرؤ أحد من خارج مجموعتنا على نهش لحمنا. وقبل نهقة الحمار الكبرى كان زميلنا مصدر تماسكنا، وعنوان حكمتنا يتقدمنا باحترام، وقبول ، وبدأت بوادر جديدة تنعش الآمال وتجدد الأحلام، وهكذا لاحت أيام الصفاء القديمة، وكادت أن تلتئم جميع الجراح ولكن الحمار اللعين عاد إلى أصله وكاد أن يخل باتفاق خطير كنا قد عقدناه، وهو أن نلتزم جميعا بالهدوء لكي لا نلفت إلى أنفسنا الأنظار، كانت ضغوطاتنا بعد التكرار، تنفع مع الحمار. ولكن شوق الحمار للنهيق تجاوز قدراته على الصبر، وسماع صوت العقل. .وأخذ يطالب بالعودة إلى أصله وطبيعته مهما كان الثمن.

تراوحت شكوك البعض منا تجاه الحمار، لكنها لم ترتق إلى مرحلة الاتهام بالخيانة والغدر. إنها سلوكيات خبيثة ماكرة فوق قدراته ، ولكن جنوحه الغريب المخل بالاتفاق العظيم أدهشنا وأثار تساؤلاتنا !؟ كيف يقذف بنفسه ومن معه إلى مزالق مجهولة خطرة!.. إن الأعداء والمتربصين كثيرون، وكان صمتنا يذعرهم، وغموضنا يبعدهم . أكثرنا تفاؤلاً قال: إن الخيرات التي نطقت بها الأرض بعد الأمطار الغزيرة جعلت الحمار يشعر بالطمأنينة والسعادة ولا وسيلة أمامه في التعبير عن ذلك إلا النهيق، وهناك من شطح به التحليل إلى بعيد، وقال : إن اضطراب حركة السحاب في السماء أصاب الحمار بالذعر ، فهي نهقة خوف وليست نهقة سعادة.

ولهنيئة سكت الراوي حتى يشدني إلى المشهد الحزين،أو لعله شعر ببعض الاضطراب في روايته ! .....وقال :

اعتلى الحمار ربوة قصية ، كان قد حسم أمره، توسلنا تحت الحمار ألا يفعلها...قيل له : إن تصرفك سيهدد حياتنا ومستقبلنا فلا تجعل شهوة لحظات تهوي بنا إلى الظلمات، ثم قيل له بنهره: إن النهقة تعني الموت ... ولكنه قرر ألا يسمع هذه المرة ، إلا صوته النكرة ..... وبتصميم (بليد) تراجع الحمار خطوتين إلى الوراء ثم رفع يديه استعداداً لإطلاق قذائفه المكبوتة.....

المكلا

من أرشيف
المصوّر الرائد
أحمد باجنيد

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

من إصدارات المركز